محمد صلى الله عليه وآله وسلم

كأن لم تعرفه من قبل!

الجزء الأول

سماحة الشيخ ياسر الحبيب

محمد ﷺ كان لم تعرفه من قبل!

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٥م

الشيخ ياسر الحبيب

لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

لقد جاءكم رسول من أنفسكم
عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤوف رحيم

التوبة: ١٢٨

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا

الأحزاب: ٢١

لم أرَ قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وآله

علي عليه السلام

مهذب لا يداني، هاشمي لا يوازي، أبطحي لا يسامي، شيمته الحياء وطبيعته السخاء، مجبول على أوقار النبوة وأخلاقها، مطبوع على أوصاف الرسالة وأحلامها.

الصادق عليه السلام

مقدمة النّاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذي أرسل خاتم أنبيائه رحمةً للعالمين، وشرفه بحمل الرسالة الكبرى، ونصبه هاديًا وبشيرًا ونذيرًا، فجعل نوره سراجًا منيرًا، وأقام به الحجة على الخلق أجمعين.

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على أشرف خلقك، حبيبك وخيرتك من عبادك، سيدنا محمد بن عبد اللّه، النور الذي أضاء ظلمات الجهل، والرحمة المهداة التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، صلاةً دائمةً ما أشرقت شمس وما أطل هلال، وما تعاقب الليل والنهار، وعلى آل بيته الأطهار، حملة الوحي وأمناء الرسالة، الذين طهرهم اللّه تطهيرًا، ورفع منزلتهم فوق العالمين، وجعلهم حججًا على عباده إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها القارئ الكريم، بين يديك كتابٌ ليس كأي كتاب، وصفحاتٌ ليست كأي

صفحات. إنه سفرٌ عظيم، يتوج سلسلةً من المحاضرات القيمة التي ألقاها سماحة الشيخ ياسر الحبيب (حفظه الله)، والتي طالما أثارت العقول وألهبت القلوب، فكانت شعلة هدايةٍ لكثيرٍ من الباحثين عن الحقائق الغائبة. هذا الكتاب المبارك، الذي يحمل عنوان

"محمد صلى الله عليه وآله: كأن لم تعرفه من قبل"..

هو ثمرة جهد فكري عميق، ومشروع ثقافي هادف، يقدم صورة جديدة ومبهرة عن نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) كما لم تُقدم من قبل.. فقد استمر العمل على هذا السِّفر، وهو الجزء الأول شهورًا طِوال..

في هذا الكتاب، لا نجد سردًا تقليديًا مكررًا لسيرة النبي الأعظم، كما اعتدنا أن نقرأه في المناهج المدرسية أو الكتب العامة، بل نجد محاولةً جريئة لإعادة اكتشاف هذه الشخصية العظيمة بعيدًا عن التزييف والتحريف. فهو يضع القارئ أمام حقائق صادمة وأبعاد غير معروفة من سيرته وهديه (صلى الله عليه وآله)، ويسعى لتحرير الصورة النبوية من التشوهات التي ألصقت بها عبر العصور.

سماحة الشيخ ياسر الحبيب، مؤلف الكتاب، لا يقدم في هذه الصفحات مجرد تحليل فكري، بل يأخذك في رحلة روحية وعقلية، يزيل خلالها الغبار عن حقائق مغيبة، ويكشف زيف الروايات التي حاولت تشويه صورة النبي

الأكرم (صلى اللّه عليه وآله). بأسلوبه الواضح والمنهجي، يقودك الشيخ إلى فهمٍ أعمق لمعاني الرسالة المحمدية، ويدعوك لتأمل سيرته العطرة بعيون جديدة، عيون ترى النور خلف الحجب والستائر.

هذا الكتاب يفتح نافذةً جديدةً للقارئ، ليكتشف شخصية النبي الأعظم (صلى اللّه عليه وآله) كما أراد الله أن تُعرف، لا كما أراد أعداؤه أن تُشوّه.

إننا نعيش في زمنٍ تضيع فيه الحقائق وسط زحام المرويات الملفقة، حيث تختلط الصور الحقيقية بالأساطير والخرافات. جاء هذا الكتاب ليعيد الأمور إلى نصابها، ويكشف النقاب عن صورة النبي الحقيقية التي غُيبت بفعل التزييف والتجهيل المتعمد. ليس هذا الكتاب مجرد عمل أدبي أو فكري، بل هو نداءٌ لكل مسلم ليعيد النظر في الصورة التي يحملها عن نبيه الأعظم (صلى اللّه عليه وآله).

يبدأ الكتاب بتناول القضايا التي طالما أغفلها المسلمون في قراءتهم لسيرة النبي (صلى اللّه عليه وآله)، ومنها تساؤل كبير: كيف كانت الأمم السابقة، كاليهود مثلاً، تعرف بظهور النبي (صلى اللّه عليه وآله) وتنتظره بشغف، لكنها عند مبعثه كفرت به؟ وكيف كانت قبائل وثنية كالأوس والخزرج، الذين لم يكونوا أصحاب كتب سماوية، سباقين إلى الإيمان به ونصرته؟ إن هذه

المفارقة التاريخية التي يناقشها الشيخ في كتابه تفتح الباب لفهم أزمة الهوى التي واجهتها الأمم السابقة، وهي الأزمة نفسها التي قد تتكرر اليوم.

إن الكتاب لا يتحدث فقط عن الماضي، بل يحمل رسالةً حيةً وواقعية للمسلمين اليوم، إذ يطرح تساؤلاً حاسمًا: هل يمكن أن نقع في نفس الفخ الذي وقع فيه اليهود، حين رفضوا نبيهم المنتظر لأنه لم يأتِ بما تهوى أنفسهم؟ وهل يمكن أن نجد أنفسنا يومًا ما ننكر إمام زماننا المنتظر (عجل اللّه فرجه الشريف)، فقط لأنه يخالف تصوراتنا أو يهدم ما اعتدناه من أوهام؟

الكتاب يُظهر بوضوح أن سيرة النبي الأعظم (صلى اللّه عليه وآله) لم تكن مجرد حياة شخصية، بل كانت مشروعًا عالميًا هدفه الهدم والبناء. هدم الأصنام، سواء المادية أو الفكرية، وبناء أمةٍ تقوم على العدل والإيمان. هذه المهمة التي بدأها النبي الأكرم، سيتولى إتمامها حفيده الإمام المهدي (عجل اللّه فرجه الشريف)، الذي سيعيد بناء الإسلام بعد أن يهدم كل ما علق به من تحريف وتزييف.

لا يكتفي الكتاب بعرض هذه القضايا، بل يدعو القارئ ليكون جزءًا من هذه الرحلة الفكرية. يدعوك لأن تضع جانبًا كل ما اعتدت عليه، وأن تقرأ بقلبٍ مفتوح وعقلٍ متقد، لتكتشف الحقائق بنفسك. إنها رحلةٌ مليئة بالتحديات،

لكنها ضرورية لمن أراد أن يعرف نبيه الأعظم (صلى الله عليه وآله) كما هو، لا كما صورته الكتب المزيفة.

أيها القارئ الكريم،

إن هذا الكتاب ليس مجرد كلمات تُقرأ وتنتهي، بل هو دعوةٌ للتغيير، دعوةٌ لإعادة التفكير، دعوةٌ للنظر بعمق في علاقتنا بنبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله). فلتستعد لهذه الرحلة، ولتكن على يقينٍ أن ما ستجده بين هذه الصفحات سيغير نظرتك للأمور، ويمنحك فهمًا جديدًا وعميقًا لمعاني الرسالة المحمدية..

ختامًا..

إلى أستاذي ومعلمي ومُلهمي سماحة الشيخ ياسر الحبيب (حفظه الله)، مؤلف هذا الكتاب المبارك

إليك يا من غمرتني بفيض علمك وسقيت روحي من معين فكرك، أهدي ثمرة جهدي المتواضع في العمل على هذا الكتاب الذي كانت كلماته من نبضك، ومعانيه من روحك، وأهدافه من رؤيتك الثاقبة. . كيف لي أن أحيط حقك بكلمات، وأنت الذي فتحت لي أبواب الحكمة، وأنت الذي علّمتني أن

خدمة الحق شرف لا يُضاهى، وأن السعي في دروب أهل البيت (عليهم السلام) هو الغاية القصوى التي تسكن قلوب المخلصين؟

يا شيخنا، يا من أضاءت لي كلماتك ظلمات الجهل، ورفعتني من مستنقعات التقليد إلى آفاق البحث والتدبر. كنت لي الأب الذي يقوّم خطاي، والمعلم الذي يزيل عن عيني غشاوة الحيرة، والمرشد الذي يقودني وسط أمواج الفتن إلى شاطئ النجاة.

هذا الكتاب الذي بين أيدينا ليس مجرد مشروع فكري، بل هو رسالة حياة، عملتَ على تأليفه بعقل متوقد، ونفس مخلصة، وأني أتشرف أنني كنتُ واحدًا ممن نالوا شرف المساهمة في هذا العمل الجليل المُهدى لخاتم الأنبياء ﷺ، عسى أن أكون بذلك قد وفيت شيئًا يسيرًا من جميلك الذي أغرقني.

شيخنا.. لقد كنتُ أرى في كل حرف من هذا الكتاب انعكاسًا لروحك، وفي كل صفحة أسمع صدى صوتك الهادر في محاضراتك، ذلك الصوت الذي لا يعرف الخوف، ولا يصمت عن الحق. كيف لي ألا أشعر بالفخر وأنا أضع يدي على مشروعك، أرتب سطوره، وأعيش بين معانيه، وأغرف من حكمته التي استقيتها من آل محمد (عليهم السلام)؟

هذا الجهد الذي بذلته ليس إلا قطرة في بحر فضلك، ولا يعدو أن يكون نقطة ضوء خافتة في وهج عطائك. كيف لا وأنت صاحب الفكر الذي

استنهض الهمم، والكلمة التي أذابت قلوب المعاندين، والمنهج الذي حطم أوثان الزيف التي عششت في العقول؟

يا شيخنا وأستاذنا الجليل، مهما اجتهدت، فلن أستطيع أن أرد جميلك أو أوافيك حقك، لكنني أضع بين يديك هذا العمل إهداءً متواضعًا علّه يكون قطرة في بحر امتنانٍ لا حدود له. أسأل عز وجل اللّه أن أكون معينًا لك في مشروعك الذي يهدف إلى إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام)، والكشف عن الحقائق المغيبة.

دمتَ معلمي الذي أستنير بفكره، وأقتدي بنهجه.

ودمتَ حاملاً للواء الحق، صوتًا للضعفاء، وسيفًا مصلتًا على رقاب الباطل. أسأل اللّه أن يمد في عمرك، وأن يزيدك رفعة وعلو شأن، وأن يرزقك من فضله حتى تبلغ غاياتك في نصرة أهل البيت، وفي إعلاء راية إمامنا المهدي (عجل اللّه فرجه الشريف).

إليك نُهدي هذا الجُهد، و نَعتذر عن التّقصير..

لجنة حفظ و نشر آثار الشيخ ياسر الحبيب

الشُّكر موصول لموقع القوات الرافضية العقائدية الكِرام..
على دعمهم لإنجاز الجزء الأول من هذا السِّفر...

الجُزء الأول | ٢٠٢٥-٢٠٢٤

الفصل الأول

نعترف .. منهجنا هدّام!

هناك جوانب عديدة من شخصية النبي الأعظم صلى الله عليه و آله، وسيرته، وتعاليمه، وهُداه، ليس جُلُّنا مطلعٌ عليها أو ملتفتٌ إليها، و كلما التفتنا أكثر وتدبرنا أكثر وجدنا الحلول، وأعني بالحلول، أي حلول لكثير من مشكلاتنا المعاصرة.

وكلما وقفنا أكثر على هَدْي النبي صلى الله عليه وآله، وما يرتبط به، كلما تقوّمت مناهجنا الفكرية والعملية أكثر فأكثر، لكن المأساة أن المسلمين عموماً لا يعرفون نبيهم صلى الله عليه وآله، يعرفون اسمه، ويحبونه، ولكنهم لا يعرفونه تمام المعرفة في منهاجه وهديه وسيرته وفيما يرتبط به، ولذا أحسبُ أن كثيراً مما سنطرحه سيكون غريباً عند بعض الناس، ومفاجئاً لآخرين، ومَثاراً للدهشة عند فريق ثالث، ومَثاراً للمراجعة عند فريق رابع، وهكذا.. إنها أشبه بالخفايا التي خَفيت عن كثيرٍ من الناس،.

كمُفتَتح لهذا الكتاب المبارك إن شاء الله، نقول إن نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله سبقَت أخباره ولادَتَه وظهورَه، حتى آمنت به أقوامٌ وكانت تنتصرُ به، وتستفتح به، حتى قبل ولادته الشريفة، أو بعثته وظهوره في دعوته، من هؤلاء الأقوام، الطائفة اليهودية التي كانت تستوطن الجزيرة العربية..

أما سأل أحدكم نفسه لماذا استوطن اليهود يثرب.. أي المدينة المنورة؟ وما سرُّ تجمعهم في هذه البقعة؟! و ما سر تجمعهم في بقاع قريبة منها كخيبر

وفَدَك؟! هذه كلها كانت بقاعاً وقرىً يهودية، فلماذا نجد لهم حضوراً لافتاً عبر أجيال في تلك المناطق الجغرافية.. الجواب في حديثٍ شريفٍ لإمامنا الصادق صلوات الله عليه نجده في الكافي الشريف لثقة الإسلام الكُلَينيّ رحمة الله عليه، فإنه يروي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا[1])، في تفسير هذه الآية الكريمة قال الإمام عليه السلام:[2] (**كانت اليهود تجدُ في كتبها أن مُهَاجَر محمد صلى الله عليه وآله ما بين عَيْرٍ وأُحُد..**

اليهود كانت تجد في كتبها الدينية المتوارثة أن مُهَاجَر[3] محمد صلى الله عليه وآله أي البقعة التي ستكون محل هجرته، ما بين عيرٍ وأحُد، أحُدٌ معروف، و عَيْر كذلك جبلٌ من الجبال في تلك المنطقة.. هكذا قرأوا في كتبهم،

"**فخرجوا يطلبون الموضع**".

أي هاجرَ اليهود أملاً في أن يتوصلوا إلى هذه النقطة انتظاراً لقدوم نبيّ آخرِ الزمان صلى الله عليه وآله،

"**فمرّوا بجبل يسمى حَداداً فقالوا حدادٌ وأحدٌ سواءٌ فتفرقوا عنده..**"

---

[1] البقرة ٨٩

[2] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٨ - الصفحة ٣٠٩

[3] و هو المكان الذي يهاجر إليه المُهاجِر

لما مروا، ضربوا في الأرض، إذا بهم يجدون جبلاً بهذه التسمية "حداد" فقال بعضهم لبعض ظهر هذا، لأن حداد وأُحد قريبان من بعضهما البعض، فتفرقوا عند هذا الجبل واستوطنوا قربه، **فنزلَ بعضُهم بتيماء، وبعضُهم بفدك، وبعضهم بخيبر**، حول هذه الجبال تكونت هذه القرى، تيماء وفدك وخيبر، **فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم** اشتاقوا إلى أن يتزاوروا حيث تفرقوا في نقاط بينها مسافة، **فمرَّ بهم أعرابيٌّ من قيس** من قبيلة قيس **فتكارَوا منه وقال لهم أمرٌّ بكم ما بين عيرٍ وأحُد..**

و يعني بقوله.. أن سأوصلكم إلى إخوانكم من طريق بين عيرٍ وأحُد، فلفتت انتباهَهم هذه العبارة لأنهم يطلبون هذا الموضع، و تفاجئوا أن هذا الأعرابي قد ذكر هذا الموضع على نحو الصدفة، **قال لهم أمر بكم ما بين عير وأحد، فقالوا له إذا مررت بهما فآذِنّا بهما** أي أعلِمنا، **فلما توسط بهم أرضَ المدينة قال لهم ذاك عيرٌ وهذا أحدٌ** هذا جبل عير، وهذا جبل أحد، ولكن يجب أن نكمل المسير.. فتفاجأ هذا الأعرابي أن هؤلاء نزلوا من على الرواحل والدواب!

فنزلوا عن ظهر إبِلِهِ، وقالوا قد أصبنا بغيتنا..

تذكَّروا أن كتابهم المقدس قد ذكر أن مَهاجَر محمد صلى اللّه عليه وآله أي البقع التي سيهاجر إليها، ويستوطنها هي ما بين عيرٍ وأحُد، فعدلوا عن طريقهم عندما وصلوا إلى هذه النقطة..

هكذا نشأ تجمع البشر في منطقة يثرب -المدينة المنورة- و أول من استوطنها كان اليهود، انتظاراً لخاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله.

يقول: **فنزلوا عن ظهر إبِلِهِ، وقالوا قد أصبنا بُغيتنا، فلا حاجةَ لنا في إبِلِك، فاذهب حيث شئتْ، وكتبوا إلى إخوانِهِم الذين بفدكَ وخيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلمُّوا إلينا** فماذا كان جواب أهل فدك وخيبر؟! **فكتبوا إليهم أنّا قد استقرت بنا الدار** ! بعد أن وصلنا إلى خيبر وفدك، وبعد أن استقررنا في هذه المواضع، واتخذنا الأموال، وصار لدينا ممتلكات وبساتين، واستصلحنا الأراضي، بعد أن قمنا بكل هذا لن نضطر للهجرة مجدداً، نحن الآن قريبون منكم، على مقربة من المدينة المنورة!

فإذا كان ذلك أي فإذا حدث الظهور المنتظر للنبي الموعود الذي ننتظره، **أسرعنا إليكم!**

فلا حاجة لنا للرحيل الآن، استقروا حيث أنتم، سواء كنتم في تيماء أو غيرها، ونحن سنبقى هنا في فدك، وهم سيبقون في خيبر. وعندما يظهر النبي الموعود، سننطلق جميعًا لنصرته والقيام بواجبنا تجاهه..

يقول: **فاتخذوا بأرض المدينة الأموال فلما كثُرت أموالهم، بلغَ تُبَّع، فغزاهم، فتحصنوا منه، فحاصرهم، وكانوا يرِقّون لضعفاء أصحاب تُبَّع، فيلقون إليهم بالليل التمر والشعير.**

هذه الأحداث وقعت قبل عشرات أو مئات السنين من ظهور النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله، تُبَّع ذهب إلى المدينة ليغزو هؤلاء اليهود بعد أن كثرت أموالهم، فتحصنوا منه، وحاصرهم أياماً وليالي، لكن اليهود في المدينة آنذاك كانوا كرماء، كانوا يرِقّون للضعفاء من أصحاب تُبَّع، يلقون لهم الطعام وهم جياع وضعفاء، و يرمون لهم التمر والشعير حتى يأكلوا، وكما تعلمون يستطيع الانسان الكريم أن يستميل قلب عدوّه، **فبَلغَ ذلك تُبَّع، فرقَّ لهم وآمَنَهم**، أي قال لهم: "أنتم آمنون، لن أهاجمكم" **فنزلوا إليه، فقال لهم: إني قد استطبتُ بلادكم**، أرى أنها طيبة.

ولا أراني إلا مقيماً فيكم، فقالوا: إنه ليس ذاكَ لك ليس لك أن تقيم هنا، **إنها مهاجَرُ نبيٍّ، وليس ذلك لأحدٍ حتى يكون ذلك** لأن هذه البلاد مهاجر نبي آخر الزمان، وليس لأحد أن يحكمها إلا ذلك النبي عندما يظهر، **فقال لهم: إني مخلِّفٌ فيكم من أسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره** ".

إني سأترك فيكم من أسرتي من يعين ذلك النبي وينصره عند ظهوره." ومن هؤلاء من أسرة تُبّع؛ الأوسُ والخزرج، الذين يعود أصلهم إلى تُبَّع، حيث تركهم

هناك قبل أجيال، منتظرين ظهور خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله، ليكونوا له أنصاراً، وهكذا كانت تلك القبائل تنتظر بفارغ الصبر ظهور هذا النبي العظيم، الذي آمنت به أقوام قبل ولادته وتهيأت لنصرته، **فخلّفَ حيَّين الأوس والخزرج..**

مرت السنوات وتعاقبت الأزمان، **فلمّا كثُروا بها كانوا يتناولونَ أموال اليهود** حتى زاد عدد الأوس والخزرج في المدينة.. و كان هؤلاء يتناولون من أموال اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة قبلهم وكانت لهم الأسبقية في امتلاك الأراضي والأموال. وقد شعر اليهود بالتهديد من وجود الأوس والخزرج، فكانوا يهددونهم قائلين: **أما لو قد بُعث محمدٌ ليخرجنكم من ديارنا وأموالنا..** أنتم جئتم طارئين إلى هذه البقاع، ونحن هنا ننتظر هذا النبي ليأتي ويطردكم من هذه الأراضي."

لكن ما حدث كان على عكس توقعات اليهود، **فلمّا بعثَ اللّه عز وجل محمد صلى اللّه عليه وآله آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود** آمن به الأنصار وهم الأوس والخزرج، الذين كانوا من أحفاد تُبَّع. أما اليهود، الذين كانوا ينتظرون مجيء النبي ويدعون أنهم سينصرونه، فقد كفروا به عند بعثته.

وهذا ما جاء في قول الله عز وجل: (وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ[1])

أنتم يا يهود، كنتم تهددون هؤلاء بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتقولون إنكم تنتظرونه، ولكن عندما جاءكم، كفرتم به!

لماذا؟ من كان يصدق أن الأمة اليهودية التي غادرت ديارها قبل مئات الأعوام بحثًا عن هذا النبي، وتحملت المشاق لتصل إلى الموطن الذي سيهاجر إليه، ستكفر به عند ظهوره؟ بينما الأوس والخزرج الذين أكلوا من أموال اليهود، والذين كانوا مهدَّدين من قبل اليهود، هم من آمنوا به ونصروه، و السؤال المهم في هذا الباب هو: **لماذا حدث هذا الانقلاب في الموازين؟ ولماذا كفر اليهود بخاتم الأنبياء بعدما كانوا ينتظرونه بشغف؟**

هذا السؤال له أهمية كبيرة لأننا نحن أيضًا ننتظر موعداً كما كانوا هم ينتظرون موعداً، ما الفرق بيننا وبينهم؟ هل يمكن أن تنقلب الآية كما حدث معهم؟ وهل من الممكن، لا سمح الله، أن يقع بعضنا في نفس الفخ؟ هذا السؤال يحمل أهمية خاصة لأنه يثير احتمالاً مخيفاً: ماذا لو أن الذين ينتظرون المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه، يكفرون به عند ظهوره؟

---

[1] البقرة ٨٩

بينما الذين كانوا يعادون فكرة ظهوره سيؤمنون به! هل يمكن أن تتكرر هذه المعكوسة؟ لماذا إذن كفر اليهود بخاتم الأنبياء بعد كل تلك التضحيات والانتظار؟ الجواب نجده في القرآن الكريم، في سياق الآيات الكريمة في سورة البقرة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ.[1] وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ[2] وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ[3] بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ[4] ﴾

وقالوا قلوبُنا غلفٌ! اليهود كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله لمّا يدعوهم

---

[1] البقرة ٨٧

[2] البقرة ٨٨

[3] البقرة ٨٩

[4] البقرة ٩٠

إلى الإيمان "**قلوبنا غُلفٌ**" مغلفة بغشاء فلا نفقهُ ما تقول، وكانوا يتضاحكون فيما بينهم...

يستهزءون بدعوة النبي صلى اللّه عليه وآله، "**وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّـذِيـنَ كَـفَرُوا**" يستفتحون باسم محمد صلى اللّه عليه وآله، يستنصرون به قبل ولادته و قبل ظهوره، " فَـبَاءُوا بِـغَضَبٍ عَلَى غَـضَبٍ" ضاعف اللّه غضبه عليهم " وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ"..

إذاً هذا هو السبب، أن هذا الرسول مع كونه منتَظراً عندهم، وتحملوا المشاقّ لكي يستوطنوا البقعة التي ينتظرون هجرته إليها وظهوره فيها، هذا هو السبب الذي جعلهم يكفرون به، أنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم!

أنا مستعد لأن أؤمن بمحمد صلى اللّه عليه وآله إذا كانت دعوتُه توافق هواي، أما إذا كانت دعوتُه لا توافق هواي لا شأن لي به، فأكفر به!.. وكذا أنا مستعدٌّ لأن أؤمن بالمهديّ المنتظر وأتبعُه يوم يظهر إذا كان موافقاً لهواي! فإذا جاءني بما لا تهوى نفسي كفرتُ به والعياذ باللّه! وعلى هذه فقِس!

الناس تطلبُ الهوى، إيمانُها على حرف على شفا، إنما تجعل المعيار هو الهوى، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[١] اليهود انقلبوا على رسول اللّه صلى

[١] الجاثية ٢٣

الله عليه وآله لأنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم!

لاحظوا مثلاً ما جاء في دلائل النبوة لأبي نُعَيم الأصبهاني[1]، عن ابن عباس قال: (**أنَّ يهوداً** يعني قبائل اليهود **كانوا يستفتحون على الأوسِ والخزرجِ برسولِ الله صلّى الله عليه وآله قبلَ مَبعثِه، فلمّا بعثَهَ اللهُ تعالى من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولونَ فيه، فقال لهم معاذُ ابنُ جبل، وبِشرُ ابنُ البراءِ ابنِ معرورَ أخو بني سلمة: يا معشرَ اليهود اتقوا اللهَ وأسلِمُوا، فقد كُنتم تستفتحونَ علينا بمحمّدٍ وإنّا أهلُ الشركِ، وتخبرونَ بأنّهُ مبعوثٌ، وتصِفُونَه لنا بصفتِهِ، فقال سلاّمُ ابنُ مِشكَم: ما هو بالذي كُنّا نذكرُ لكم ما جاءَنا بشيءٍ نعرفه**)

بالأمس كنتم تقولون: محمد، محمد، هو النبي المنتظر، وهذا مهاجَره، وهذه هي صفاته، ولا بد أن يأتي إلينا، فننتصر بواسطته عليكم. كنتم تتحدثون هكذا، ولكن عندما جاء بالفعل، أنكرتموه!،

سلاّم بن مشكم، أحد زعمائهم، قال: هذا ليس بما كنا نذكر لكم، لم يأتنا بشيء نعرفه، هذه الدعوة التي جاء بها، والشريعة التي جاء بها، مضمونها لا نعرفه، هي شيء جديد علينا، فلا نقبلها". كانوا يريدون دعوة تتوافق مع أهوائهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ

---

[1] ج١ ص٨٣

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1])...

هل يعيد التاريخ نفسه؟ للأسف، نعم!

فالمهدي المنتظر الموعود، صلوات الله عليه، هو مثال لمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله. يبدأ كما بدأ النبي، ويختم كما ختم، يبني كما بنى، ويهدم كما هدم. هذه رواية لافتة للنظر، رواها النعماني في غيبتِه[2] عن عبدِ الله بن عطاء، قال: "**سألتُ أبا جعفرٍ الباقرَ عليه السلام، فقلتُ: إذا قامَ** - صاحب الاسم الخاص الذي يستدعي القيام، أي الإمام المهدي عليه السلام -، **بأيِّ سيرةٍ يسيرُ في الناس؟" فقال: "يهدمُ ما قبلَه كما صنع رسولُ الله صلى الله عليه وآله، ويستأنف الإسلام جديداً**)

هذه العملية الهدمية المهدوية ستكون ثقيلة على عامة الناس، بل حتى على أصحاب المهدي عليه السلام أنفسهم! فماذا تظنون؟ هل يتحملون؟ لا يتحملون! حتى الصفوة من أصحابه، وهم الثلاثمئة وثلاثة عشر، لا يتحملون.

فيا للأسف! ماذا نحتمل إذاً؟ إنه امتحان صعب. هل ستتمكن من سحق أهوائك وتلتزم بكلام المهدي الموعود، أم لا؟ وإذا لم تفعل، فستصبح مثل

---

[1] البقرة ٨٩

[2] ج١ ص٢٣٤

اليهود الذين لم يستطيعوا أن يقاوموا أهواءهم، كانوا يتغنون بمحمد صلى اللّه عليه وآله، ويستنصرون به ويستبشرون بقدومه، ويقولون: "نحن جماعته، نحن الذين ننتظره، نحن شيعته." ولكن أين كان الأوس والخزرج وهؤلاء الوثنيون من انتظار النبي صلى اللّه عليه وآله؟ تلك كانت ملة وثنية، بينما كانت ملة اليهود ملة كتابية، وكانوا ينتظرون هذا النبي، كيف انقلبت الآية؟

لأنهم لم يستطيعوا أن يدوسوا على أهوائهم. صعبٌ أمام الهدم أن يظل عامة الناس ثابتين، فهم يتضعضعون ويتزلزلون. "يهدم ما قبله"، هناك أشياء راسخة في أذهان بعض الناس، وهناك معتقدات معينة وتراكمات متجذرة، ويأتي شخص يهدم هذا كله فجأة، في عملية انتقالية صعبة وخطيرة. هذا يحدثُ زلازل نفسية في البشر، يهدم ما قبله كما صنع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، ويستأنف الإسلام جديداً، هذه العملية الهدمية تؤدي إلى فرار بعض الناس عن المهدي عليه السلام، وحتى من بين أصحابه يتفرقون عنه، لاحظوا في بحار الأنوار ما ينقله العلامة المجلسي عليه الرحمة[1] عن كتاب الفضل ابن شاذان عن إسحاق ابن عمار عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال: **إذا قدمَ** -صاحب الاسم الخاص المهدي عليه السلام- **وثبَ أن يكسرَ الحائطَ الذي على القبر** أي حائطَ قبرِ رسول اللّه صلى اللّه عليه وعليه وآله، ألم ترَوا الحائط المحاط به قبر النبي هو لا باب له من الداخل؟

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٢ - الصفحة ٣٨٦

الحجرة لها باب إلى اليوم، لكن القبر نفسه "القبر الشريف" مع القبرين المجاورين له كله قد أُحيط بحائطٍ لا بابَ له، لا أحد يستطيع الدخول، **وثبَ أن يكسرَ الحائطَ الذي على القبر، فيبعثُ اللهُ تعالى ريحاً شديدةً وصواعقَ ورعوداً حتى يقول الناس إنما ذا لذا** أن هذه الصواعق والرياح شديدة والرعد والبرق الآن بسبب هذه الفعلة، هذا جاء يهدمُ الحائطَ الذي على قبرِ رسول الله صلى الله عليه وآله فيتزلزلون، لماذا يفعل الله كل هذا؟

الجواب: تلك فتنتي فلا تفحصن عنها ..

هذا جواب الله عز وجلّ لموسى عليه السلام لما قال له إلهي العجلُ صنَعهُ السامريِّ، فالخوارُ من صنعه؟ لو كان الأمر مجرد تمثالٍ لعجلٍ مصنوعٍ كتحفة فنية، لما اغترَّ به أحد، ولكن عندما سمعوا صوت خوارٍ صادرٍ من التمثال، أثار ذلك دهشتهم. من أين جاء هذا الصوت؟ كيف سمح الله بأن يحدث هذا؟ كانت هذه خديعة أشبه بالمعجزة... الهدف منها اختبار البشر، ونحن خُلقنا في هذه الدنيا للاختبار والابتلاء.

لماذا؟ تلك فتنتي، فلا تسأل عنها!

هذه فتنة الله في يوم ظهور المهدي الموعود، صلوات الله عليه، **فيتفرّقُ أصحابُه عنه حتى لا يبقى معهُ أحد**، لا أحد يستطيع أو يملك الشجاعة

النفسية للوقوف إلى جانب الحجة بن الحسن عليه السلام، لمساعدته في عملية الهدم. يقول البعض: "لا، لا نستطيع، الدنيا تنقلب وتتحول."

الإمام عليه السلام سيجد نفسه وحيداً في مهمة الهدم، فيضطر إلى أن يبدأ بنفسه!

فيأخذ المعول بيده الشريفة فيكون أوّلَ من يضربُ به، ماذا يحدث بعد ذلك؟ زلزال نفسي يصيب أصحاب المهدي عليه السلام، لكن تُدركهم رحمة اللّه، فيعودون إليه بعدما يرونه قد بدأ بالضرب، يقول: **ثم يرجع إليه أصحابُه إذا رأوه يضرب المعول بيده**، هل ترون؟ عملية الهدم صعبة.

الإمام في الرواية، "**وثب أن يكسر**"، ولكنه لم يكسر بعد... يكلف أصحابه: "تعالوا، افعلوا." ولكن عندما يرون أن الضرب سيبدأ وأن الدنيا ستنقلب، يتراجعون ويرتجفون. يقول أحدهم: "**هذا غضبٌ من الله.**" والثاني، والثالث، والرابع، والعشرة آلاف من أصحاب المهدي عليه السلام يتفرقون عنه.. وأصحابه عليه السلام وفقًا للروايات، هم عشرة آلاف، منهم ثلاثمئة وثلاثة عشر هم الصفوة. هؤلاء العشرة آلاف سيتفرقون عنه، حتى يقوي إيمانهم الإمام عليه السلام. فهو بنفسه و بيده الشريفة، سيكون أول من يضرب.. وعندما يرونه قد ضرب ولم يحدث شيء، يتشجعون ويعودون.

ثمّ يرجع إليه أصحابه إذا رأوه يضرب المعول بيده، فيكونُ ذلك اليوم فضلُ بعضِهم على بعض بقدرِ سبْقِهِم إليه..

في ذلك اليوم، تتفاوت درجات أصحاب المهدي عليه السلام، هذا درجة أولى، هذا درجة ثانية، وهذا درجة ثالثة، قبل ذلك كانوا جميعاً في درجة واحدة. من هذا الابتلاء الإلهي، يميز اللّه بينهم؛ بعضهم يرتفعون في الدرجات، وبعضهم يتأخرون، صاحب الدرجة الأولى هو من يكون أول من سبقَ إلى المهدي، أول من عاد إليه، الأقرب، الأسبق. فينهدم الحائط.

تقول الرواية: **ثم يُخرجهما!**

يُخرج الإمام المهدي الظالمَين الطاغيَين، أبا بكرٍ وعمر، عليهما لعنة اللّه، لماذا يخرجهما عليه السلام من قبريهما؟ للمحاسبة، ولإظهار مآلهما عند اللّه عز وجل، وأنهما من أهل النار. ولكن الأصل هو أنهما مدفونان في هذه الحجرة الشريفة غصباً، والحكم في الفقه الإسلامي هو وجوب نبش قبر من دُفن غصباً، حتى لو بعد ألف سنة، إذا لم يرضَ الورثة، إذا ما رضي الورثة الذين يملكون الأرض التي دُفن فيها هذا الإنسان، يجب أن يُنبَش القبر، هذا أقل شيء، فمن سمح لأبي بكر وعمر أن يُدفنا في هذه الحجرة؟ هل سمح رسول اللّه بذلك؟ لا يوجد حديث نبوي واحد بذلك. هل سمح أهل البيت عليهم السلام بذلك؟ لا يوجد حديث واحد عنهم بأنهم سمحوا بذلك. إنما الموجود

أن عائشة سمحت، وعائشة لا تملك الحق في أن تمنح إذناً بدفن أحد بجوار النبي صلى الله عليه وآله. فمعاشر الأنبياء لا يورثون حسب قول أبيها[1]، فالمفروض أنها لا تملك شيئًا أصلاً. ثم، لو فرضنا أنها تملك شيئًا، فماذا تملك؟ لها التُسُعُ من الثُمُنِ فقط!!

فكيف سمحَت لهذين بأن يدفنا هناك؟

مع أنها لم تكن حجرتها أصلاً، بل هي الحجرة النبوية الشريفة التي كانت ملحقة بالمسجد، وكان النبي صلى اللّه عليه وآله يستقبل بها الوفود، ويتعبد فيها ويقيم الليل ويتهجد فيها، و لها بابٌ على المسجد، وبابٌ على الممر الذي يذهبُ إلى الحجرات، وبابٌ على دار عليٍّ وفاطمة، إلا أن عائشة هدمت الجدار بين حجرتها والحجرة الشريفة ومدتها إلى حجرة النبي صلى اللّه عليه وآله مستفيدة من سلطة أبيها، حيث أن الجدران بين الحجرات آنذاك كانت هشة تهدم بسهولة،وبعد مدة من الزمن نسبت لعائشة، إلا أنها بالأساس الحجرة النبوية الشريفة.. إذاً فإخراج جيفتي أبي بكر وعمر حكمٌ فقهيّ إسلامي واجب، يستهجنه بعض الناس لقلة فقههم وضعف إيمانهم، وعندما يرون الهدم بأمِّ أعينهم من سيرة المهدي عليه السلام يتزلزلون، يقول عليه السلام: **ثم يُخرجهما غضّين طريَّين أو رطبَين** أي كأنهما ماتا للتو، لمَ

[1] صحيح مسلم 1758
صحيح البخاري 1758

فعل الله هذا؟ أي ترك أجسامهما طـــــــرية رطبة بعد كل تلك السنين؟ "**تلك فتنتي فلا تسأل عنها**"، **فيلعنُهُما، ويتبرأُ منهما، ويَصلبُهما، ثم يُنزلُهما، ويحرقُهما، ثم يذريهِما في الريح** التفصيل في هذا الموضوع فيه روايات كثيرة لذا لن ندخل فيه..

هذه العملية فتنة، جاءهم المهدي عليه السلام بما لا تهوى أنفسهم، كما جاء جدُّه النبي صلى الله عليه وآله بما لا تهوى أنفس اليهود فكفروا به، إذاً هؤلاء العشرة آلاف يتفرقون عن الإمام عليه السلام لكن تدركهم رحمة الله فيرجعون، أكثر من هذا من هم صفوةُ العشرة آلاف؟ هم الثلاثمئة وثلاثة عشر، ذكرت الروايات من صفاتهم أنهم أبدال، لهم كرامات، تُطوى لهم الأرض، بعضهم يعرفون الاسم الأعظم، حتى هؤلاء لا يتحملون ما يأتي به المهديُّ المنتظر، بعد كل المعاجز التي ظهرت منه، بعد انتصاره، وبعد انتقاله إلى الكوفة عاصمته واستقراره هناك، في الكافي الشريف عن الحسن بن محبوب رحمه الله عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (**كأني** بصاحب الاسم الخاص عجل الله تعالى فرجه الشريف **على منبر الكوفة عليه قباءٌ، فيُخرج من وَرَيَان قَبائِه** (من جيب القباء) **كتاباً مختوماً بخاتمٍ من ذهب** يخرج صحيفة، وهذه الصحيفة مختومة بخاتم من ذهب **فيفُكه، فيقرأه على الناس** بيان مهدوي متوارث من زمان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأه على الناس، يقول: **فيقرأه على الناس فيُجفلِون عنه**

إجفالَ الغنم يعني يهربون منه كهروب الأغنام، لا يتحملون ما جاء في هذا الكتاب، وإمام الزمان يقرأه، يعني واجب أن تسلِّمَ له وتطيعَ طاعة مطلقة، فهؤلاء لا يتحملون، فيخرجون من الجامع -جامع الكوفة-**فلم يبقى إلا النُقَبَاء فيتكلمُ بكلامٍ فلا يلحَقون ملجأً حتى يرجِعوا إليه)** أيضاً تدركهم رحمة الله عز وجل فيرجعون إليه، و الإمام الصادق عليه السلام يقول: "**وإنّي لأعرف الكلام الذي يتكلم به**" لكن الإمام لم يصرح بهذا الكلام.

الآن هؤلاء الذين تفرقوا عنه ولم يبقى معه عليه السلام إلا النقباء، فمن هم هؤلاء النقباء؟ قد يتوهم أحدنا أن المراد هم هؤلاء الثلاثمئة و ثلاثة عشر لأنهم بالفعل نقباء المهدي عليه السلام، ولكن الحقيقة أن الزلزلة هذه تصيبُ حتى هؤلاء، فلا يبقى منهم إلا عدد قليل غير مذكور في هذه الرواية، ولكن في مصدر آخر بشيء من التفصيل، توضَّحَ كم عدد هؤلاء الذين يبقون مع إمامنا المهدي عليه السلام في هذه اللحظة الفارقة، وهي التي رواها الصدوق في كمال الدين عن المفضَّل ابن عُمر قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: **كأني أنظر إلى صاحب الاسم الخاص عليه السلام على منبر الكوفة وحوله أصحابه ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلا عدةُ أهلِ بدر وهُم أصحاب الألوية، وهم حُكّام الله في أرضه على خلقِه** حتى نعرف مقام هؤلاء الثلاثمئة وثلاثة عشر، هؤلاء حكام الولايات الإسلامية المهدوية، كل واحد منهم حاكم، إنهم الصفوة و عِليَةُ القوم! حكام الله في أرضه على خلقِه، تخيل منظرهم و هم محدِقون

بالإمام المهديّ عليه السلام كلٌّ منهم يقف بمنتهى الاحترام، جُندٌ مجندة، والإمام عليه السلام جالس على منبر الكوفة وإذا به يخرج من ورَيان قبائه خاتماً يفضُّه، يقرأ ما فيه، فكلٌّ ينظر إلى الآخر وهو يرجف، ويفرّ، **حتى يستخرج من قَبائِه كتاباً مختوماً بخاتمٍ من ذهبٍ عهدٌ معهودٌ من رسول الله** صلى الله عليه وآله أي يفرّون من عهد رسول الله! من هؤلاء؟ هم أناس في القمة من الإيمان والثبات! لكنه صعبٌ عليهم، **فيُجفِلون عنه إجفالَ الغنم البُكم، فلا يبقى منهم إلا الوزيرُ وأحدَ عشر نقيباً** أي اثنا عشر شخصاً يبقون من الثلاثمئة وثلاثة عشر، أي يفرُّ ثلاثمئةِ شخصٍ وواحد، فلا يبقى منهم إلا الوزير بمثابة الذراع اليمنى للإمام عليه السلام، وزيرُ آلِ محمد عليهم السلام.

عندنا رواية أخرى تقول أنه **أما لو قام مهديُّنا عليه السلام أو تكلّم متكلمنا لأبدى من أمورهما ما كان يخفى** أي من أمور أبي بكر وعمر، متكلم أي كسيرة المتكلمين العظماء متكلمي آل محمد عليهم السلام كهشام ابن الحكم، أو مؤمن الطاق، **فلا يبقى منهم إلا الوزير و أحد عشر نقيباً كما بقوا مع موسى بن عمران عليه السلام** الذين بقوا مع موسى بن عمران هذا عددهم كانوا اثنا عشر شخصاً، **فيجولون في الأرض ولا يجدون عنه مذهباً** يجولون في الأرض في انشقاق كبير عظيم، ولكن تدركهم رحمة الله ويتوبون، يراجعون أنفسهم فيقولون أوَكُلما جاءنا المهدي بما لا تهوى أنفسنا، ارتددنا، تزلزلنا،

انشققنا، ضعنا، ذهبنا، جلنا، صلنا، الأسلم أن يسلّم لإمام زمانه، **ولا يجدون عنهُ مذهباً، فيرجعِون إليه، والله إني لأعرف الكلام الذي يقوله لهم فيكفرون به**).

للعلامة المجلسي رحمه الله على هذه الرواية تعليق ذكره في مرآة العقول يقول: **ولعلَّ الكتاب** هذا الكتاب الذي يفُضه الإمام عليه السلام ويقرأه، أي العهد المعهود من رسول الله صلى الله عليه وآله، **يشتملُ على لعنِ أئمةِ المخالفين أو على الأحكام التي يُخالِف ما عليه عامّةُ الناس**" هذا تفسير العلامة المجلسي، ما الذي يزلزلهم؟ نحن لسنا نأبى هذا التفسير، ولسنا نأبى هذا الاحتمال، أن المراد لعن أئمة أهل الخلاف، أن المراد أنه قد أتى بأحكام تخالف ما عليه الإجماع أصلا، ليس فقط ما عليه عامة الناس، لكن لا نشك أبداً في أن مضمون هذا الكتاب المهدوي الثقيل على الأسماع والقلوب، بحيث يُحدِث هذا الزلزال، هو الرفض، البراءة، الهدم، لا بد ضمن هذا النطاق! فالآن ما مصاديق هذا الرفض؟ و مصاديق هذا الهدم.. لمّا سئل الباقر عليه السلام عن المهدي إذا قام بأي سيرة يسير في الناس قال عليه السلام "**يهدم ما قبله**" هدم كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله ويستأنف الإسلام جديداً، فلا بُد أن يكون المضمون هادم وصادم، أما مضمون الهدم فنجهله ، ربما يتطرق الأمر إلى بني هاشم، إلى الطالبيين، إلى العلويين، كأن يهدم الإمام عليه السلام ما اتصل بهم، لأن عندنا روايات

تذكر أنه فيهم الأعداء للإمام عليه السلام، ممن يحسبهم عامة الناس أنهم أولياء مثلاً، وفي مضمون الرواية الشريفة؛ **ولا يزال الله يمنُّ بهذا الدين على أولادِ الأعاجِمِ ويصرِفه عن قرابةِ نبيِّه صلى الله عليه وعليه**، من يتحمل؟ هنالك مثلا شريحة واسعة من الشيعة إلى اليوم تحترمُ شخصيات هاشمية، علوية، فاطمية، وتذوبُ فيها عشقا، فتخيّل أن الكتاب المهدويَّ هذا يأمر؛ ليس فقط بهدم القباب التي بنيت على قبور هذه الشخصيات وإنما يفعل فيها ما فعل بأبي بكر وعمر...

يعني قوموا يا 313 توجهوا إلى "بهشت زهراء" واستخرجوا جثمان الخميني واهدموا القبر، ماذا سيكون مصير هذه الشريحة المفتونة بهذه الشخصية؟

زلزال!

كمثال أنا أطرح أموراً فقط .. لكي نحاول أن نستوعب شيئاً ما من الابتلاء الذي ستبتلى به هذه الأمة يوم يظهر مهدينا الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف، أملاً في أن نتّعِظ ونحترس من أن لا ننزلق، أكيد سيأتينا المهدي عليه السلام بما لا تهوى أنفسنا، من سيتحمل ومن لا يتحمل، فينزلق ويضيع، المضمون لا بد يكون هادماً، لا بد يدور هذا المدار، ولذا تلاحظون العلامة المجلسي رحمه الله لم يبتعد كثيراً عن هذا المضمون، فذكر نقطتين لعن أئمة أهل الخلاف وهذا أمرٌ هادم، وأنه يأتي بأحكام تخالف ما عليه عامة الناس،

سيهدم الأحكام المتعارفة عند الناس! فالناس عندها أحكام تعارفت عليها في فقهها في صلاتها في حجها في صيامها في زكاتها في خمسها... إلى آخره، الإمام يأتي يهدم هذا كله ويقول الآن لدينا فقه جديد! صعب على كثير من الناس أن يتخلوا عن المتوارَث المعهود التي قامت عليه العادة، صعب أن يقتلعه من هوى نفسه، إذا قرأتم بعض التواريخ واكتشفتم الفضائح، ستجدون أن بعضها مضحك. مثلاً، هل سمعتم بسجاح المتنبئة؟ سجاح في النهاية التقت بمسيلمة الكذابة فأغواها وتزوجها، وسلمت له الأمر. وكأن مهرها أن وضع عن قومها صلاة العصر، فقال لهم: "يكفيكم أربع صلوات في اليوم والليلة، وصلاة العصر سقطت عنكم." وهكذا.. كان هذا مهر "نبيّتهم"، إذ كانوا يقولون: "أمست نبيّتنا أنثى نطيفُ بها... وأصبحت أنبياء الناس ذُكرانا، كانوا يشعرون بأنهم مميزون، لأن نبيّتهم كانت أنثى، بينما باقي الأقوام لديهم أنبياء ذكور، وهكذا جرت مراسم العرس والزواج، وانتهى الأمر بهلاك مسيلمة الكذاب إلى جهنم وبئس المصير. أما سجاح، فقد أظهرت التوبة وعادت إلى الإسلام، وأصبح ذكرها في التاريخ.

المهم في الأمر، أنه لقرون عديدة بعد ذلك، كان قوم سجاح لا يؤدون صلاة العصر، ويقولون: "مهر كريمةٍ لنا لا يمكن أن نتخلى عنه" وكان الناس يمرون بهم ويرونهم لا يصلون العصر، فيسألونهم عن السبب، فيجيبون: "هذا مهر كريمتنا، لا نستطيع التنازل عنه" وهكذا، أصبحت هذه العادة مستحكمة في

نفوسهم، ومن الصعب جداً اقتلاعها، العادات، إذا استحكمت ووافقت هوى النفس، فإن اقتلاعها يصبح أمراً شديد الصعوبة. ومن الأمثلة على ذلك، ما يحدث في ألبانيا اليوم، وهو بلد مسلم. هناك، يعتبرون أن من أكبر أنواع الفجور أن يتزوج الرجل ابنة عمه، لأنهم يعتبرونها مثل أخته. إذا فعل هذا الأمر، فإنهم قد يقتلونه. الأمر مثير للدهشة، حتى أن غير المسلمين في الفلبين لا يتبعون مثل هذا الأمر. مع ذلك، هؤلاء الذين يُفترض بهم أن يطبقوا شرع الله، يرفضون تطبيقه في هذه الحالة، لأنهم يعتبرون بنت العم مثل الأخت، يقولون إنهم يعرفون أن هذا هو حكم الله، لكنهم لا يستطيعون تطبيقه، لأن العادة أقوى. هنا يظهر كيف أن العادات التي توافق الهوى تصبح مستحكمة إلى درجة يصعب معها إبطالها.

وهنا تتجلى معجزة النبي الخاتم، صلى الله عليه وآله. من كان يصدق أن مجرد سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله ستكون آية ومعجزة؟ في ثماني سنوات، منذ يوم هجرته حتى يوم الفتح، استطاع أن يقضي على عادات وتقاليد وعقائد راسخة في النفوس لمئات السنين، كانت تعبد الأصنام ك (ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسرى) من زمن سيدنا نوح! جاء النبي صلى الله عليه وآله وهدمها كلها.

كان الناس في الجزيرة العربية يشربون الخمر كجزء من حياتهم اليومية، وكان الخمر جزءاً من تجارتهم وثقافتهم. مثلما لو جاء أحد اليوم وقال إنه

سيقضي على عادة شرب الخمر في بريطانيا خلال ثماني سنوات. سيقول الناس: "هذا مستحيل، لأن الخمر جزء من ثقافتنا." وهذا بالضبط كان حال العرب في الجزيرة، إذ كانت الخمر جزءًا من حياتهم وتجارتهم.

كيف استطاع النبي صلى اللّه عليه وآله أن يقضي على كل هذا في زمن لا يتجاوز ثماني سنوات؟ هذه معجزة نبوته، صلى اللّه عليه وآله، ولكن لماذا كفروا به؟ لماذا انقلبت الآية؟ ولماذا نخشى أن يحدث لنا ما حدث لهم، لا سمح اللّه؟

السبب هو الفشل في اختبار معاكسة الهوى.

كان اليهود متمسكين بشريعة التوراة والتلمود، وجاء هذا النبي فأبطل ذلك. لم يتحملوا، وقالوا: "جاءنا بشيء لا نعرفه." لقد جاءهم بما لا تهوى أنفسهم، ولذلك لم يتحملوا، منذ اليوم الأول لدعوته، كان النبي صلى اللّه عليه وآله يتبع منهجاً هداماً لعاداتهم الفاسدة، ولهذا رفضوه وكفروا به، النبي محمد صلى اللّه عليه وآله لم يترك عقيدة محرفة إلا وهدمها، ولم يترك رمزاً مقدساً زائفاً إلا وأعلن عن سعيه لهدمه، سواء في وضح النهار أو في جنح الليل. كما حين ذهب النبي صلى اللّه عليه وآله مع أمير المؤمنين علي عليه السلام ليلاً ليأمره بهدم الصنم الأكبر الذي وضعه المشركون على سطح الكعبة.

في تفسير القمي الشريف، يقول علي بن ابراهيم عليه الرحمة: **قدم أسعد ابن زرارة وذكوان بن عبد القيس يروي في موسم من مواسم العرب إلى مكة، وهما من الخزرج، وكانت بين الأوس والخزرج حرب دامت طويلاً، ولم يضعوا السلاح لا ليلاً ولا نهاراً، وكانت آخر معركة بينهم هي يوم بُعاث، وكانت للأوس الغلبة على الخزرج. فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرةِ رجب، يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد صديقاً لعُتبة بن ربيعة،** والد هند بنت عتبة، التي لُقبت بـ"آكلة الأكباد"، لعنة الله عليها، **عندما نزلوا عند عتبة، قالوا له: "إنه كان بيننا وبين قومنا حرب، وقد جئناك نطلب الحلف عليهم" فأجابهم عتبة قائلاً: "بعُدت دارنا عن داركم، ولنا شغلٌ ولا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وأنتم في حَرَمكم وأمنكم، نحن مشغولون الآن بمصيبة كبرى، قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنه رسول الله، فسفّه أحلامنا وسبَّ آلهتنا وأفسد شبُّاننا وفرّق جماعتنا"**، هذه كانت سيرة النبي العظيم صلى الله عليه وآله، الهادم لكل باطل. نعم، كان النبي يسب الآلهة المزيفة لأنها تستحق السب، ولكي يُسقط مكانتها في نفوس الناس، سأله أسعد: **"من هو منكم؟" قال عتبة: " هو ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً، لا يُنكر فضله"** هنا نجد أن حتى أعداء النبي صلى الله عليه وآله يعترفون بشرف نسبه وعظمة بيته.

وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا يعيشون بينهم، مثل بني النضير وبني قريظة وبني قينُقاع، "أن هذا أوان نبيّ يخرج بمكة، وسيكون مهاجَره إلى المدينة" فعندما سمع أسعد هذا الكلام، وقع في قلبه ما سمعه من اليهود. فآمن بالنبي صلى الله عليه وآله، وآمنت معه الخزرج، ثم آمنت الأوس، وتشكل الأنصار في بيعة العقبة الأولى والثانية، انقلبت الآية حينما كفر اليهود الذين كانوا ينتظرون النبي، وبدلاً من أن يكونوا أنصاراً له، حاربوه. في حين أن الأوس والخزرج، الذين كانوا وثنيين، هم من نصروا النبي صلى الله عليه وآله، وبهذا اقترب البعيد وابتعد القريب، وكل ذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله جاءهم بما لا تهوى أنفسهم، جاء ليهدم الباطل ويبني الحق، فلو كان النبي كاذباً، لكان قبِل التوراة المحرفة وبنى عليها، ولكنه لم يفعل ذلك، لأنه كان نبياً صادقاً، ولم يكن ليُعرّض نفسه لمخاطر الرفض لو كان مدّعياً النبوة.

هذا يدلك على أنه نبي صادق، وكل الصادقين والمصلحين في التاريخ إذا كان صادقاً مصلحاً لا يبني على ما هو في قرارة نفسه باطل، لمجرد كسب الناس، أما كان أسهل لأمير المؤمنين عليه السلام أن يقبل بعرض عبد الرحمن بن عوف لمّا قال له: "**أبايعك على أن تعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وعليه وسيرة الشيخين**"، قال: "**أبايعك، عثمان لا يتولى، وأنت تتولى بعد**

عمر مباشرة" لو كان علي عليه السلام براغماتياً، سياسياً ماكراً – والعياذ بالله – لقبل بذلك، لبنى على ما مضى. لنفترض أنه قال: "نعم، سأقبل، وسأسير على سيرة الشيخين." في هذه الحالة، لا عثمان سيتولى، ولا معاوية سيأتي بعده، ولن تكون هناك حروب، ولا عذاب، ولا قهر، ولا تلك الفتن والاضطرابات. ستكون الخلافة قد جاءت لعلي عليه السلام بهدوء، ويحكم كما يشاء، ثم يوليها لمن بعده من ذريته، فيتولى الإمام تلو الإمام، دون أي مشكلة. ولكن تبقى مشكلة واحدة وهي مشكلة الشرعية؛ إذ كيف يأتي إمام بعد إمام، ولا يستطيع أي إمام أن يقول "**أنا أرفض سيرة الشيخين**"، إذ أن عليًا بن أبي طالب قد قبل بها من قبل؟ سيكون هناك اعتراف بالشرعية، وهذا خطر جدًا، أمير المؤمنين عليه السلام لم يعترف بشرعية سيرة الشيخين، ومع ذلك ظهرت جماعات من داخل الجسد الشيعي، مثل البترية ومن سار على نهجهم، تعترف بهذه الشرعية. فكيف لو قبِل بها علي عليه السلام؟ بالله عليك، لو قال: "نعم، أقبل، لا مشكلة"، ما الذي كان سيحدث؟! ولكن هيهات فعلي عليه السلام هو تلميذ النبي محمد صلى الله عليه وآله، مصلح وثائر يهدم ما مضى. يقول: "لا، أنا أهدم سيرة الشيخين، ولا أبني عليها." كما أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله هدم اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والوثنية، واستأنف بناء الإسلام من جديد.

المهدي المنتظر عليه السلام، حسبما ورد في الروايات، سيسير على نفس النهج. يهدم كما هدم رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان قبله، ويستأنف الإسلام جديداً، ليخلصه من كل الانحرافات.

نستفيد من هذا كله أن على المصلحين، الثائرين، الساعين إلى إصلاح الأوضاع الدينية والاجتماعية، أن يكون منهجهم هداماً.

نعم، نعترف بأن منهجنا منهج هدام، وهذه تهمة ألقيت علينا منذ أيام الكويت، حيث يتهموننا بأننا أصحاب منهج هدام. يقولون: "هؤلاء أصحاب المناهج الهدامية" ونحن نقول: نعم، نحن نفخر بأن منهجنا منهج هدام. نحن نهدم، نزلزل النفوس.. نعم صحيح، قد يؤدي إلى التفرقة، قد يؤدي أحيانًا إلى التشرذم، قد يؤدي إلى ارتداد البعض عنّا كل ذلك صحيح.. ولكنه ضروري إذا كنا صادقين مع الله ورسوله وأوليائه عليهم السلام، لا بد أن نكون هدامين، وهذا هو في الحقيقة ما يفرقنا نحن - أهل العالم الأول - عن أهل العالم الثاني. هم يؤمنون بما نؤمن به، وهم صالحون في عقيدتهم إن شاء الله، ولكن منهجهم مختلف. هم يبنون فقط، يكتفون بالبناء، ويهملون الهدم، خوفاً من التصادم. أما نحن، فنحن نتصادم، نهدم ثم نبني، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم.

أحيلكم هنا للتذكير بكتاب "حل الإشكال"، وهو عبارة عن مراجعات منهجية جرت بيننا وبين أحد طلبة العلم. ذلك المتعلم الحوزوي ناقشنا في منهجنا عبر مراسلات موثقة في هذا الكتاب. قلنا في هذا الكتاب، جواباً على ذلك الأخ الكريم: "هذا ومازال العجب يأبى أن يزول من قولكم بظهور عدم تمامية اتهامنا لأهل العالم الثاني بأنهم كأهل الكتاب". فقد اتهمناهم بأنهم يسلكون منهج أهل الكتاب في طريقة تعاملهم. هو استبشع هذه المقولة، أو استنكرها، وقال: "كيف تقولون هذا الكلام؟" واعتبر أن ما قلناه إجحافًا بحقهم، لأنهم – بحسب قوله – يبلغون ويغزون الآخر كالأنبياء والأوصياء، ولكن الفرق أن أهل العالم الثاني لا يبدؤون من النهاية كما تفعلون أنتم، وجه كلامه إلينا قائلاً: "أنتم تبدؤون بأبي بكر وعمر لتنتهوا إلى علي عليه السلام، تبدؤون بالبراءة لتنتهوا بالولاية، أما هم، أهل العالم الثاني، فيبدؤون بالولاية لينتهوا إلى البراءة" يعني، أهل العالم الثاني يبدؤون بالتأكيد على ولاية علي عليه السلام، فيقول أحدهم: "أيها الناس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**". ويركزون على الولاية ويدعون الناس إليها. وبعد أن ينجذب الناس، يُدعون بعدها للبراءة من أبي بكر وعمر، وغالباً لا يصلون إلى هذه النقطة بسهولة. أما أهل العالم الأول، فيبدؤون بالبراءة، فيقول أحدهم: "أيها الناس، قال زين العابدين عليه السلام: **أبو بكر وعمر كافران، كافر من أحبهما**"، فيبدؤون بالبراءة لينتهوا بالولاية، أجبنا على هذا الكلام وقلنا: "

إلى آخرِ ما تفضلتم به مما أركزَ القناعة بعدم انعتاقِ النفسِ عن الالتباسِ والتبهُّم، ذلك لأنّا لم نقل أنّ أهل العالمَ الثاني لا يبلّغون أو يَدعون، بل قلنا أنهم يبلغون ويَدعون كما كان يفعل أهل الكتاب في الجاهلية، وعلى طريقتِهم حين ينادون بالتوحيد، وذلك صريحُ قولِنا في جوابنا الأول، رغم رفضِهم لعبادة الأوثان، ودعوتهم للتوحيد بحسب مفهومهم، ثم لمّا عطفنا القول على أهل العالم الثاني لبيانِ ما يفرقهم عن أهل العالم الأول، قلنا أنهم يسلكون سبيلَ أهل الكتاب، إذ لا يحملون مشروعاً دَعَوياً سوى ما تُعورف بينهم من مطالب تقليدية تُقال على المنابر، وتُدوّن في الكراسات، وليس فيها تصعيدٌ ولا تجاوز، ولا تحدٍّ لمعتقدات الآخر، ولا تحطيمٍ لها، ولا سعيٍ لإحداث تغييرٍ جذري في واقع هذه الأمة، أما نحن، فنريد أن نسلك سبيل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله"، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم. نحن نسلك سبيل الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، لا نقبل بواقعنا، ولا نكتفي بأنفسنا ومن معنا، ولا نرضى إلا أن نرى الناس يدخلون في التشيع أفواجاً. ولا نهدأ حتى نحرز أن أكثرية الأمة قد أصبحت شيعية. وبكلمةٍ، نحن أصحابُ مشروعِ "القضاء" على الجاهلية الثانية التي تمخّض عنها تقديس أئمة النفاق: أبي بكر، وعمر، وعائشة. أما أهل العالم الثاني، فلا يحملون همّاً كهذا، ولا هدفاً من هذا القبيل. القضاء أو التحطيم ليس حاضراً في أجندتهم مطلقاً، فأين هذا مما نسبتموه إلينا من القول بأنهم لا يهتمون بتشييع المخالف؟ نحن لم نقل إن

أهل العالم الثاني لا يحملون مشروعاً دعوياً، بل قلنا إن مشروعهم مشروع تقليديّ، متعارف، ليس فيه تصعيدٌ ولا تجاوزٌ ولا تحدٍّ لمعتقدات الآخر، ولا تحطيمٌ لها، كما هو الحال في مشروع أهل العالم الأول، نحن لم نقل إن أهل العالم الثاني لا يحبذون تشييع المخالفين، ولا يفكرون بهذا الأمر، بل قلنا إنهم لا يحبذون – على حد قولهم – مشاريع القضاء والتحطيم والتدمير والتصعيد والتجاوز؛ هو يقول أن أسلوبَنا كله قائم على القضاء والتحطيم والتدمير، ونحن نرد عليه: "هذا أسلوبكم، وهذا ما تفضلون، لماذا تعتبرون أن ما نقوله هجوم عليكم؟ إذا كنتم لا تحبون ذلك، فهذا شأنكم، نحن لا نهاجمكم، بل نوضح فقط أنكم لا تضعون هذه الأمور هدفاً كما نفعل نحن أهل العالم الأول."

وأما ما أسميتموه "الغزو الناعم"، فهو في الحقيقة عينُ أسلوب أهل الكتاب. فمن يقرأ التاريخ جيداً سيرى أن أسلوب أهل الكتاب في الدعوة إلى دينهم وسط جاهلية العرب كان غزواً ناعماً، ولا يزال كذلك إلى حد ما، وأما النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، فما كان أسلوبه مثل أسلوب أهل الكتاب. لقد كان أهل الكتاب يكتفون بالقول: "الله واحد"، يسألون الناس: "أهو إله واحد أم متعدد؟" فيجيبون: "الله واحد"، ليكون مفهوم كلامهم نفياً للأنداد دون تصريح، ولا طعن علنيٍّ مباشر، وأنتم أيضاً تكتفون بالقول أن الأمة ظلمت أمير المؤمنين عليه السلام وغصبته حقه، ليكون مُتضَمّنَه ظلم أبي بكر وعمر،

ولكن بلا تصريح أو طعن علني مباشر، أما النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله، فلقد كانت كلمته: "لا إله إلا اللّه"، نفياً صريحاً للأنداد، هذه الكلمة كانت تستفز مشركي العرب، حتى قالوا له: "لماذا تقول لا إله إلا اللّه؟ قُل اللّه واحد". ولم تكن لديهم مشكلة مع القول بأن اللّه واحد، كما سمعوه من أهل الكتاب. لم تكن كلمة "اللّه واحد" تثير استياءهم، بل كانوا يجدون لها طريقًا يفسرونها وفق معتقداتهم، كما يقول النصارى: "اللّه واحد، ولكن في ثلاثة"، أو كما يعتقد المشركون: "اللّه واحد، ولكن لدينا أكثر من 360 إلهاً شفعاء يقربوننا إلى اللّه زلفى". أما قول "لا إله إلا اللّه"، فهو سلب كامل للشرعية من جميع الآلهة إلا إلهاً واحداً، وهذا كان يستفزهم جداً، وكذلك كانت طعونات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى اللّه عليه وآله علنية ومباشرة في الآلهة التي كانوا يعبدونها، مثل اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى. وأهل العالم الأول يفعلون نفس الشيء، فيقولون صراحة: "أبو بكر وعمر ظالمان غاصبان"، بتصريح لا تلميح، وبطعن علني مباشر لا ضربات مستترة، وأما أهل الكتاب، فبدعوتهم للتوحيد، كانوا يبدؤون بالولاية ويتركون للمستمع استنتاج البراءة من كل طاغوت يُعبد من دون اللّه. وأنتم تفعلون الشيء ذاته، إذ تبدؤون بدعوة الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، تاركين لهم الوصول إلى البراءة من كل من اغتصب حقه، أما النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله، فقد بدأ بالبراءة أولاً، فقال: "لا إله"، ثم أردفها بقوله: "إلا اللّه"، حيث

الولاية. وهكذا نطق القرآن المجيد في قوله: (فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَاۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ))، بدأ بالبراءة من الطاغوت أولاً، ثم ألحقها بالدعوة إلى الولاية بالإيمان بالله، وأهل العالم الأول كذلك يفعلون، إذ يبدؤون بالبراءة لينتهوا إلى الولاية. أما أهل الكتاب، فكانوا يتحاشون الاصطدام المباشر بالمشركين، مكتفين بقولهم: "كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا". وأنتم على آثارهم، تحرصون كذلك على تجنب الاصطدام بالمخالفين، مكتفين بالدعوة للتشيع، أما النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، فقد اصطدم بمن ليس على دينه اصطداماً بلغ حد الحروب، إذ لم يكتفِ بالدعوة إلى دينِه فحسب، بل تعدّى على أديانِ الآخرين، فسفّه معتقداتهم، ونالَ من آلهتهم، ودعاهم إلى البراءة منها، ووصمهم بالكفر والضلالة والجاهلية والظلم والفسق، مع طعون كثيرة مع وابلٍ من القوادحِ واللعنات، وكذلك يفعل أهلُ العالم الأول. ومن يسأل عن سبب هذا الأسلوب، نجيبه بأنه لا يتحقق قودُ الناس إلى دين الله على أكمل وجه إلا إذا هُدمت الأديان الباطلة بشكل مباشر، وبالأولوية، وهذا يتطلب نقدها وتحقيرها وتسفيهها حتى تُنسف تماماً، ليحلِ الدينُ الحقُّ محلها...

منهجيتنا هدامة بالفعل، ونحن نفتخر بذلك.

الفصل الثاني

الاختراقات المحمدية للطوائف المعادية

عرّفنا كما سبق أن علّة كفر الطائفة اليهودية في ذلك الزمان بخاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله هي هذه العلّة، أنه قد جاءَهم بما لا تهوى أنفسُهم، وذلك ما حكاه اللّه سبحانه في كتابه (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ [1]) كانوا يريدون أن يأتيهم هذا النبي صلى اللّه عليه وآله بما تهواهُ أنفسهم، ومن ذلك أنهم أرادوا الإبقاءَ على توراتهم، وتُلمودهم، وتعاليمهم، وأن يبني النبيٌّ عليها، لا أن يهدمها ويستأنف من جديد، فذلك ثقيلٌ عليهم لم يتحملوه ... السياق القرآني يكشفُ سبباً آخرَ لكفرِ اليهود بمحمد صلى اللّه عليه وآله، فكما قال اللّه تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ))، فإنه قال بعدها (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ [2]..

هذه الآية الكريمة تُوحِي لنا بعلةٍ أخرى مِن علل كفرِ اليهودِ برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وهي أن هذا الفضل وهو فضل النبوّة، قد أنزله اللّه على من يشاءُ "هو" من عباده لا من يشاءُ الناس **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ** أي باعوها، لأنه كأنه قَبضَ ثمناً مقابلَ أن يشتري هذه النفس لمشترٍ مجهول وهو الهوى،

[1] البقرة ٨٧

[2] البقرة ٩٠

فباعوا أنفسَهم لأهوائِهم بهذا الثمن القليل، بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وكان المآل أن يكفروا بما أنزل الله، فلماذا كفرتم؟! بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ هم بغَوا لأن الله نزّل هذا الفضل وهذه النبوة على من يشاءُ هوَ، لا على من هم شاؤوا أن تنزل عليه هذه النبوة وهذا الفضل..

ما الذي أرادوه؟

أرادوا أن لا يكون هذا الفضل للعرب، أرادوا أن يكون هذا الفضل لهم، أن يكون خاتم الأنبياء منهم من بني إسرائيل، لا من بني إسماعيل عليهم السلام من العرب، فأثارَ اختيارُ الله عز وجل للنبي الموعود خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله من بني إسماعيل في نفوس بني إسرائيل الحسد..

صُدِموا في الحقيقة عندما وجدوا النبي الذي ينتظرونه، وبذلوا ما بذلوا لأجل انتظاره، وتحمّلوا مشاقَّ الهجرة من مئات الأعوام لانتظاره، ولنيل شرف صحبتِه ونصرتِه، صُدِموا أنه بعد هذا العناء الطويل لم يكن هذا النبي منهم بل من غيرهم، جرّاء هذه الصدمة كفروا به، و هناك آثار تدل على هذه الصدمة التي ولّدت هذا الحسد في نفوسهم، ومن ثم افضَتْ إلى هذا الكُفر

والرفض، منها ما ورد في تفسير الإمام العسكري عليه السلام[1][2] في هذا التفسير رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام طويلة تتحدث عن هذه النقطة وفيها بالتحديد: **فلما ظهرَ محمد صلى الله عليه وآله، حسدوه إذ كان من العرب فكذّبوه**، كذبوه لأنه من العرب فلو كان من اليهود من بني إسرائيل لَقبلوا به، يُضَم إلى هذا ما جاء في تفسير الطبري عن السُدّي الكبير وبالمناسبة هذا السُدّيّ مذكور بالرفضِ عند المخالفين وأنه كان يشتم أبا بكرٍ وعمر، ولا عجب فإنه من أهل الكوفة التي كان يغلب عليها التشيع والرفض، السُدّيّ مُفسِّر معروف، ففسّر هذه الآية وتحديداً قوله تعالى: **بَغْيًا** قال بغَوا على محمد صلى الله عليه وآله وحسدوه وقالوا إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بالُ هذا من بني إسماعيل، فحسدوه؛ **أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** .

هذه مشكلة عند بعض الناس! أنهم يرفضون الاختيارات الإلهية، يريدون هم أن يختاروا، يعني لماذا اختار الله عز وجل الأنبياء من هذا البيت وهذه القبيلة؟ لماذا اختار الله الأئمة من هذا البيت وهذه القبيلة مثلاً؟ نحن نريد كذلك أن يختار منا، فيَحسِدون، ومن ثم يجحدون، ويكفرون، ويبغون، لاحظوا مقالتهم قالوا: **إنما كانت الرسل من بني إسرائيل فما بالُ هذا من بني**

[1] مبنى الشيخ في هذا التفسير أنه منقولٌ عن الأئمة الأطهار عليه السلام بالمعنى لا باللفظ الحرفي

[2] تفسير الإمام العسكري ص٣٩٦

إسماعيل، لمَ كان هذا آخر الأنبياء، وسيدهم، وأفضلهم، من بني إسماعيل؟ آلاف الأنبياء من قبله اختيروا من بني إسرائيل، و بالمناسبة بنو إسرائيل كانوا أكثر الأقوامِ أنبياءً، حكمة الله هكذا اقتضت، فلماذا آخرُ الأنبياء وسيّدهم كان من غيرهم؟ هذا ابتلاء و امتحان إلهي كبير ضخم، لا لبني إسرائيل فقط، لا للعرب فقط ، بل للبشرية أجمع! أنه هذا الذي ينتمي إلى قَبائل عريقة، لعلها تكون أكثر تحضراً، أكثر مدنيةً، أكثر تقدماً، أكثر ثقافةً ومعرفةً وعلماً، تُسلِّمُ حقاً لهذا النبي الذي خرج في الصحراء، من أمةٍ جاهلية، غير متعلمة، غير مثقفة، غير متمدنة، غير متحضرة، من فئة من البشر كانت تُستحقر من قِبل سائر الفئات، لتدنيها الحضاري آنذاك، بالقياس إلى غيرها من حضارات مجاورة مثلاً في الشرق الأوسط، فكانت هنالك حضارة الفُرس، حضارة الروم، حتى حضارة الحَبَشة الذين كانوا متقدمين على العرب.. ناهيك عن بني إسرائيل وهم قوم الأنبياء مثلاً، حضارة القِبْط، وحتى أهلُ اليمن، الذين آنذاك كانوا يَرون لأنفسهم علوَّ كعبٍ على قريشٍ وما والاها مثلاً.. الغساسنة سكَنَةُ المدائن في العراق.

كل هذه المناطق كانت تعتبر أن هؤلاء العرب لا قيمة لهم، عربٌ وأعراب، و لذلك لاحظوا لمّا كتب النبي الأعظم صلى الله عليه وآله كتاباً إلى كِسرى، دعاهُ فيه إلى الإسلام، [1]**مزّق الكتاب وثارت ثائرته، وقال يأتيني هذا العربيّ**

[1] تجدون الخبر بتمام لفظه في بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٠ - الصفحة ٣٨٩

-وسبّ النبي صلى الله عليه وآله- ويأمرني وأنا كسرى الأكاسرة!، **فأمر واليه في اليمن**؛ لأنه آنذاك كانت اليمن محكومةً من قبل الفرس، فأمر واليه في اليمن **وقال:أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتياني به**.، لأنه يعتبر أن هذه المنطقة "الحجاز" كأنها من الضواحي، من التوابع لمملكته، فكيف يأتي أحدهم ويتحداني بهذه الطريقة ويأمرني بأن أتبعه وأنا كِسرى.. وبالفعل ذلك الوالي الفارسي في اليمن أرسل اثنين إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وجاءا ليعتقلاه، قالا له لدينا أمرٌ من كِسرى باعتقالك، فالنبي صلى اللّه عليه وآله تبسّم، ودعا على كسرى بأن يمزّق اللّه مُلكه كما مزّق هذا الكتاب.. وبالفعل مزّقَ اللّه مُلكه، و قتلَه ابنُه بالمناسبة في قصة مفصلة، والنبي رفضَ أن يسلّم نفسه لهذين،.

وكتب كتاباً آخر للوالي الذي كان على اليمن وذكرَ له أني قد دعوتُ على كِسرى (مضمون الحادثة)..... وأنّ اللّه أهلَكه في اليوم الكذائي، في الساعة الكذائية، بأن قُتل من ابنه.. وكان هذا قبل أن يصل الخبر من بلاد فارس إلى اليمن وإلى الحجاز، فقد كان يأخذ وقتاً طويلاً، فعاد هذان الرجلان إلى الوالي وأخبراه أن كِسرى الذي كتب لك الأمر قد قُتل وجلس ابنُه مكانه، فتعجب الوالي وقال: "**الآن سنرى إن كان هذا نبياً صادقاً أم لا**" وبعد أيام، جاء الخبر بالفعل، ومعه كتاب آخر من كِسرى الجديد يقول فيه: "لقد قتلت أبي وجلستُ محلّه" وكان ذلك في نفس التاريخ والساعة التي ذكرها النبي الأعظم

صلى الله عليه وآله، فآمن الوالي، الذي كان ولاؤه للدولة الفارسية، وتحول ولاؤه إلى الدولة المحمدية، الشاهد من هذا الحدث هو أن الفُرس كانوا يحتقرون العرب، ويعتبرون أنفسهم أكثر حضارة وعلوّاً وثقافة من هذه الأمة. وهذا كان اختباراً كبيراً؛ أن تسلّم أمة لنبي من أمة أخرى تعتبرها وضيعة وأقل منها شأناً، كان هذا الاختبار مشابهاً لما واجه بني إسرائيل، صحيح أن الأنبياء كانوا منهم منذ زمن يعقوب عليه السلام، وهو إسرائيل. كانوا يعتبرون أنفسهم من الفرع الشريف المقدس، نسل إسحاق ويوسف والأنبياء من بني إسرائيل وبيت عمران، مثل موسى عليه السلام وحتى المسيح عليه السلام، الذي لم يؤمنوا به يعتبر إسرائيلياً من جهة الأم.

لكن الإشكال عند اليهود هو أن النبي الذي جاء في آخر الزمان لم يكن من فرع بني إسرائيل، بل من فرع إسماعيل، والمشكلة الكبرى هي أن هذا النبي لم يبني على الديانة التي كانت متداولة في فرع بني إسرائيل، بل جاء ليهدمها ويؤسس دين جديد وشريعة جديدة، يُبطل بها التوراة. و حتى لو كانت التوراة الحقيقية ما زالت باقية، فقد نُسخت بالقرآن الحكيم، وأصبحت الشريعة شريعة القرآن من ذلك الحين، وكان هذا ثقيلاً على اليهود فلم يحتملوه. قالوا: "إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بالُ هذا من بني إسماعيل...!"، فحسدوه (أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

وقد ذكرنا كما سبق حديث ابن عباس في دلائل النبوة، **أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وآله قبل مبعثه، فلما بعثه الله عز وجل من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.**
إذن، كان لليهود علتان في رفضهم للنبي: الأولى أن منهج النبي صلى الله عليه وآله كان منهجاً هادماً لما كانوا يعرفونه ويألفونه فكرهوا ذلك ونفروا منه، والثانية أن هذا النبي اختير من غيرهم، من بني إسماعيل لا بني إسرائيل، فحسدوه وكفروا به، وغدروا به وحاربوه، ولكن المثير للدهشة هو أنه مع مرور الزمن، اعترفت طوائف يهودية بنبوة رسول الله صلى الله عليه وآله.

و هنا، لا أتحدث عن الذين أسلموا في زمانه كأحبار اليهود، مثل عبد الله بن سلام، الذي كان من أحبار اليهود وأسلم وآمن برسول الله صلى الله عليه وآله. وكذا لدينا أيضاً رواية عن أن لرسول الله صلى الله عليه وآله كان صديقان يهوديان، صديقان بمعنى يصدِقانه القول، ولم يكن فيهما غدر، وبقيا على يهوديتهما حتى استشهد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله. وبعد شهادته، أسلما على يدِ أمير المؤمنين عليه السلام، في قصة مفصلة.[1]

[1] تجدونها في بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٠ - الصفحة ١٨

- الطوائف اليهودية المؤمنة بخاتم الأنبياء -

لكنني لا أتحدث عن هؤلاء، بل أتحدث عن أناس من اليهود، من أحبارهم، آمنوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بعد قرون. وعلى أثرهم تشكلت طوائف يهودية، بعضها لا يزال باقياً حتى اليوم، وهي تعترف بنبوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله مع بقائها على اليهودية، غاية ما هنالك أنها ترى أن نبوته خاصة لا عامة، يعني نبوته تخص العرب فحسب، لا أنها تعمُّ البشرية جمعاء، من تلك الطوائف الطائفة اليهودية العيسوية، و سميت **بالعيسوية** نسبةً إلى زعيمها أبي عيسى الأصفهاني، واسمه "**عوفيد أولوهيم**"[١]، ظهر هذا الرجل في أواخر زمان بني أمية وأوائل زمان بني العباس، وكان في أوج انتشاره أو ظهوره في زمان المأمون العباسي، تبِعه خلقٌ كثيرٌ من اليهود، وسُمُّوا بهذا الاسم؛ اليهودية العيسوية نسبة إلى هذا الرجل الذي أقرّ بنبوة خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله لكنّه جعله نبياً للعربِ فقط، وقد ذُكر شأنُه في كتاب "المستصفى في علم الأصول" مع هوامشه للغزالي[٢] وكذا ذكره الشهرستاني في "المِلَلِ والنِّحَل" [٣]، و قد يتبادرُ هاهنا إشكالٌ أو اعتراض يقول فيه صاحبُه أن

---

[١] أي عابد الله

[٢] ص ١٠٠

[٣] ج٢ ص٢٣٩

إيمان هذا الرجل وأتباعُه برسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن عن قناعةٍ وإنما كان تملّقاً للمسلمين إذ كانوا يعيشون في محيطهم، وكثيراً ما تُبتَدع أقوال عقَدية من بعض رجال الدين وأتباعِهم توافقاً مع المحيطِ الذي يحيط بهم، كما نحن مبتلون مثلاً في أمتنا الشيعيّة، فلماذا تتجدد النزعة البترية في أوساطنا من حينٍ لحين؟ لماذا يظهر أناس مثلاً معمَّمون يتحدثون بلغةٍ توافقيةٍ مع العقائدِ المخالفة؟ حتى أنهم يعترفون ببعض رموزهم، و يترضَّون عنهم، أو يثنون عليهم .. لماذا يظهر لدينا مُعمَّمٌ مثلاً تجده يتكلم كلاماً إيجابياً عن عمر بن الخطاب مثلاً؟ وهذا أمرٌ ينتقضُ به التشيُّع القائم على البراءة من عمر، فعمر شخصيةٌ مرفوضة عند الشيعة، مُجرَّمةٌ مؤثّمةٌ، البراءةُ منه لازمة، فلماذا نجدُ هذه الظاهرة؟!

الحقيقة أن هذه الظاهرة إنما هي ترجمةٌ لخضوع هؤلاء للمحيط، فهناك محيط بكريٌّ يحيطُ بنا، فمن ضعفِ إيمانِ هؤلاء، ومن قلة ثقتهم بالنفس، وسعيِهم وراء المصالح الدنيوية يتماهَون مع الآخر و يتمازجون ويتوافقون معه، ويتملقون له، فيُثنون على عمر مثلاً، فلو افترضنا أن هذا المحيط لم يكن موجوداً -أي المحيط البكري- لما وجدت بترياً واحداً في الدنيا! إلا إذا كان مجنوناً مثلاً، لأنه ما هو الداعي لأن يتملقَ للآخر ويتوافق معه، ولو فرضنا العكس.. أن المحيط كان شيعياً رافضياً لاضطر البكريُّ لأن يتوافق معه، وقد حصل في بعض المراحل في التاريخ، في بعض البقاع كالكوفة والعراق مثلاً،

فإن هنالك من حاول أن يتوافق معنا وأن يتملّق لنا، لا بالثناء على أئمتنا عليهم السلام فحسب، بل حتى بالقدح شيئاً ما في مناوئيهم! ولعلّي ذكرت ذلك من قبل، أنه لو فرضنا أن أتباعَ مسيلمة الكذاب كانوا لايزالون بيننا إلى اليوم، لكنتم تجدون وترون أناساً من الطائفتين -من الشيعة والبكرية- يتملّقون إلى هؤلاء ويعقدون معهم مؤتمرات التقريب، لأنه بالفعل هناك مشتركات عديدة بيننا وبين الديانة المسيلمية -ديانة مسيلمة الكذاب-، من هذه المشتركات: التوحيد كما نشهد أن لا إله إلا الله، مسيلمة وقومُه وأتباعُه كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله، هذه نقطة مشتركة عَقَدية بيننا وبينه، النبوة نحن نشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، ومسيلمة وقومُه وأتباعُه كانوا يشهدون أن محمداً رسول الله، القرآن نؤمن بأن القرآن كلام الله، ومسيلمة وقومُه وأتباعُه كانوا يؤمنون أن القرآن كتاب الله، الصلاة خمس فروض في اليوم، ومسيلمة وأتباعُه كانوا يصلون خمس فروض في اليوم، حتى تزوج سجاح المتنبئة فأسقط عن قومها صلاة العصر، حج البيت، الزكاة مشتركة أيضاً، أي هناك مشترَكات كثيرة، و القضايا الأخلاقية كانوا حتى الأنبياء الكذَبة يكررونها، أن عليك أن تصدُق، لا تكذب، لا تقتل، لا تظلم، لا تفجر، لا تزني، هذه بضاعة الكل إن جاز التعبير.. فالمسألة عند التطبيق لا الكلام.... فهناك مشترَكات كثيرة، أما الاختلافات فهو أنه كما تقولون أن محمداً رسول الله، نحن نقول أن مسيلمة رسول الله، اضفنا نبيّاً

إضافياً فقط، هذه الإضافة جاءت بناءً على عدالة الصحابة إن جاز التعبير، يعني بناءً على شهادة الصحابة، واحدٌ منهم اسمه **الرجّال ابنُ عَنفُوَى**، و هذا الرجل كان معروفاً بالعلم والعبادة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وبعد استشهاد النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله ذهب إلى قوم مُسيلَمة وشهدَ لهم بأنّ النبي قال: "النبيٌّ من بعدي مسيلَمة"، فصدّقوا! قالوا هذا صحابيٌّ لا تُرَدُّ شهادته فسلّموا له، هذا اختلاف؛

والاختلاف الثاني أنه كما لدينا قرآن، عندهم قرآنٌ آخر وهو قرآن "رحمن اليمامة"، الذي هو مُسيلَمة. فالاختلافات ضئيلة بالقياس إلى المشترَكات التي توحّدنا وتجمعنا، ألا تلاحظون أن هذه الكلمة التي لطالما تُذكر في مؤتمرات التقريب التملّقية المعروفة، التي تخلط الحق بالباطل، يقلل لك الاختلافات، هذه نسبة الاختلاف فيما بيننا نحن الشيعة والسنة على تعبيرهم ضئيلة جداً، لاحظوا المشترَكات الهائلة فيما بيننا، فدعونا نتّحد! فنفس المنطق يمكن تطبيقه على ما بيننا وبين ديانة مسيلمة الكذاب، فتخيلوا لو نجحت خطة مسيلمة، حيث أنه كتب كتاباً لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، كتب: "**مِن مسيلمة رسول الله إلى محمدٍ رسول الله؛ سلامٌ عليك فإني قد أُشرِكتُ بالأمرِ معك، فلك نصف الأرض وليَ نصفها**"[١]، فالنبي أجابه بجواب عظيم مختصر، فرفض عرضه وأنذره وحذّره، فأقول: تخيل لو أن خطة مسيلمة كانت قد

[١] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢١ - الصفحة ٤١٢

نجحت وأن هذا الواقع الذي أراد رسمه في الجزيرة العربية استمر إلى اليوم، وهو أن تكون نصف الجزيرة العربية للمسلمين لأتباع محمد صلى الله عليه وآله، والنصف الآخر لمسيلمة وأتباعه، دينان متجاوران لمدة 1400 سنة، قد تقع بينهما حروب، قد تقع بينهما قلاقل، ولكن بالنتيجة الضغط الاجتماعي والزمني والجغرافي سيفرض على الجميع أن يمدوا الأيادي، ويتصالحوا ويتقاربوا، و سيخرج لك أناس من هنا وهناك لأجل مزيد من التوائم والتقارب والألفة والوحدة الوطنية والاجتماعية، كي يقربوا فيما بين العقائد فيطرحوا هذه النظرية، أنْ تعالَوا نتقارب و نُهمل ما اختلفنا فيه، قليلٌ من الناس ينجحون في هذا الاختبار و يحققون نموذج التعايش السلمي والإيجابي دون التنازل عن عقائدهم أو التملّق للآخر في عقيدته وآرائه، و هذا ما نطمح إليه نحن، حققته دول أخرى وحضارات أخرى تقدمت في هذا المضمار، و لكن مع الأسف في محيطنا العربي الإسلامي لم نتقدم في هذا المضمار بعد، فلا نتعايش إلا إذا تنازلنا، يعني إما أن يتنازل الشيعي خصوصاً عن بعض عقائده أو أن يكتمها فلا يجاهر بها، و إلا فلا تعايش معه، تُسلبُ حقوقه..

عوداً على بدء، هذا أبو عيسى الأصفهاني الذي كوّن الطائفةَ العيسوية التي آمنت بنبوة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، لعل أحداً يأتي و يعترض و يقول لا حجةَ لكم في هذا، فإن إيمانه بنبوة خاتم الأنبياء كان على وقع تأثيرات المحيط الإسلامي، إذ هو في أصفهان، ولذا أقرَّ بنبوة خاتم الأنبياء

تملقاً لكم أنتم المسلمون، نقول هذا الاحتمال ساقطٌ هنا؛ أن نفسّر اعتراف أبي عيسى الأصفهاني اليهودي بنبوّة خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله بهذا التفسير، ساقط؛ لأنه لا يمكن أن نقول أنه كان يتملق المسلمين وقد شهرَ سيفَه عليهم، وعلى الحكم الذي يمثل المسلمين آنذاك وهو الحكم العباسي، فإنكم لو قرأتم في تاريخ هذا الرجل وطائفته لعلمتم أنهم قاموا بثورة على المسلمين، وثورة على الحكم العباسي، وأفضت هذه الثورة في النهاية إلى مقتل أبي عيسى نفسهِ، و بقي أتباعه فيما بعد، بعدَ مقتله وله تلاميذ كذلك هم أيضاً أسسوا فرقاً وطوائف يهودية، ولكن كلهم بقوا في عِدائهم مع المسلمين ومع الحُكم الذي يسمى إسلامياً، بقَوا مؤمنين بنبوة خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله، ومعنى ذلك أن إيمانهم بنبوة النبي الخاتم لم يكن عن تملق أو مُحاباة أو مداهَنة أو لمصلحة ما، وإنما كان عن إيمان، يعني هم آمنوا بالفعل بأن هذا رسول من اللّه صلى اللّه عليه وآله، كذلك هناك طائفة أخرى وهي الطائفة اليهودية **اليودغانية**، وهي طائفة تفرعت عن العيسوية لأن **يودغان** هذا الذي يُذكر هو في الحقيقة من تلامذة أبي عيسى الأصفهاني، هذه الطائفة أيضاً كانت تقرّ بنبوة محمد صلى اللّه عليه وآله على أساس أنها نبوة خاصة بالعرب.

طائفة ثالثة وهي الطائفة اليهودية "**القَرائية أو القِرائية أو العنانية**" هكذا يطلق عليها نسبة إلى زعيمها **عنان ابن داود**، وهذا الرجل حاخام يهوديّ كبير

ظهر في العراق، واللطيف في الأمر أنه ما زال لأتباع هذه الطائفة وجود، يعني ليست كالطائفة العيسوية التي انقرضت تقريباً، طائفة اليهودية القرائية لا تزال موجودة تسمى "**يهوديت قرائيت**" هذا اسم الطائفة، لا تزال موجودة ولا يزال أتباعها موجودون في فلسطين المحتلّة، ولهم معابدهم، ولهم مراسمهم، و بالمناسبة هناك عِداءٌ بينهم وبين الطائفة اليهودية الأخرى "**اليهودية الربّانية**،" حيث ينجّسون بعضهم بعضاً، لأن هذه الطائفة أي "يهوديت قرائيت" لا تؤمن بالتلمود، الذي هو عبارة عن تعاليم أحبار اليهود التي دُوِّنت غير التوراة، فيقولون نحن نرفض هذه التعاليم فليست ملزِمةً لنا فلا نأخذ بها، ومن هنا نشأت المشاكل فيما بين الطائفتين.... هذه الطائفة اليهودية القرائية أو العَنانية تؤمن بنبوّة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله على أساس أنه نبيٌّ للعرب، وقد ذُكِرت أيضاً في كتاب الملل والنحل للشهرستاني لمن أراد أن يراجع.

أيضاً ممن اعترف بنبوّة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله من حاخامات اليهود؛ الحاخام الكبير "**نتانئيل الفيومي**" وهذا الرجل توفّيَ في سنة 1165 للميلاد[١]، اعترف بنبوّة النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله في كتابه "حديقة العقول أو بستان العقول"[٢]..

---

١ أي قبل ٩٠٠ سنة.

٢ ص١٠٥

إذن هذه طوائف من اليهود ورجالات من اليهود آمنوا بنبوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، مع أن هذه الطائفة كانت رافضة له بالأصل، كانت معادية له تكذبه وتجحده، فما الذي دعاها بعد مرور زمن لأنّ تؤمن برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله؟ هذا السؤال أبقِه في ذهنك لأنه سيتبين جوابُه في ختام هذا الباب إن شاء اللّه تعالى..

- الطوائف النصرانية المؤمنة بخاتم الأنبياء -

فلننتقل إلى طائفة أخرى وهي "الطائفة النصرانية" كذلك رفضت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ولم تؤمن به ولكن مع هذا يلفتُ انتباهنا أن رجالاً كباراً من قساوسة هذه الطائفة ورهبانها، بعد مرور زمن آمنوا بنبوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، واعترفوا بها، ومن أولئك وحتى لا أرجعكم إلى القديم ارتأيت أن آتي ببعض الاعترافات الحديثة.. هناك قسيس ومستشرق بريطاني كبير ... كان أستاذاً في جامعة إديمبر في سكوتلندا ... هذا الرجل يدعى "William Montgomery Watt" صاحب كتاب

"Muhammad's Mecca: History in the Quran"

وقد توفي هذا الرجل في سنة 2006 عن عمر يناهز 97 عاماً، يقول في كتابه

هذا[1] ما ترجمته، يقول: **أنا شخصياً مقتنعٌ أنّ محمداً كان صادقاً في اعتقاده أن ما جاء إليه هو الوحي، لا أنه اختلاقٌ واعٍ منه..**

لأن بعض المستشرقين وبعض القساوسة النصارى يتهمون خاتم الأنبياء عياذاً بالله بأنه اختلق هذا الدين وهذا الكتاب، كذب على الناس في قوله أنه قد أوحي إليه، لم يوحَى إليه وإنما هذا اختلاقٌ واعٍ منه، فهو عن وعيٍ وإدراك اختلق ذلك، مع أنه يوجَّه سؤالٌ إلى هؤلاء أنه عادة من يختلق ديناً، يختلقه لعلة السيطرة على الناس، لكن كانت أمامه صلى الله عليه وآله طرقٌ أيسر بكثير للسيطرة على الناس، إحداها أن يقبل بما عُرض عليه، تخيلوا أن اليهود عرضوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقبل بتوراتهم وتلمودهم ويوافق على أفكارهم، مقابل أن يسلّموا له ويخضعوا، كان يمكن للنبي صلى الله عليه وآله أن يقبل بهذا العرض ويحقق بذلك السيطرة التي يريدها، فلماذا لم يختر النبي هذا الطريق السهل للسيطرة على الناس؟ وقريش التي كانت من ألدّ أعداء النبي صلى الله عليه وآله عرضت عليه عروضاً مشابهة، قالوا له إذا كففت لسانك عن آلهتنا، سنتركك وشأنك، بل سنجعلك ملكاً علينا، ونزوجك من أحسن نسائنا، ونعطيك المال والجاه، ونجعلك سيدنا، كان هذا العرض أسهل وأيسر بكثير من الحروب الطاحنة والأزمات والصراعات التي واجهها النبي صلى الله عليه وآله.

---

[1] ص ٢٧٨

ومثال آخر؛ قبيلة ثقيف، إذا قرأتم في تاريخ الجاهلية والإسلام، ستعلمون أن قبيلة ثقيف كانت من أشدّ القبائل العربية عناداً، اشتهرت بصلابتها في مواجهة الإسلام فقد كانت آخر قبيلة تُسلِم، هذه القبيلة كانت متمركزة في الطائف، وحتى مع فتح مكة لم تسلم. بل أسلمت بعد فترة من الفتح، خلال فترة ما يُعرف بوفود القبائل العربية التي جاءت لتبايع النبي صلى اللّه عليه وآله، قبيلة ثقيف بقيت كجيبٍ من الشرك في الطائف، ترفض الإسلام وتستمر في عنادها، إلى أن أرسل النبي صلى اللّه عليه وآله جيشاً إلى تبوك لمواجهة الروم، هذا التحرك العسكري أثار مخاوف زعماء العرب ومنهم قبيلة ثقيف، فقد رأوا أن النبي صلى اللّه عليه وآله لديه القدرة على قيادة جيش لمقارعة الإمبراطورية الرومانية العظيمة بذاتها، فقالوا لأنفسهم: "إذا كان قادراً على مواجهة الروم، فما الذي يمكننا فعله نحن؟"

فقرروا أن يتفاوضوا معه، ذهب شيوخ قبيلة ثقيف إلى النبي صلى اللّه عليه وآله، وقالوا له أننا مستعدون لاعتناق الإسلام، ولكن لدينا شروط، قالوا إنهم يريدون حلاً وسطاً. فقالوا: تمهلنا أن نعبد آلهتنا ثلاث سنوات، ثم نرى ما سيحدث، أرادوا أن يتخلوا عن عبادة اللات والعزى تدريجياً، كما طلبوا إعفاءهم من الصلاة، واحد منهم قال: "نريد أن تسقط عنا كل الصلوات" النبي صلى اللّه عليه وآله رفض طبعاً، فقالوا: "إذن، دعها أربع صلوات بدلاً من خمس" رفض النبي مجدداً. طلبوا أن يصلوا بعض الأوقات ويتركوا

البعض الآخر. لكن النبي رفض كل عروضهم، طلبوا من النبي أن يبقي لهم بيت الأصنام في ثقيف، كما كان هناك بيت في مكة. قالوا: "دع لنا هذا البيت، كذكرى تاريخية" وكان الناس يحجون إليه ويطوفون حوله ويعبدون أصنامهم فيه، مثل اللات. لكن النبي صلى الله عليه وآله رفض أيضاً، في النهاية، قالوا: "ما دمتم قد رفضتم كل عروضنا، فنحن لا نجسر على أن نهدم هذا البيت بأنفسنا، فابعث من يهدمه من قبلكم"، وفعلاً أرسل النبي أناساً لهدم بيت الأصنام هذا، ويذكر المؤرخون أن نساء ثقيف كنّ يخرجن من بيوتهن يلطمن وجوههن ويندبن على ما جرى من رزية عظيمة، إن هذا الذي يجري لآلهتنا، وهنا يطرح السؤال: لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وحاشاه - نبياً كاذباً، فهل كان سيقبل بالأذى والمشاكل التي واجهها؟ لو كان هدفه السيطرة، لكان قد قبل بكل العروض التي قدمتها له ثقيف، وقريش، واليهود، والنصارى، وسائر القبائل. لكن تصميم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مبادئ الإسلام بحذافيرها، رغم ما أفضت إليه من صراعات وحروب، لا يمكن تفسيره إلا بإيمانِه الحقيقي برسالته، وأنه لم يختلق هذا الدين، فلو كان مختلقاً، لكان قد تنازل عن بعض مبادئه.

لم يكن صلى الله عليه وآله سياسياً يسعى للتحايل والسيطرة على الناس، بل كان داعياً للإصلاح، يهدف إلى إصلاح الناس وشفائهم. كان طبيباً، كما وصفه مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: "**طبيبٌ دوّارٌ**

بطبّه"[1]، وبسبب وضوح هذا الأمر، لجأ بعض معادي الإسلام، خاصة من النصارى، إلى تفسيرٍ آخر، فقالوا: "نتنازل عن اتهامه بالكذب، لكنه لم يكن نبياً حقيقياً" فكيف فسّروا ذلك؟

قالوا – والعياذ بالله – أنه كان مجنوناً، وأنه كانت تتراءى له أشياء فصدّق نفسه أنه نبي، بل زعم بعضهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مصاباً بالصَرَع، وأنه عندما تأتيه نوبة الصرع، يتخيل أن جبريل عليه السلام يوحي إليه، وبعدما تنتهي النوبة، يُلقي القرآن، تأملوا في هذا التفسير الساذج والتافه! هل من الممكن أن يكون هذا القرآن العظيم، المليء بالحكمة والبلاغة نتيجة نوبات صرع؟! هل يمكن أن تخرج هذه التعاليم العظيمة والشرائع الحكيمة والخطب البليغة من إنسان مصروع؟! يقولون أحياناً: "قد تجري الحكمة على ألسنة المصروعين" قد يحدث ذلك في بعض الحالات النادرة، لكن لا يكون هذا عادة، هل يمكن أن تجد في العالم مصروعاً أو مجنوناً يُظهر الحكمة، ويكون شاعراً أو أديباً أو شجاعاً أو مديراً عظيماً، وله قدرة على تأليف كتاب كالقرآن؟، إذا كان الأمر كذلك، فليذهبوا إلى مستشفى المجانين ويختاروا أحد المصروعين، ويسلموه رئاسة الوزراء في بريطانيا؛ قد يخرج لهم شخص أفضل من بوريس جونسون!، هذا التفسير غير منطقي، ولهذا لاحظوا ما قاله القسيس البريطاني الكبير "William Montgomery Watt"

[1] نهج البلاغة:١٥٦

في كتابه، حيث قال: **أنا شخصياً مقتنعٌ أنّ محمداً كان صادقاً في اعتقاده أن ما جاء إليه هو الوحي، لا أنه اختلاقٌ واعٍ منه**. كان يؤمن بأن ما جاءه هو وحي، ولم يكن ذلك اختلاقاً، ويضيف: " **أنا أعتقد أن محمداً كان حقاً نبياً، وأرى أنه يجب علينا نحن المسيحيون أن نقرّ بذلك بناءً على المبدأ المسيحي: 'من ثمارهم تعرفونهم'**.." فهذا المبدأ يقول إنك تعرف الشخص الصالح من ثماره وأفعاله، وكذلك المتنبئ الصادق من المتنبئ الكاذب.

يقول: فلنطبق هذه القاعدة على رسول الإسلام صلى اللّه عليه وآله وسلم، فتكون النتيجة أن علينا نحن المسيحيين أن نقرّ بنبوة خاتم الأنبياء، **وأرى أنه يجب علينا نحن المسيحيون أن نقرّ بذلك بناءً على المبدأ المسيحي: 'من ثمارهم تعرفونهم'، إذ إنه عبر تاريخ الإسلام أخرج هذا الدين رجالاً صالحين وقدّيسين، إذا كان محمدٌ نبياً، فلنا أن نقول وفق العقيدة المسيحية التي تقرّر أن الروح القدس كلم الأنبياء، أنه من الممكن قَبول الأصل الإلهي للقرآن**، هذا القسيس، رغم أنه ظل متمسكاً بنصرانيته حتى وفاته، كان يؤمن بنبوة محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، بل إن هناك من القساوسة واللاهوتيين النصارى، من دعوا إلى أمر عجب، أعجب مما جاء به هذا القسيس، لم يدعُ فقط قومه النصارى إلى الإيمان برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والإقرار بنبوته، بل دعا الكنيسة الكاثوليكية بأكملها إلى اتباع منهج هذا النبي، تخيلوا هذا الرجل، وهو القسيس الكاثوليكي السويسري "Hans Kung"، الذي لا يزال

حياً، وهو أستاذ في جامعة Tubingen الألمانية. هذا الرجل له كتاب بعنوان *The Quran in Christian-Muslim Dialogue*[1]، يطلق تصريحاً عجيباً ودعوة عجب، حيث يقول: "**إذا كان القرآن يدعو إلى تلخيص الفهم الأصلي لرسالة المسيح، فإن الكنيسة بحاجة إلى أن تعتنق رؤية محمد لتسترجعَ ما غُيِّبَ عنها بفعل تطوّر عقيدتِها تحت تأثير الفلسفة اليونانية**"، فهناك بالفعل أبحاث معمقة وطويلة تثبت تأثير الفلسفة اليونانية – وهي في الأصل فلسفة وثنية – على العقيدة النصرانية المتداولة اليوم، مثالٌ على ذلك: عقيدة التثليث، هذه العقيدة كانت دخيلة على العقيدة النصرانية، لأن الأصل في دعوة المسيح عليه السلام كان التوحيد، فقد كانت ديانته توحيدية، لكن بسبب تأثير الفلسفات والحضارات الأخرى التي اندمجت مع الديانة النصرانية، تغيرت هذه الديانة على مر العصور، ولا تزال تتغير باستمرار وتحمل تصورات جديدة وعقائد جديدة، هذا القسيس السويسري "Hans Kung" رفض هذه الإضافات الدخيلة، وقال: "**علينا أن نطهر العقيدة والكنيسة من هذه الشوائب**" وأضاف: "**يجب علينا أن تعتنق الكنيسة رؤية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.**" **تصوروا لو أن بابا الكنيسة الكاثوليكية ظهر وأعلن قائلاً: "من الآن فصاعداً، نعتنق رؤية محمد صلى الله عليه وآله وسلم."**

[1] ص١٨٥

لماذا؟ لأن القرآن الكريم يلخص الفهم الأصلي لرسالة المسيح عليه السلام، فالقرآن كما هو رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هو أيضاً رسالة عيسى عليه السلام، وهو رسالة موسى عليه السلام، ورسالة داود وسليمان وكل الأنبياء عليهم السلام. إنه الكتاب الذي يحمل الفهم الصحيح لرسالاتهم جميعاً، يقول: "**إذا كان القرآن يدعو إلى تلخيص الفهم الأصلي لرسالة المسيح، فإن الكنيسة بحاجة إلى أن تعتنق رؤية محمد لتسترجعَ ما غُيِّبَ عنها بفعل تطوّر عقيدتِها تحت تأثير الفلسفة اليونانية**"، إنها دعوة خطيرة جداً يطلقها رجل كبير في الديانة المسيحية، يدعو فيها الكنيسة الكاثوليكية لاتباع منهج النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. هذا يدل على شيء واحد: القوة المحمدية التي تخترق حتى الطوائف المعادية، من كان يصدق أن طوائف عُرفت بمعاداتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يظهر منها قساوسة ولاهوتيون يدعون إلى الإقرار بنبوته واتباع منهجه؟ لقد ربى الآباء أبناءهم على رفض هذا النبي وجحده، ومع ذلك نجد أن أبناءهم ينجذبون إليه ولا يستطيعون مقاومته، إنها الاختراقات المحمدية للطوائف المعادية، وهي من آيات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي لا تشبهها آية أخرى، وكما يحدث هذا الاختراق بين غير المسلمين، فإن هناك أيضاً اختراقات علوية داخل الطوائف الإسلامية التي كانت في الأصل معادية للإمام علي عليه السلام. فمثلاً، الطائفة الإباضية، التي أسسها طفل لقيط

من أطفال الخوارج، من رحم الخارجية والشراة والحرورية، تأسست على البراءة من علي عليه السلام، ولكن اليوم نجد من رموزها من يعترف بفضله ويثني عليه، ولا يذكره إلا بقوله "كرم الله وجهه". كيف حدث هذا الاختراق؟ إنه علي عليه السلام.

وطوائف أخرى أيضاً، فالنواصب على تعدد طوائفهم وبلدانهم وأنصارهم، أصبحت تذكر علي عليه السلام بالثناء على المنائر والمنابر، من كان يصدق أن الشام، عاصمة الأمويين، تسمع اليوم فيها على المنابر "أشهد أن علياً ولي الله"؟

إنها اختراقات الحق التي تخترق الباطل دائماً.

الحق قوي ومتين يخترق، والباطل لا يستطيع النفاذ والاختراق إلا إذا وجده ضعاف النفوس فكوّنوا فجوات في الجدار الحصين للأمة. أما إذا كان جسد الأمة قوياً وجدارها حصيناً، فإن الباطل لا يستطيع النفاذ، فمن الذي يدفع قساوسة وأساتذة جامعات، وهم ليسوا من الجهلة، إلى إبداء الإعجاب بشخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والدعوة إلى اتباع منهجه؟ لا يوجد تفسير لذلك إلا أنهم لا يستطيعون مقاومة قوة الحق المحمدي وجاذبية الرسالة المحمدية والقرآن الكريم، آية الآيات ومعجزة المعجزات، لا يستطيع

أحدٌ إن كان صادقًا مع نفسه ومتذوقًا للغة العربية، إلا أن ينجذب إليه، ويشعر بقوته وجماله.

وهنا أنقل لكم كلمة عجيبة جداً تدلّ على مدى هذا الانجذاب اللاإرادي الذي ينجذب به الإنسان إلى هذا القرآن آية محمد صلى الله عليه وآله، بالفعل تصعب المقاومة، لاحظوا هذا الاعتراف وهذه الكلمة العجيبة لرجل يُعتَبر من رموز لبنان.... إنه الأديب والشاعر والسياسي الذي كان مرشحاً لرئاسة الجمهورية اللبنانية في حينه ولكن لظروف ما سحب ترشيحه وهو نصراني الديانة معروف **أمين نخلة** توفي في سنة 1976 وهو بالمناسبة ابن الشاعر الكبير رشيد نخلة الذي ألّف النشيد الوطني اللبناني الذي لا يزال يُتلى إلى اليوم. ينحدر من عائلة مرموقة معروفة نصرانية، وهذا الرجل كان أديباً وشاعراً مفوهاً ومن بلاغته وفصاحته ورقة شعره أن أمير الشعراء أحمد شوقي رشّحه لأن يكون هو أمير الشعراء من بعده، هذا الرجل له كتب ومؤلفات منها كتاب له بعنوان في الهواء الطلق تذكارات ونجاوى هذا الكتاب فيه فصول إحداها فصل بعنوان "**الكتابُ المعجِز**" ويعني به القرآن، يقول:[1] "**ما قرأت في القرآن قَط، وتلقّتني تلك الفصاحة من كل جهة، وشهدتُ ذلك الإعجاز الذي يُطبِقُ العقل إلا صحتُ بنفسي انج ويحكِ فإنني على دين النصرانية**" عبارة أدبية جداً رائعة جداً، يقول لك أنني كلما أقرأ في هذا

[1] ص ١٧٣

القرآن وأكتشف هذه الفصاحة الهائلة، وهذا الإعجاز الذي يطبق العقل، إلا وأجد نفسي تنجذب لا إرادياً لهذه الروعة والمعجزة فأكاد أن أصبح مسلماً، وإذا بي أخاطب نفسي وأبعدها فأقول انجِ ويحكِ فإنني على دين النصرانية!، ابتعد لا تقرأ بالقرآن لن تستطيع مقاومة هذه المعجزة، معجزة محمد صلى اللّه عليه وآله الخالدة، التي بها يخترق القلوب، إذا تعب الإنسان قليلاً وبدأ يتذوق اللغة العربية، ليس المطلوب أكثر من ذلك، فقط أن يكون لديه تذوق للغة ويقرأ القرآن بإنصاف وتجرد عن الهوى، فإنه لن يملك إلا أن يُقرّ بأنه معجزة لا يمكن أن يأتي بها بشر، فالقرآن يجذبك بشكل لا إرادي، هذا الرجل أمين نخلة لم يسلم، لكنه شهد على إعجاز القرآن، وهذا يدل على مدى الاختراق المحمدي للطوائف الأخرى، بآياته صلى اللّه عليه وآله وسلم، ومعجزاته في القرآن، وشخصيته، وسيرته كلها معجزات. حياته كلها محطات من الإعجاز. إنها كلمة اللّه، وعهده ووعده، الذي يظهر لنا أن اللّه سيُظهر هذا الدين (دين محمد صلى اللّه عليه وآله) على الدين كله. يقول تعالى: ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ))

حتى وإن أنكروا وقالوا إنه ساحر أو مجنون، فالأجيال تنجذب إليه شيئاً فشيئاً. إنها **اختراقات محمدية** مستمرة، ثم يذكر القرآن قول عيسى بن مريم عليه السلام: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مبين)[١]، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبينات قالوا: "هذا سحر مبين" إن الذين اتهموه بالسحر هم بنو إسرائيل والنصارى أنفسهم، وليس العرب الوثنيون فقط؛ القرآن يحكي عن ذلك: " فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ"، وهؤلاء هم النصارى واليهود الذين اتهموا النبي بالسحر، رغم البينات الواضحة، (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)[٢].

إن الله هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون والكافرون. ألا ترى أن القرآن يثبت إعجازه بنفسه؟ هذه كلمة قاطعة في القرآن! أن هذا الدين سيخترق ويتمدد حتى يظهر على جميع

---

[١] الصف ٦

[٢] سورة الصف

الأديان.. ومن المدهش أن نرى كيف أن الإسلام يخترق الأديان الأخرى و ينجذب إليه الناس، بل ويدعون قادة ورموز تلك الأديان إلى الاقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

وهذا التمدد الإسلامي مستمر منذ 1400 سنة وحتى يومنا هذا وإلى ما شاء اللّه، إن القرآن قد وعد بظهور الدين الإسلامي على كل الأديان، وهذا وعد اللّه، ولن يتحقق بشكل كامل إلا مع ظهور حفيد النبي الموعود، الإمام المهدي المنتظر صلوات اللّه وسلامه عليه. إلى ذلك الحين، سيتناقص أتباع الأديان الأخرى، ويستمر انتشار دين الإسلام، حتى يخرج الإمام المهدي عجل اللّه فرجه الشريف، ولا يبقى دين في الأرض إلا دين الإسلام، وهذا هو وعد اللّه الحق، كما أنبأ به أنبياؤه، وتحقيق وعود القرآن هو دليل قاطع على أن هذا الكتاب هو من عند اللّه تعالى.

كان الإسلام محصوراً في نطاق المدينة المنورة وما حولها، في عدد قليل من البشر. فكيف انتشر هذا الدين انتشاراً واسعاً إلا إذا كان حقاً؟

كتابنا بعنوان **محمد صلى الله عليه وآله كأن لم تعرفه من قبل**؛ يجعلك تعيد اكتشاف نبيك صلى اللّه عليه وآله من جديد، انظر كيف اخترقت قوته أصلب الجدران المعادية و البيئات المعادية التي وصلها نور محمد صلى اللّه عليه وآله، حتى انشقت طوائف من طوائف لأنها أعلنت عن إقرارها بنبوته، حتى

جاء من جاء مذعناً مقراً معترفاً بنبوته داعياً إليها، حتى جاء من جاء مذعناً بإعجاز قرآنه قائلاً إنه يسحبني لا إرادياً حتى أكاد أسلم فأوقر نفسي وأصيح بها وأقول ويحكِ إنكِ على دين النصرانية.

لمَ كل هذا يحصل؟ لماذا تنتشر الدعوة المحمدية في كل الأرجاء؟ لماذا الإسلام هو أكثر الأديان سرعة وانتشارا في الأرض؟ لأن الله قضى وقدّر لم يختَر هذا النبيّ من فراغ -حاشاه-، كان اختياره لنبي آخر الزمان لخاتم الأنبياء الذي يختم به الأنبياء والرسل، ويجعل شريعته مهيمنة على كل الشرائع، ودينه مهيمناً على كل الأديان، كان ذلك لحكمة واستحقاق وتأهيل، لقد أوحى الله عز وجل بهذا إلى أنبيائه وأمرهم باتباع هذا النبي، الأنبياء السابقون عليهم السلام أُمِرُوا بأن يتبعوا محمد صلى الله عليه وآله وأن يمضوا على هداه وتلك حقيقة غائبة عن كثير من الناس، وهناك حديث قدسي شريف عظيم المضامين، هو عبارة عن التوراة الحقيقية، بل هو الوحي الإلهي الصحيح لموسى عليه السلام، والذي وردنا من طرق أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم. لا التوراة الرائجة اليوم، فهي محرفة ومدخولة ومصنوعة، وتحتوي على الكثير من الترّهات، أما نحن فعلى الأقل هذا المقدار الذي وصلنا من رواياتنا، نستطيع أن نقر ونؤمن أنه الوحي الحقيقي غير المحرّف لموسى الكليم عليه السلام،

قِطَعٌ من هذا الوحي نجدها في أهم كتابٍ حديثي عندنا، وهو كتاب "الكافي" الشريف لثقة الإسلام الكليني، رحمه الله، هناك يروي عن علي ابن عيسى، حديثاً مرفوعاً[1] **قال: إن موسى عليه السلام ناجاه الله تبارك وتعالى فقال له في مناجاته: "يا موسى، لا يطول في الدنيا أملُك، فيقسو لذلك قلبك، وقاسِ القلبِ مني بعيد**"، وذلك لأن الإنسان إذا طالت أمانيه في الدنيا، يبدأ بالتطلع إلى حياة طويلة، فيسعى ويجتهد لأجل الدنيا بلا اكتفاء، وعين ابن آدم لا يشبعها إلا التراب؛ فإذا حصل على مليون، يطلب المليون الثاني، ثم الثالث. حتى من يحكم رقعة جغرافية عظيمة، لنأخذ محمد بن سلمان مثالاً، لا يكتفي؛ يريد مزيداً من السيطرة، يسعى لأن يحكم المزيد من الأراضي، يتطلع إلى الهيمنة على العالم بأسره. فيقال إنه يسعى لشراء أندية رياضية في بريطانيا، ويتساءل البعض: لماذا كل هذا الجشع؟ لا يكتفي أبداً، بل يسعى دائماً للتوسع.

إن طويل الأمل في الدنيا يقسو قلبه، ولاحظوا كيف أن قلوب الحكام قاسية؛ لا يرق لهم قلب وهم يشاهدون الظلم، الطغيان، والتشريد. حتى المجاعات التي تحدث في بلدانهم لا تؤثر فيهم، وكأنهم لا يشعرون بما يجري. ترى الحيوانات أحيانًا أرحم منهم. أما هؤلاء، قلوبهم كالحجارة بل أشد قسوة. وكلما انهمك الإنسان في الدنيا أكثر، كلما ازداد قلبه قسوة. وقساوة القلب

---

[1] ج٨ ص٤٢

تُبعد الإنسان عن طريق اللّٰه تعالى. ثم يقول اللّٰه تعالى في الحديث القدسي: "**أوصيك يا موسى وصية الشفيقِ المشفِق بابن البتول عيسى ابن مريم، صاحب الأتانِ والبُرنُسِ والزيتِ والزيتون والمحراب**" وهذه هي الوصية الأولى التي أوصى اللّٰه بها موسى عليه السلام بعيسى عليه السلام. ورغم عظمة عيسى وجلال مقامه، اكتفى اللّٰه بهذه الجملة في وصفه، لكن عندما يتحدث اللّٰه عز وجل عن محمد صلى اللّٰه عليه وآله وسلم، نلاحظ أن الوصية أكثر تفصيلاً وطولاً. فيقول اللّٰه تعالى: "**ومن بعده بصاحب الجمَل الأحمر الطيب الطاهر المطهَّر**"، ويعني بذلك النبي محمد صلى اللّٰه عليه وآله وسلم. ويقول عنه: "**فمثله في كتابك أنه مؤمنٌ مهيمِنٌ على الكتب كلّها**". وهذا ما قلناه سابقاً، أن اللّٰه عز وجل جعل النبي محمد هو المهيمِن، ودينه هو الدين المهيمن، وكتابه هو الكتاب المهيمن، وشريعته هي الشريعة المهيمنة على كل الشرائع والكتب السماوية السابقة، ثم يقول اللّٰه تعالى: "**وأنه راكعٌ ساجد**"، فالنبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم كان مداومًا على العبادة؛ راكعاً وساجداً، كانت حياته كلها عبادة. ولذا كانت عائشة -لعنها اللّٰه- تضجر من كثرة عبادته، وتريد منه أن يلتفت إليها قليلاً. فكانت تمد رجليها في موضع سجوده وهو يصلي، فيضطر النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم، كلما أراد أن يسجد، إلى غمز رجليها حتى ترفعهما ليتمكن من السجود. انظروا إلى وقاحة هذا التصرف! اللّٰه عز وجل يصف نبيه الكريم بأنه "**راكعٌ ساجد،**

راغبٌ راهب، إخوانُه المساكين، وأنصارُه قوم آخرون، ويكون في زمانه أزْل وزلزالٌ، وقتلٌ، وقلةٌ من المال، اسمه أحمد، محمدٌ الأمين صلى الله عليه وآله وسلم، من الباقين من ثُلّة الأولين الماضين، يؤمنُ بالكتبِ كلها، ويصدّق جميع المرسلين، ويشهد بالإخلاص لجميع النبيين، أمّته مرحومةٌ مباركة، ما بقوا في الدينِ على حقائقه"، شرط بقاء الأمة المباركة هو تمسكها بحقائق الدين. فما معنى حقائق الدين؟ أي التمسك بكل ما هو حق من الدين، وعدم الانجراف وراء الباطل أو المشوب أو المحرف. وما أكثر التحريفات والتزييفات في ديننا اليوم! وهذا هو ما يدفعنا إلى الانفعال والحماس والاجتهاد لإزالة هذه التحريفات والشوائب، والعودة إلى حقائق الدين، هذا هو ما يدفعنا إلى المجاهرة بالبراءة، وإلى الدعوة إليها. لأن البراءة ركنٌ ركين في هذا الدين. دين الله لا يسمح لنا بأن نتولى الظالمين، بل أمرَنا بأن نبرأ منهم. قال الله تعالى: (وَلَا تركَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ))،هكذا أمرنا الدين،..

وقد وجدنا في حياتنا أن بعض من ينتسبون إلى ديننا يتولون بعض الظالمين، فجاهرنا بالبراءة منهم، ودعَونا الناس إلى ذلك، إن دعوتنا إلى البراءة من الظالمين تهدف إلى إعادة الناس إلى حقائق الدين، حتى يرحمهم الله ويبارك لهم. وهذا هو شرط الله عليكم.

لاحظوا في الحديث القدسي "**أمّته مرحومةٌ مباركة، ما بقوا في الدينِ على حقائقه ،لا مطلقاً، لهم ساعات موقّتات يؤدّون فيها الصلوات أداءَ العبدِ إلى سيّده نافلتَه**"، هذه من علامات هذه الأمة المرحومة المباركة، أنّ لها ساعاتٍ موقّتاتٍ يؤدون فيها الصلوات، صلاة العبد أو أداء العبد إلى سيده نافلته، فالذي يتهاون في هذه الساعات -عياذاً بالله- ولا يصلي أو يؤخر صلاته إلى أن ينقضي وقتها ويقضي عمره بقضائها لا أدائها، لا يكون ممن اتصف بأوصاف هذه الأمة المرحومة المباركة على لسان الرب لموسى عليه السلام، فليَنتبه كلٌّ لنفسه، لاحظوا كيف أثنى الله عز وجل على هذا النبيّ الخاتم في وحيه لموسى عليه السلام، وكيف أثنى على أمّته المرحومة المباركة، و ثم أخيراً قال له: "**فبه فصدّق** يا موسى آمرُكَ أن به أي بمحمد صلى الله عليه وآله فصدّق **ومنهاجَه فاتّبع** موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسُل، من خير الرسُل، ولكنه مأمور من الرب أن يتّبع منهاج أبي القاسم صلى الله عليه وآله، هو إمامُهم، محمدٌ إمامُ موسى وعيسى والأنبياء جميعاً **فبِه فصدّق ومنهاجَه فاتّبِع، فإنّه أخوكَ يا موسى، إنه أمّيٌّ** -نسبة إلى أم القرى-، **وهو عبدُ صدقٍ، يُبارَك له فيما وضعَ يدَه عليه** يدُ رسول الله كانت معجزة، كل شيء في هذا النبي معجزة، كان يضع يده على شيء فينطِق، يبرأ إذا كان مريضاً، يحنّ يئنّ، ولكم مثال في قصة جذع النخلة؛ كان نبي الله صلى الله عليه وآله يصعد إلى منبره فيضع يده على هذا الجذع يتكئُ عليه، ومرت

فترة إلى أن النبي صلى اللّه عليه وآله غاب في إحدى الغزوات، فكان يُسمعُ لهذا الجذع أنين، يئن لأنه غاب عنه محمد صلى اللّه عليه وآله، إلى أن رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فوضع يده الشريفة عليه من جديد، فسكن، هذه يدُ محمّد صلى اللّه عليه وآله، يأخذُ حصىً بيدِهِ فيُسمع له التسبيح، كانت الحصى تسبّح بين يديه، يمسُّ عيناً غائرةً فإذا بها تنبع من جديد، هكذا كانت يدُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بركة، قال اللّه عز وجل كما في هذا الحديث القدسي الذي يروى في الكافي الشريف **وهو عبد صدق يُبارَكُ له فيما وضع يده عليه ويُبارَكُ عليه كذلك، كذلكَ كان في علمي، وكذلك خلقْتُه، به أفتحُ الساعة، وبأمّته أختُم مفاتيح الدنيا، فمُرْ يا موسى ظلمةَ بني إسرائيل أن لا يدرسوا اسمه** أي لا يدفنوا ويغيّبوا اسمه؛ الاسم موجودٌ في التوراة، لا تمحوه، **فمُرْ ظَلمة بني إسرائيل أن لا يدرسوا اسمه ولا يخذلوه، وإنهم لفاعلون**، يعني اللّه يعلم بأن بني إسرائيل فاعلون لذلك، سيدرسون اسم النبي و سيمحونه و يخذلونه، لماذا؟ لأنه قد جاءهم بما لا تهوى أنفسهم، ولأنه ليس منهم، بل من بني اسماعيل فحسدوه، اللّهُ عالمٌ بأن هذا سيكون، لكن مع ذلك لإتمام الحجة وتوثيقها وتغليظها يأمر نبيَّه الكليم موسى عليه السلام بأن يأمرَ بني إسرائيل بذلك، حتى تكون الحجة لازمةً وتامة، ثم يقول: **وحبُّه لي حسنة فأنا معَه** أنا مع محمد صلى اللّه عليه وآله، اللّه يقول في وحيِه لموسى، **وأنا من حزبِه** هل تدرك معنى عظمة هذه العبارة؟ اللّه يقول

أنا من حزب محمد صلى الله عليه وآله!، الله تبارك وتعالى!، حتى بعض الناس إذا ادّعو أنهم على منهاج محمد، من حزب محمد، فليراجعوا أنفسهم وليتعظوا قليلاً، دعهم يرتعدون، فهل تعرف ما معنى أن تكون من حزب محمد؟! الله جلَّ وعلا من حزب محمد!، فأنت من حزب محمد حقاً!، متّبعٌ لمحمد صلى الله عليه وآله حقاً؟ على منهاجه حقاً، تجاهر كما جاهر، تكتم كما كتم، تعمل كما عمل، تخطو كما خطا، **فأنا معَه، وأنا من حزبه، وهو من حزبي، وحزبُهمُ الغالبون، فتمّت كلماتي، لأظهرنَّ دينَه على الأديانِ كلِّها**، وهذا هو السر وتفسير هذه التصريحات التي ذكرتُها لكم من قبل، هذه ترجمةٌ لمِا وعدَ الله، أنه سيظهر دينَه وكلماتِه التي أوحى بها إلى محمد صلى الله عليه وآله، سيظهر ذلك على الأديان كلها، **فتمّت كلماتي، لأظهرنَّ دينَه على الأديانِ كلّها، ولأُعبَدَنَّ بكلِّ مكانٍ، ولأُنزِلَنَّ عليهِ قرآناً فُرقاناً شفاءً لما في الصدور** هذا قبل نزول القرآن وقبل ولادة محمد صلى الله عليه وآله أصلاً، الله عزّ وجل هكذا يقول لموسى عليه السلام، هذا هو المستقبل، **ولأُنزِلَنَّ عليهِ قرآناً فُرقاناً** معنى فرقان أي يفرّق ما بين الحقِّ والباطل، **شفاءً لما في الصدور من نفثِ الشيطان، فصلِّ عليه يابنَ عمران، فإنّي أصلّي عليه وملائكتي** تعلّم ابن عمران الدرس الإلهي بتعظيم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، فكان يلهج بذكره قياماً وقعوداً، ويصلي عليه في كل حين، ويبشّر به بني إسرائيل، وما تحققت معجزاتُ موسى إلاّ بذكر هذا النبيّ..

فعندنا في الرواية أن موسى عليه السلام لمّا توجّه ببني إسرائيل إلى البحرِ ضربَ بعصاهُ على البحرِ وقال "بمحمّد وآله الطاهرين" فانفلق البحر!، ما أحظانا بهذا النبي واللّهِ إنه فخرٌ ونعمة، أعظمُ نعمةٍ أن نكون محمديين، أن نُذكر في أمّة هذا النبيّ، فلتكن أفعالُنا مصدّقةً لأقوالِنا، لا نكوننَّ كالآخرين؛ فهناك آخرون يقولون أنهم مسلمون على منهاج محمد صلى اللّه عليه وآله، لكنهم عملاً ليسوا كذلك، فهذا الكتاب فرصة عظيمة للتوبة، لإصلاح النفس، للمراجعة، لأن يعيد الإنسان اكتشاف نبيه، ويقترب أكثر فأكثر إلى هدْيه، فيتوبَ إلى اللّه توبةً نصوحا، ويحاول التأسي بنبيه فكما قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة ما مضمونه: "**فليتأسَّ متأسٍّ بنبيّه، وإلا فلا يأمننَّ الهلَكة**".[1]

[1] ونصّها كما في النّهج "فتأسى متأسٍ بنبيه، نهج البلاغة ج٢ ص٦٠

الفصل الثالث

إيماننا بالمصطفى، إيمان من شاهد لا من سمع!

تقدم معنا في الباب الموسوم **بالاختراقات المحمدية للطوائف المعادية**، أنّ قوّة الحقّ المحمدي كانت بحيث لا يملك أحد ممن أنصف نفسه مقاومتها و مقاومة الانجذاب إليها، ولذا وجدنا أنّ من الطوائف المعادية التي اتخذت منذ اليوم الأول لبعثة النبي الأكرم صلى اللّه عليه و آله موقفاً معادياً له، من انشقَّ عنها وآمن بالنبيّ الأعظم صلى اللّه عليه و آله، وإن لم يكن قد انتقلَ إلى الإسلام.

وهذا أمرٌ عجب، أن تجد طوائف من اليهود، كما عرضنا أقرّوا بنبوة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله، لكنهم بقوا على يهوديتهم المدعاة ولم يسلموا، فما سر هذا الانجذاب إلى شخصية النبيّ الأكرم صلى اللّه عليه و آله؟ قلنا إن ذلك لقوّة حقّه، قوّة آياتِه، والتي في مقدمتها هذه الآية الكبرى، والمعجزة الخالدة؛ القرآن الحكيم، في بحثنا هذا واتصالاً بما سبق، نذكر نموذجناً لأحد أحبار اليهود وعلمائِهم، ممن لم يكتفِ بالإقرار بنبوة خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله مع بقائه على اليهودية، بل تجاوز ذلك إلى حد التخلي عن اليهودية والإيمان بالإسلام و اعتناقه، بل زاد على ذلك أنه ألّف كتاباً ضدّ اليهودية، مع أنه كان منهم، نشأ في بيت عريق من بيوتهم، بيت أحبار، و مع أنه كان عالماً ومرموقاً، وكانت الدنيا قد ابتسمت له من قبل، فلَو أنّه أرادَ هذه الدنيا لكان بإمكانه أن يواصل مسيره فيها، مع احتفاظه بيهوديته، فيبقى جليل القدر عند الطرفين -عند قومه اليهود وحتى عند المسلمين-، لكنّه آثرَ

إلا أن ينـزل علـى الحق وأن يفـضـح ملـة قـومـه ويُـحِـدَّ سـِنـانـه عـلـى الـعـقـيـدة اليهودية، إذ هو خبيرٌ بها، فما قصة هذا الرجل؟!

قصته تثير الإهتمام.. يدعى **صموئيل ابن يهوذا ابن آبون** وكان يعيش في القرن السادس الهجري، ولد في فاس في المغرب وانتقل في البلدان إلى أن توفي في أذربيجان، بعد أن دخل الإسلام تخلّى عن اسمه هذا، مع أن العادة كانت جارية عند اليهود الذين يعيشون في المحيط العربي أن يكون لهم اسمان يعني اسم عبري واسم عربي، فهو مثلا اسم "شموئيل ابن يهوذا ابن آبون" صار اسمه العربي "**السموأل ابن يحيى المغربي**" هكذا[١]، كان هذا الرجل حبراً يهودياً، وإضافة إلى ذلك كان عالماً في الحكمة، والطب، والرياضيات، والهندسة، وله مؤلفات في هذه المجالات، لهذا الرجل كتاب مطبوع حتى يومنا هذا بعنوان "**بذل المجهود في إفحام اليهود**"، تخيلوا أن رجلاً يهودياً يعتنق الإسلام ثم يؤلف كتاباً ضد اليهود ويحمل هذا العنوان الجريء.

إليكم أيها الإخوة الكرام، مقتطفات من هذا الكتاب...

في مقدمته، وهو يعرّف بنفسه وبعائلته، يقول: "**كان يُقال لأبي الرآب يهوذا ابنِ آبون، من مدينة فاس في أقصى المغرب**"، **والرآب يعني الحاخام أو العالم الديني اليهودي، وأن "الرآب" لقبٌ وليس اسم، ويعني "الحبْر"**. وكان يصف

---

[١] هذا الاسم بالمناسبة هو اسم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام

والده بأنه "**وكان أعلمَ أهلِ زمانِه بعلومِ التوراة، وأقدَرهم على التوسّع في الإنشاء والإعجاز والارتجال لمنظوم العبراني و منثوره**"، حيث كان والده بارعاً في نظم الشعر والنثر باللغة العبرية، فكان ينظم وينشئ ويرتجل لشدّة بلاغته، وأضاف: "**وكان اتصاله بأمي ببغداد، وأصلها من البصرة، وهي إحدى الأخَوات الثلاثِ المُنجَباتِ في علوم التوراة والكتابة بالقلم العبري، كانت والدتي من سلالة إسحاق ابن إبراهيم البصري اللاوي، من سبط لاوي الذي ينتمي إليه النبي موسى عليه السلام**".

وهكذا نشأ هذا الرجل في بيت علم، حيث كان والده عالماً كبيراً بالتوراة، ووالدته لها مقام سام في اليهودية والعبرية، وكانت تنحدر من نسل شريف مقدّر عند اليهود، ثم يتحدث عن نفسه بعد أن ذكر مطالعاته المتعددة في الرياضيات والهندسة والحكمة والطب، لأنه كان طبيباً بالمناسبة، ذكر كيف أنه ألف في تصحيح أخطاء بعض هذه الكتب، فكان يستدرك عليها، يقول: "**واتصلتْ تصانيفي في هذه العلوم منذ تلك السنة وإلى الآن، وفتح الله عليّ كثيراً مما ارتجَّ على من سبقني من الحكماء المبرِّزين، فدوّنتُ ذلك لينتفع به من يقعُ إليه في خلال ذلك، ليس لي مكسبٌ إلا بصناعة الطب، وكان لي منها أوفرُ حظ، إذ أعطاني الله من التأييد فيها ما عرفتُ به كلَّ مرض يقبل العلاج من الأمراض التي لا علاج لها**"، يقول أنا كنت أصنف وتصانيفي اتصلت، وفتح الله عليَّ كثيراً مما انقفل على غيري، فدونتُ هذه العلوم،

ويضيف: "فما عالجتُ مريضاً، إلا وعوفي، وما كرهتُ علاج مريض، إلا وعجز عن علاجه سائر الأطباء وكفّوا عن تدبيره، فالحمد لله على جزيل نعمته وعظيم فضله" ثم يقول: "واتضح لي من خلال مطالعتي للكتب التي كتبت في العراق والشام وأذربيجان وغوهستان، الطريق إلى استخراج علوم كثيرة، واختراع أدويةٍ لم أعرف أني سُبِقتُ إليها، مثل الدرقاقِ الذي وسَمتُه "بالمخلِّص ذي القوة النافذة" وهو يبرئُ من عدة أمراضٍ عسيرةٍ في بعضِ يوم وغيره من الأدوية التي ركّبتها، بما فيه منافعُ وشفاء للناس بإذن اللّه تعالى"، كما يذكر: "قبل انشغالي بهذه العلوم، في السن الثانية عشرة والثالثة عشرة، كنت شغوفاً بالأخبار والحكايات، وكنت شديد الحرص على الاطلاع على ما كان في الزمان القديم، والمعرفة بما جرى في القرون الخالية، فطلبتُ الأخبار الصحيحة، فمالت همتي إلى التواريخ، فقرأتُ كتاب 'تجارب الأمم' لأبي علي بن مسكويه، واطلعت على تأريخ الطبري وغيرهما من التواريخ. فكانت تمرُّ بي في هذا التواريخ أخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله، وغزواته، وما أظهر الله له من المعجزات، وما خصّهُ به من الكرامات، وحباهُ به من النصر والتأييد، في غزوة بدرٍ وعزوةِ أحُدٍ وغيرهما، وقصة منشأه في اليُتم والضعف، وكيف نشأ في بيئة قاحلة معرفياً، ويفجّر هذه الثورة المعرفية الحضارية الكبرى"، كلُّ كلمةٍ منه كانت كلمة حكيمة درٌّ من الدرّ، دع عنك القرآن هذا من اللّه تعالى، لكن هو نفسُه، خطاباتُه أحاديثُه أقوالُه أفعالُه سياستُه تدبيرُه،

كيف يمكن أن يصدر كل هذا من شخص يتيمٍ نشأ في بيئة صحراوية قاحلة معرفياً وثقافياً؟

ويمتد تأثيره المهول إلى أقاصي الأرض، أولاً يُحدث تغييراً جذرياً في تلك البيئة، التي كانت أشبه ببيئة الغابة، ليس عندهم غير القتل والنهب والسلب و وأد البنات، ينقلُها من طور إلى طور في بضع سنين، وثمّ بعد ذلك إشعاعات حضارته المحمدية تصل إلى الروم والفرس والحبشة والقبطِ وما جاور ذلك، وتمتد إلى أن تصل الآن إلى كل العالم، العالم كلّهُ مشغول بمحمد صلى الله عليه وآله، هذا أمر يثير العجب والدهشة، تحليل هذه الشخصية بحد ذاته أمر معجز، من ذا يستطيع أن يعرف كنهَ محمد صلى الله عليه وآله، يقول: "**وقصة منشأه في اليتم والضعف ومعاداة أهله له**"، أول من رفع اللواء على النبي صلى الله عليه وآله هم أهلُه، كما عندنا في دعاء زين العابدين عليه السلام في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله في الصحيفة السجادية: "**وحارب في رضاك أسرته**".[1]

هكذا يقول "**ومعاداة أهله له، وإقامته فيما بين أعدائه يجاهدهم بإنكار دينهم عليهم والدعوة إلى دينه مدة طويلة وسنين كثيرة إلى أن أذنِ الله له في الهجرة إلى دارٍ غيرها، وما جرى للأعداء الذين جاهدوه من النكبات**

[1] الصحيفة السجادية الكاملة - الإمام زين العابدين (ع) - الصفحة ٣١

ومصرعهم بين يديه بسيوف أولياءه ببدر وغيرها، وظهور الآية العجيبة في هزيمة الفرس، إلى أن يقول ومع ذلك فإني كنت لكثرة شغفي بأخبار الوزراء والكتاب، قد اكتسبت بكثرة مطالعتي لحكاياتهم وأخبارهم وكلامهم قوة في البلاغة ومعرفة بالفصاحة وكان لي في ذلك ما حمده الفصحاء، وتعجب به البلغاء، وقد يعلم ذلك مني من تأمّل كلامي في بعض الكتب التي ألّفتها في أحد الفنون العلمية، فشاهدتُ المعجزة أية معجزة هذه **فشاهدت المعجزة التي لا تباريها الفصاحة الآدمية** في القرآن **فعلمتُ صحة إعجازه**".

آمن بعدما شاهد لا بعدما سمع! كم عدد المسلمين اليوم الذين ينطبق عليهم هذا الوصف؟ كم منّا نحن المسلمين آمن بالإسلام بناءً على المشاهدة؟ !

أذا سألنا أحدهم: "هل آمنت بالإسلام حقًا؟"، سيجيب: "نعم".

ولكن الحقيقة أن تسعة وتسعين بالمائة، وتسعة أعشار من المسلمين، آمنوا عن طريق السماع فقط. نشأوا في بيوت مسلمة، سمعوا من آبائهم وأمهاتهم عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعن دينه وأحكامه وتعاليمه، فآمنوا على هذا الأساس.

لكن لم يشاهدوا معجزةً بعينهم. حتى عندما يقرأون القرآن، يحفظون بعض الآيات أو السور دون أن يفهموا معانيها، جرّب الآن، اذهب واسأل أي شخص عن سورة "الإخلاص" مثلاً، التي ترددها الألسن كثيراً، واسأله عن معنى "الله

الـــصـــمـــد". غالبًا لن يعرف الجواب، وإن حاول الإجابة سيقول ربما: "الصمد يعني الذي لا جوف له". وربما يورد بعض الروايات من المخالفين أو ما يشابهها، والتي تقول إن "الصمد" يعني الكتلة الصلبة التي لا جوف لها. أما التفسير الصحيح، الذي ورد عن أهل البيت عليهم السلام، فيقول: "الصمد هو الذي يُصمَد إليه ويُتوجَّه إليه". هذا هو معنى "اللّه الصمد". وهكذا مع باقي الآيات.

كثير من المسلمين يتلون القرآن، وبعضهم يستمع إليه، ولكنه في الحقيقة يُعجب بالنغمة أو باللحن أكثر من المضمون. لأنه للأسف، صارت ظاهرة التغني بالقرآن شائعة، خاصة بين القراء المصريين الذين يترنمون بالقرآن بطريقة تجذب الجالسين إلى الإيقاع واللحن، لكنهم لا يدرون ما الذي يُقال، فضلاً عن فهم المعنى، لذلك أغلبنا آمنوا سماعاً لا مشاهدة. لأن الذي يريد أن يشاهد عليه أن يبذل جهداً كبيراً، وأن يتعب على نفسه قليلاً، لا بد أن يكون لديه نصيب من اللغة العربية، والفصاحة، والبلاغة، حتى يتلمس هذه المعجزة.

فهذه المعجزة (القرآن) لا تُلمس بالأيدي، بل بالقلب والعقل. ولا يمكن أن يدركها الشخص إلا إذا كان لديه استعدادٌ وأهلية، عليه أن يجتهد في تعلم

اللغة، ويقرأ القرآن ويتدبره. حينها سيقول: "هذا الكلام لا يشبه كلام البشر، مستحيل، هذا ليس من كلام الآدميين أبداً".

فانظروا إلى ما يقوله هذا الرجل (الحبر اليهودي الذي أسلم)، وكيف اكتسب شغفاً بأخبار الوزراء والكتّاب في العهود العباسية.. حيث كان الوزراء في ذلك الزمان أدباء فصحاء. فلما قرأ كتبهم، تنامت لديه معرفة بالفصاحة والبلاغة، فصار الفصحاء يعترفون ببلاغته. ثم يقول: "**لقد اكتسبت من كثرة مطالعة كلامهم لحكاياتهم وأخبارهم وحكمهم، قوّةً في البلاغة، ومعرفةً بالفصاحة، وكان لي في ذلك ما حمدهُ الفصحاء وتعجب به البلغاء، وقد يعلم ذلك مني من تأمل كلامي في بعض الكتب التي ألفتها في أحد الفنون العلمية فشاهدت نتيجة لهذه القابلية والاستعداد نتيجة لهذا التأهيل العلمي واللغوي المعجزة التي لا تباريها الفصاحة الأدمية في القرآن فعلمت صحة إعجازه** ".

هذه شهادة لا يمكن التشكيك فيها، لأنها صادرة عن رجل لم يكن مسلماً، ولم ينطلق من خلفية إسلامية حتى نقول أنه ميّالٌ إلى الإسلام والقرآن، بل كان يهودياً عالِماً، ومن بيتٍ مليء بالعلم والتدين. لم يكن جاهلاً، ولم يكن من بيئة غير دينية حتى يُقال إن عدم تدينه هو الذي قاده إلى الإسلام. بل كان من أحبار اليهود. فمن الذي دعاه إلى الإسلام؟ ومن الذي جذبه؟ إنها شهادة لا غبار عليها عند العقلاء، انظروا كيف استدل بالعقل على نبوة خاتم

الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، وحاجّ اليهود في كتابه، حيث أنهم يرفضون نبوة خاتم الأنبياء وحتى نبوّة عيسى عليه السلام، يقول: "**إذا نحن حكّمنا العقل على ما نقلناه عن الآباء والأجداد، علِمنا أنّ النقل عن السلف ليس يوجب العقلُ قبولَه من غير امتحان لصحّته، بل بمجرّد كونِه مأخوذاً عن السَلَف**"، هذه قاعدة عقلية صحيحة، وهي أن الأخبار التي نسمعها عن أسلافنا لا يجوز أن نقبلها لمجرد كونها مأخوذة عن السلف، بل ينبغي أن نمتحنها. إذا عرضنا هذه الأخبار على العقل، وتأكدنا من صحتها، عندها فقط نقبلها. وإلا، إذا اكتفينا بالنقل عن السلف، فإن كل ملة ستقول: "آباؤنا وأجدادنا قالوا هذا"، وسنضطر لتصديق جميع الأديان والمِلل في معتقداتها لمجرد أنه منقولٌ عن السلف. وهذا أمرٌ يرفضه العقل، على سبيل المثال، إذا اكتفينا بالنقل، فسنضطر لتصديق النصارى في قولهم إن المسيح ابن الله، وأنه الرازقُ المانعُ الضارُّ النافع، أو تصديق المجوس في إيمانهم بإلهين، إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، أو تصديق الهندوس في معتقداتهم عن الإله ذو الخرطوم أو الإله القرد وغيرهم. لكننا لا نفعل ذلك فهذا كفرٌ محض. لا بد أن نمتحن هذه الأفكار ونقيسها بالعقل، وهكذا دخل هذا الرجل (الحبر اليهودي الذي أسلم) إلى الإيمان عن طريق العقل، وتخلّى عن التقليد الأعمى للأسلاف.. إنها السلفية المقيتة، وهذه مشكلة نواجهها اليوم في محيطنا الإسلامي، حيث يتشبث البعض بما يسمونه "السلفية"، ويعتمدون

على النقل دون إعمال العقل، يقول السلفيون: "نحن على دين السلف"، وهم يسيرون بهذه الطريقة: اللحية الطويلة، والثوب القصير الذي يصل بالكاد إلى الركبة، والسيقان مكشوفة، وهم يحرصون على استخدام السواك بشكل دائم. فترى السواك في أفواههم كل حين، وكأن هذا هو سبيلهم إلى النجاة. كلما تحدثوا تجدهم يرددون "السلف" و"السلف"، معتقدين أنهم يتبعون نهجهم. ولكن، يا ترى، هل هؤلاء السلفيون يوجهون أتباعهم إلى الجنة أم إلى مكان آخر من حيث لا يعلمون؟ أنت قبل أن تسير على هذا الطريق، فكّر قليلاً، وابحث.

هذا الرجل الذي كان يهودياً و أصبح أفضل منك. انظر إلى مدخله السليم إلى الإيمان. لماذا؟ لأنه تعلم. الفرق بينك وبينه هو أنك تتبع تقليداً أعمى، بينما هو رفض التقليد الأعمى. لم يقل: "آبائي وأجدادي"، بل قال: "أنا يهودي، ولكن سأبحث بنفسي وأرى" إذا كان تقليد الآباء والأسلاف يدل على صحة ما نُقل عنهم، فإن ذلك يستلزم الإقرار بصحة ما يقوله النصارى أو المجوس، هذا الرجل يتحدث مع قومه (اليهود)، وكتابه بعنوان "**بذل المجهود في إفحام اليهود**"يقول لهم: "**إذا كان تقليد الآباء والأسلاف يدل على صحة ما نُقل عنهم، فهذا يعني أنه يجب علينا الإقرار بصحة مقالة النصارى والمجوس، وإن كان هذا التقليد لأسلاف اليهود خاصّة دون غيرهم من الأمم**" وإذا قال اليهود: "لا، تقليد آبائنا ليس كغيره؛ لأننا شعب اللّه المختار"، فهنا

يرد عليهم قائلاً: " **وإن كان التقليد لأسلاف اليهود خاصة دون غيرهم من الأمم، فلا يقبل ذلك إلا أن يأتوا بدليل على أن آباءهم كانوا أعقل من آباء الأمم وأسلافهم**"، لكن هذا الدليل مفقود. لأنه لو قلنا إنهم كانوا أعقل، فكان من المفترض أن يكون إخبارهم من باب الخبرة والعقلانية، حيث توصلوا إلى هذه العقيدة من خلال البحث والتحقيق والعقل. ولكن، هل هم أعقل حقاً من آباء بقية الأمم؟ لا بد أن يثبتوا لنا ذلك، وإلا فإن ادعاءهم باطل. يقول: " **إلا أن يأتوا بدليل على أن آباءهم كانوا أعقل من آباء الأمم وأسلافهم، فإن اليهود ادعت ذلك في حق آبائها وأسلافها وجميعُ أخبار أسلافهم ناطقة بتكذيبهم في ذلك**"، انظر إلى القصة المشهورة عن يعقوب عليه السلام عند اليهود، الذي يُقال إنه صارع الله (والعياذ بالله)، ونجح في التغلب عليه، حتى اضطر الله أن يُعطيه النبوة لإرضائه! أي عقل يصدق هذا الهراء؟

كيف يمكن لشخص أن يؤمن بنبوة نبي بسبب مصارعة الله له؟ هذه هي عقيدة اليهود. تروّج القصة أنهم يؤمنون بأن الله قد دخل في مصارعة مع يعقوب، وهذا الأخير تغلّب عليه! واليهود يزعمون أن يعقوب هو إسرائيل، وهو أبو بني إسرائيل، ثم يقول هذا الرجل: "**إن جميع أخبار أسلافهم تنطق بتكذيبهم في ذلك.**" فمن هم هؤلاء العقلاء الذين يدّعونهم بين بني إسرائيل؟ انظر إلى القصة عندما خرج بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام، وبعد أن جفّت أقدامهم من مياه البحر، ماذا فعلوا؟ قالوا: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ

آلِهَةٌ} [1] . سارعوا إلى عبادة العجل الذي صنعه السامري، مع أنهم شاهدوا معجزة عظيمة بأعينهم. حتى أهم ركيزة في ديانة موسى عليه السلام وهي التوحيد، تركوها وعبدوا العجل، وهذا يثبت أن آباءهم لم يكونوا عقلاء. التاريخ يثبت العكس. لذلك يقول: "إن أخبار أسلافهم تنطق بتكذيبهم في هذا الشأن." وهم، بالمناسبة، يحملون هذا العبء، فهم يزعمون أن النبي هارون عليه السلام هو من صنع العجل وعبده! مع أن النبي هارون لم يشرك أبداً بالله. لكن اليهود، مثلهم مثل بعض الطوائف الإسلامية التي لا ترى عصمة الأنبياء، ينسبون إلى الأنبياء المثالب والأخطاء، اليهود يقولون إن النبي هارون هو من صنع العجل. وهذه عقيدتهم. ويقولون أيضاً عن النبي سليمان عليه السلام أنه، لإرضاء زوجاته، سمح بعبادة الأصنام في بيت المقدس! أي أنهم يرون أن أنبياءهم ارتكبوا مثل هذه الأخطاء.

ثم يقول الرجل: "**إذا تركنا التعصب للآباء والأسلاف، فإننا نرى أن آباء اليهود لا يختلفون عن آباء الأمم الأخرى.**" فإذا كانت آراء آباء النصارى والمجوس وغيرهم تنقل الكفر الذي ترفضه العقول وتنفر منه الفطرة السليمة، فلا يُستبعد أن يكون آباء اليهود قد نقلوا نفس الضلال. العقل يحكم بذلك.

---

[1] [الأعراف: 138]

فكما تدعو اليهودي إلى مراجعة ما ورثه من آبائه من عقيدة، يجب على اليهود أيضاً أن يراجعوا ما ورثوه من آبائهم. وعندما تأكد هذا الرجل من أن اليهود لهم أسوةٌ في غيرهم فيما نقلوه عن الآباء والأجداد، علم أنه ليس بأيديهم حجة صحيحة بنبوة موسى عليه السلام إلا **شهادة التواتر** فقط، يعني قوام الإيمان بنبوة موسى عليه السلام عند اليهود بعد التنقيح ليس سوى التواتر، والتواتر هو تفشي الخبر وتناقله من جمع كبير إلى جمع كبير، بحيث يستحيل في العادة أن يتفقوا جميعاً على الكذب.

تقولون جميعاً أنكم تؤمنون بوجود دولة أو بقعة جغرافية تُسمى "موزمبيق"، فليأتِ أحدكم ليُثبت لي ذلك بسند صحيح واحد! أين السند الصحيح، سند صحيح أي رواه عدلٌ إماميٌّ ثقة ضابط: "حدثنا فلان عن فلان عن فلان أنه ذهب إلى موزمبيق، ورآها بأم عينه، ثم عاد وقال لنا: هذه هي الدولة المسماة موزمبيق"، حتى نصدق؟ كيف لنا أن نعلم بوجودها؟

أنتم جميعاً تؤمنون بوجود "موزمبيق"، فما الذي يجعلكم تصدقون؟ تقولون: "تواتر الخبر". التواتر يعني أن عدداً كبيراً من الناس قد نقلوا هذا الخبر، ويستحيل أن يكونوا جميعاً قد اتفقوا على الكذب، خاصةً إذا لم يكن بينهم رابط أو مصلحة مشتركة. إذاً، بالفعل هناك دولة تُسمى "موزمبيق". الشاهد على صحة وجود موزمبيق هو التواتر. التواتر بذاته حُجة، حتى وإن كان بعض الناقلين غير ثقات، أو كانوا غير مسلمين.

وهنا يأتي السموأل ليقول: "إن نبوة موسى عليه السلام ليس عليها حُجة سوى التواتر" التواتر هو نقل الخبر بشكل مستفيض. وهذا النقل بالتواتر، فوفقًا لهذا القول، يقول:"**وهذا التواترُ موجودٌ لعيسى ومحمد كوجوده لموسى عليهم السلام أجمعين**"، فما الفرق إذًا؟ إذا كنتَ تؤمن بنبوة موسى بسبب التواتر، فإن التواتر نفسه موجود لعيسى عليه السلام، فلماذا ترفضه ولا تؤمن به؟ والتواتر موجود أيضاً لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم. فلماذا لا تؤمن به؟ "**فإن كان التواتر يفيد تصديقاً، فالثلاثة صادقون ونبوتهم معاً صحيحة**" (موسى، وعيسى، ومحمد) جميعهم أنبياء صادقون. "**وعلمتُ أيضاً أني لم أرَ موسى بعيني، ولم أشاهد معجزاته ولا معجزات غيره من الأنبياء عليهم السلام، ولولا النقل وتقليد الناقلين لما عرفنا شيئاً من ذلك**"، مَن مِن اليهود شاهد معجزات موسى عليه السلام؟ من منهم رأى العصا وهي تتحول إلى ثعبان؟ لا أحد. إذًا، كيف آمنوا بهذه المعجزات؟ عن طريق التواتر. الناقلون نقلوا لنا: "نعم، كان لموسى عصا، وكان يضرب بها الحجر والبحر، وكان يفعل بها كذا وكذا"، "**فعلمتُ أنه لا يجوز للعاقل أن يصدق بنبي ويكذّب بآخر من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام؛ لأنه لم يرَ أحدهم، ولا شاهد أحواله، إلا بالنقل؛ وشهادة التواتر موجودة لثلاثتهم، فليس من العقل ولا الحكمة أن يُصَدّقَ أحدهم ويُكذَّبَ الباقون، فالواجب عقلاً إما تصديق الكل أو تكذيب الكل**"، فالتواتر الذي يشهد لموسى عليه السلام وآياته، هو نفسه الذي يشهد

لعيسى عليه السلام وآياته، وهو نفسه الذي يشهد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وآياته.

ولذلك، ليس من العقل ولا من الحكمة أن يُصدّق أحد هؤلاء الأنبياء ويكذّب الآخرين. بل الواجب عقلاً إما تصديق الجميع أو تكذيب الجميع، "**فأما تكذيب الكل، فإن العقل لا يوجبه أيضاً، لأنّا إنما نجدهم قد أتوا بمكارم الأخلاق، وحثوا على الفضائل، ونهوا عن الرذائل، وساسوا العالم بسياسة بها صلاحُ حال أهله، فصحَّ عندي بالدليل القاطع نبوة المسيح والمصطفى صلى الله عليه وآله وآمنت بهما، فمكثتُ برهةً أعتقدُ ذلك من غير أن ألتزم الفرائض الإسلامية مراقبةً لأبي، وذلك أنه كان شديد الحب لي، قليل الصبرِ عني، كثير البرِّ بي، وكان قد أحسن تربيتي**".

كان أبوه حاخاماً كبيراً، من كبار أحبار اليهود، وكان شديد الحب له، قليل الصبر عن فراقه، كثير البر به. أحسن تربيته، وهذا ما يُقوي شهادته ويُضفي عليها مزيدًا من المصداقية؛ لأنه لا يمُكن أن يُقال إنه بدل دينه بسبب سوء معاملة أبيه له، كما يحدث مع بعض الناس الذين يتخلون عن دين آبائهم بسبب مشاكل معهم.

فبعض الناس للأسف، يغيرون دينهم بسبب معاملة سيئة من آبائهم، أو بسبب مشاكل مع أزواجهم... وقد حدثت أمامنا حالة مشابهة:

كان هناك شخص من إحدى البلاد الأوروبية، أعلن إسلامه عندنا، ولازمنا فترة من الزمن، وبدأ بالصلاة وتحسّن إسلامه. ثم تزوج من عائلة مسلمة شيعية رافضية، وكانت هذه رغبته. ولكن بعد السنة الأولى من الزواج، اشتعلت المشاكل بينه وبين زوجته، وتفاقمت، حتى انتهى به الأمر إلى الطلاق. وبدلاً من أن يبقى على دينه، طلق الدين مع زوجته، وعاد إلى النصرانية، من هو المذنب؟ هل هي الزوجة أم هو؟ اللّه أعلم. ربما كانت الزوجة هي المذنبة، وربما كان هو. ولكن ما علاقة الدين بتصرفات الأفراد؟ لماذا يُعاقب الدين بسبب أخطاء الآخرين؟ للأسف، بعض الناس يظنون أن مشاكلهم الشخصية تُبرر ترك دينهم، ولكن في حالة هذا الرجل اليهودي، لا يمُكن القول إنه غير دينه بسبب معاملة سيئة من أبيه. بل على العكس، كان أبوه كثير البر به، وربّاه تربية حسنة، ودللّه إلى أقصى حد.

يقول: "**وكان قد أحسن تربيتي، إذ شغلني منذ أول حداثتي بالعلوم البرهانية، وربّى ذهني وخاطري في الحساب والهندسة، العلمين اللذين مدح أفلاطون عقل من يتربى ذهنه على النظر فيهما. فمكثت مدة طويلة لا يفتح علي وجه الهداية، ولا تنحل عني هذه الشبهة، وهي مراقبة أبي**"، هذه كانت نقطة ضعفه، حيث لم يكن يستطيع أن يسلم إسلاماً كاملاً ويلتزم بالفرائض ويُعلن إسلامه بسبب مراقبته لأبيه، أي أنه كان يرغب في إرضاء أبيه، فيقول: "**إلى أن حالت الأسفار بيني وبينه، وبَعُدت داري عن داره، وأنا مقيمٌ على مراقبته**

والتذمم من أن أفجعه بنفسي"، حيث سافر وترك المغرب، وبدأ بالتنقل بين البلدان، فذهب إلى العراق، ثم إلى فارس، ثم إلى أذربيجان، وهناك توفي. وقد تباعدت داري عن داره، وأنا لا أزال مراقبًا له، مترددًا في أن أُفجعه بنفسي، فلا أريد أن أكتب له رسالة وأقول له: "لقد أسلمت"، فيُصاب بصدمة أو مرض، وربما يموت بسبب ذلك، بعد أن تعب عليّ كثيراً وربّاني في بيت علم وعلماء، فأقول لنفسي: كيف أُصدمه بهذه الطريقة؟"، هذا هو السبب الذي منعه من إسلام كامل حتى حصلت له حادثة عجيبة، فيها دلالة عظيمة. يقول: "**وحان وقت الهداية، وجاءتني الموعظة الإلهية برؤيتي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام**، يقول: "**كانت ليلة الجمعة، -بتاريخ محدد بدقة- ليلة الجمعة التاسعة من ذي الحجة**، سنة 558 هـ، **وكان ذلك في مراغة من آذربيجان**". ثم يقول: "**وهذا شرح ما رأيت: رأيتُ كأني في صحراء فيحاء مخضرّة الأرجاء، يلوح من شرقيِّها شجرةٌ عظيمة، والناس يهرعون إلى تلك الشجرة، فسألت بعضهم عن حال الناس، فقال: إن تحت الشجرة نبي الله شموئيل، -وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل عليه السلام على اسم هذا الرجل-، جالسٌ والناس يسلمون عليه**"، يقول: "**سررت بما سمعته، فقصدتُ الشجرة، ووجدت في ظلها شيخاً جسيماً، بهيّاً، وقوراً، شديد بياض الشعر، عظيم الهيبة، بيده كتاب ينظر فيه، فسلّمتُ عليه وقلت بلسان عربي: "السلام عليك يا نبي الله". فالتفت إليّ مبتسماً، وهشّ إلي وقال: "وعليك السلام يا**

شريكنا في الاسم"، ثم قال: "اجلس لنعرض عليك أمراً"، فجلستُ بين يديه، فدفعَ إليَّ الكتاب الذي بيده، وقال: "اقرأ ما تجده بين يديك"، فوجدت بين يدي هذه الآية من التوراة بما تفسيره: (نَبِيّاً أُقِيمُ لَهُمْ مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، بِهِ فَلْيُؤْمِنوا) وهذه مناجاة من الله عز وجل لموسى، وكنت أعلم أن اليهود يقولون إن هذه الآية نزلت في حقِّ شموئيل النبي عليه السلام، لأنه كان مثل موسى -أي من سبط لاوي-، وهو السبط الذي جاء منه موسى عليه السلام، فلما وجدتُ بين يديَّ هذه الآية من التوراة وقرأتُها وظننت أنه -أي شموئيل- يذهب إلى الافتخار بأن الله ذكره في التوراة وبشّر به موسى عليه السلام، فقلت له: هنيئاً لك يا نبي الله، ما خصك الله به من هذه المنزلة، وما ورد في التوراة من بشارة موسى عليه السلام بك"، العجيب هو رد فعل شموئيل النبي، إذ نظر إليّ مغضَباً وقال: "أوَئِيّايَ أراد الله بهذا؟، يا ذكياً ما أفادتك إذاً البراهين الهندسية، فقلتُ: "يا نبي الله، فمن أراد الله بهذا؟"، فقال: "الذي أراد به في قولهِ هو -فيع ميهار فاران- وتفسيره إشارة إلى نبوة وعد بنزولها على جبال فاران، فلما قال لي ذلك عرفتُ أنه يعني المصطفى" كيف؟ قال: "لأنه المبعوث من جبال فاران، وهي جبال مكة، لأن التوراة ناطقةٌ نصاً بأن فاران مسكن آل إسماعيل عليه السلام، وذلك قول التوراة (ويشب بمد نار فاران)، تفسيره: وأقام في بريّة فاران يعني إسماعيل ولد إبراهيم الخليل عليهما السلام"

التوراة تقول أن اسماعيل وذريته سكنوا في فاران، والتوراة تذكر بشارة من الله عز وجل لموسى أنه سيأتي نبي من جبال فاران به فليؤمنوا وبشر به يا موسى، إنه المصطفى عليه وآله أفضل الصلاة والسلام، شموئيل ليس في فاران ولا من ذرية اسماعيل عليه السلام، بل هو من ذرية يعقوب ومن أسباط لاوي، ثم يقول: "**ثم إنه عاد والتفت إليَّ وقال -أي شموئيل-: ثم "أوَما علمت أن الله لم يبعثني بنسخ شيء من التوراة، وإنما بعثني لأذكّرهم -بني إسرائيل- بها وأحيي شرائعها، وأخلصهم من أهل فلسطين؟**"، **فقلت: "بلى يا نبي الله"، قال: "فأي حاجة لهم إلى أن يوصيهم ربهم باتباع من لم ينسخ دينهم، ولم يغير شريعتهم؟ أرأيتهم احتاجوا إلى أن يوصيهم بقبول نبوة دانيال أو أرميا أو حزقيل؟"، فقلت: "لا، لعمري، لم يحتج إلى ذلك"** . يقول أنا نبوتي نبوة خاصة، مكلف بمهمة محددة، وهي تخليص بني إسرائيل من الجبارين الظالمين، وأن أرشدهم وأحيي شرائع التوراة فقط. لست بناسخ، فلماذا إذًا عليهم اتباع من لم ينسخ دينهم؟ فالنبوة التي يتوجب عليهم اتباعها هي نبوة موسى عليه السلام، أما هؤلاء (الأنبياء الآخرون) فيعتبرون أوصياء يحفظون دينه، أما سياق هذه الآيات التي تتحدث عن النبي الذي يخرج من فاران، وما توجب اتباعه من ناحية النسخ لما سبق وإبطاله، والاستئناف الجديد، فأما نبي كحزقيل، وكإرميا، وكدانيال، أنبياء بني إسرائيل من أصحاب الوظائف المحدودة بالقياس إلى وظائف أنبياء أولي العزم من

الرسل، "**ثم أخذ المصحف من يدي وانصرف مغضَباً، فارتعدت لغضبه وازدجرت لموعظته، واستيقظت مذعوراً، فجلست وكان وقت السحر، والمصباح يتّقد في غاية استنارته، فتذكرت المنام جميعه، فإذا أنا قد تخيلتُه لا يذهب عني منه شيء، فعلمت أن هذا لطفٌ من الله سبحانه وتعالى وموعظة لإزالة الشبهة التي كانت تمنعني من إعلان كلمة الحق والتظاهر بالإسلام**"

كانت رسالة من الله، رأيت فيها النبي شموئيل عليه السلام، وغضبه مني بهذا الغضب. ففسرت المنام بهذا التفسير، وتبت إلى الله من ذلك، واستغفرته، وأكثرت من الصلاة على رسول الله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يسترسل في تفاصيل أخرى لا يتسع الوقت لذكرها بالكامل، ولكن منها أنه وفقه الله عز وجل لرؤية المصطفى صلى الله عليه وآله في منامه، وأخذ بيده وأرشده. عندها أسلم الرجل وأعلن إسلامه وبدأ يلتزم بالفرائض الإسلامية.

أما النقطة الهامة التي تطرق لها[١]، فهي حينما كان يتحاجج مع قومه من اليهود. يقول: "**كنا نقول لهم: "ما قولكم في عيسى بن مريم عليهما السلام؟"، فيردون:** نعوذ بالله! ناقل الكفر ليس بكافر! "**إنه ولد يوسف النجار سِفَاحاً!**" (نعوذ بالله من هذا القول)، "**كان قد عرف اسم الله الأعظم، يسخّر**

---

[١] في صفحة 103 من كتابه

به كثيراً من الأشياء"، يتهم اليهود السيدة مريم العذراء عليها السلام بأنها زنى بها يوسف النجار، وأن عيسى عليه السلام ولد سِفَاحاً، ولا يقرون بأنه وُلد من غير أب، بل يرمونها بالفاحشة (والعياذ بالله)، ثم يسألهم عن الآيات والمعجزات التي ظهرت على يد عيسى عليه السلام، فيجيبون ببساطة قائلين: "لقد تعلم اسم الله الأعظم، وهذه كلها كانت مجرد فهلوة أو شعوذة"، "**ويقولون: كان قد عرف اسم الله الأعظم، يسخّر به كثيراً من الأشياء**" فنقول لهم: "**أليس عندكم في أصح نقلكم أن موسى عليه السلام قد أطلعه الله على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفًا؟**"، الاسم الأعظم في رواياتهم يتألف من 42 حرفاً، بينما في رواياتنا يتألف من 73 حرفاً، 72 منها عند نبينا محمد وآله عليهم السلام، وبعضها كان عند الأنبياء، وعيسى عليه السلام كان عنده حرفان فقط من هذا الاسم الأعظم، وبهما كان يشفي الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، أما نبينا وآله عليهم السلام فلديهم 72 حرفاً، وحرف واحد استأثر الله به، فلا يعلمه أحد، والحرف هنا لا يعني حرفاً من حروف اللغة مثل الألف أو الباء، بل هو بمعنى صوت تكويني خاص، قد يتألف من حرف أو كلمة أو جملة، وهو رمز إلهي، وإذا نطق به من يعرفه فإنه يتصرف بالكون، كأنه "كلمة مرور" تكوينية، فإذا كان موسى عليه السلام لديه هذا الاسم الأعظم المركب من 42 حرفاً، وبه شق البحر وعمل المعجزات، فلا يستطيعون إنكار ذلك، "**فنقول لهم: فإذا كان موسى عليه السلام قد عمل المعجزات**

بأسماء الله، فلمَ صدّقتم بنبوته وكذبتم بنبوة عيسى عليه السلام؟"، فأنتم تقولون إن الاثنين كان عندهما الاسم الأعظم. فلماذا يكون موسى نبيًا وعيسى لا؟ فيجيبون بجواب سخيف: "**فيقولون: لأن الله علم موسى الأسماء، وعيسى لم يتعلمها من الوحي لكنه تعلمها من حيطان بيت المقدس**"، جواب سخيف وتافه يدل على مدى ضحالة الفكر اليهودي، كيف يقولون إن عيسى تعلم الاسم الأعظم من الحيطان؟ فلو كان مكتوباً على الحيطان، لأصبح أي شخص يمكنه قراءته ويتصرف بالكون!، "**فنقول لهم: فإذا كان الأمر الذي يُتَوَصَّلُ به إلى عمل المعجزات، يصل إليه من لا يختصه الله به، ولا يريد تعليمهُ إياه، فبأيِّ شيءٍ جاز تصديق موسى، فيردون: لأن موسى أخذه عن ربه" فنقول لهم: وكيف عرفتم أن موسى أخذه عن ربه؟، فيقولون: بما تواتر من أخبار أسلافنا، وأيضاً فإنّا نُلجئهم إلى نقل أسلافهم، بأن نقول لهم: "بماذا عرفتم نبوة موسى؟، فإن قالوا: بما عمله من المعجزات، قلنا لهم: وهل فيكم من رأى تلك المعجزات؟**" وهكذا يظلون في دوامة لا مخرج لهم منها، واستدلالهم يظل دائمًا غير مكتمل، ولذلك يقول: "**ليس هذا لعمري طريقًا لتصديق النبوات؛ لأن هذا كان يلزم منه أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام باقية بعدهم، ليراها كل جيل فيؤمنُ بها، وليس ذلك بواجب، لأنه إذا اشتهر النبي في عصره، وصحّت نبوته في ذلك العصر بالمعجزات التي ظهرت منه لأهل عصره، ووصل خبره إلى أهل عصر آخر، وجب عليهم تصديق نبوته**

واتباعه، وذلك لأن المتواترات والمشهورات مما يجب قبولها في العقل، وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله عليهم وسلامه، في هذا الأمر متساوون، ولعل تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأن شهادة المسلمين والنصارى بنبوة موسى ليست إلا بسبب أن كتابيهما شهدا له بذلك. فتصديقهم بنبوة موسى فرع عن تصديقهم بكتابهم"، وبالعودة إلى القرآن، فإن القرآن أثبت نبوة موسى، وتصديقنا بالقرآن قادنا إلى تصديق نبوة موسى عليه السلام. فهل آمنّا بعيسى عليه السلام بناءً على شهادة النصارى؟، هذه الشهادة ليست ذات وزن قوي ما لم تعتمد على شهادة القرآن!، فتصديقنا بالقرآن هو الذي قادنا إلى التصديق بنبوة عيسى عليه السلام، ولهذا يكون التواتر المنقول عند المسلمين وعند النصارى في تصديقهم بنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أقوى تواتراً من تصديق اليهود بنبوة موسى عليه السلام، وأما معجزة القرآن، وهذا هو بيت القصيد، "**وأما معجزة القرآن، فإنها وإن كانت باقية، فتلك فضيلة زائدة، لا يحتاج إلى كونها سبب الإيمان**" لأن التواتر في حد ذاته كافٍ، بناءً على المقاييس المعروفة عند الموحدين وأتباع الأنبياء من أصحاب الديانات الإبراهيمية. فكما لدينا تواتر في تصديق نبوة موسى، هناك تواتر أقوى في تصديق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونبوة عيسى عليه السلام. وأما القرآن فهو زيادة على ذلك، ثم يوضح فيقول: "**فأما من أُعطيَ**

ذوق الفصاحة، فإن إيمانه بإعجاز القرآن هو إيمان من شاهدَ المعجزة، لا من اعتمد على الخبر، " إنه إيمان من شاهد المعجزة، لا من سمع عنها فحسب واعتمد على النقل " **إلا أن هذه درجةٌ لم يرسُخ بها كلٌّ واحد**" لكن هذه الدرجة لم يصل إليها كل الناس، إذ ليس كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قد شاهد المعجزات، بل الغالب آمن بالسماع لا بالمشاهدة، وهذه نقطة محورية يجب ألا تفوتنا. إن هذا الرجل (الذي أسلم) إنما انجذب إلى الإيمان والإسلام لأنه تذوق الفصاحة والبلاغة. لولا تذوقه للفصاحة والبلاغة لما انجذب إلى معجزة القرآن الحكيم.

إن الأمر يحتاج منك إلى شيء من الجهد؛ جهد التعلم وجهد التذوق، أن تتذوق الفصاحة والبلاغة أكثر، وتفهم هذه اللغة بعمق. حينها تكون كمن رأى وعاين، لا كمن سمع فقط. تأمل في عبارته حين يقول: "**فأما من أُعطي ذوق الفصاحة، فإن إيمانه بإعجاز القرآن هو إيمان من شاهد المعجزة، لا من اعتمد على الخبر**". هذا هو ما يفترض أن يميزنا نحن المسلمين؛ فنحن الأمة الوحيدة التي آمنت بنبيها لأنها شاهدت معجزته، معجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حية باقية إلى اليوم، وهي هذه المعجزة (القرآن)، وكل شخص في هذا الزمان يمكنه أن يراها. وكل ما هو مطلوب منه بعض المقدمات. لنأخذ مثلاً شخصاً يابانياً لا يعرف اللغة العربية، كيف يؤمن؟ نعلمه اللغة العربية. وإذا تعلم اللغة العربية، وقارن هذا الكتاب (القرآن) بأي

كتاب آخر في الدنيا .... سواء أكان من أعظم المقطوعات البلاغية الشعرية والنثرية، أو من أعظم النصوص الأدبية والعلمية، فإنه سيجد لهذا الكلام ميزة لا توجد في تلك النصوص والمقطوعات، يجد في داخله شعوراً بأن هذا الكلام ليس كلام البشر.

الأمر لا يتطلب إلا قليلاً من التعلم، ومن ثم سيتذوق اللغة والفصاحة، وهذه المؤونة متيسرة لكل أحد. من السهل الآن تعلم اللغة العربية بفضل التكنولوجيا الحديثة والإنترنت. يمكن لأي شخص، حتى لو كان يابانياً، أن يتعلم اللغة العربية في غضون ثلاث أو أربع سنوات على الأكثر. وإذا كان مجدّاً ومجتهداً، سيتعلم اللغة مع شيء من الفصاحة والبلاغة، وحينها سيبدأ تذوقها، اللغة العربية نفسها تجذب من يغوص فيها قليلاً؛ فهي لغة البيان، وفي الحديث: "**إن من البيان لسحراً**" اللغة تملك جاذبية مغناطيسية تجذبك إليها. فإذا ما تعمقت في اللغة العربية، ستجد نفسك مغرماً بالشعر، والنثر، والنصوص الأدبية. وعندها، إذا كنت منصفاً مع نفسك، ستجد القرآن يجذبك أكثر وأكثر، إلى أن تصل إلى أحد أمرين: إما أن تصبح مثل شموئيل وأصبح السموأل ابن يحيى المغربي الذي أسلم وكتب هذا الكتاب، أو مثل أمين نخلة النصراني الشاعر السياسي، الذي كان مرشحاً لرئاسة الجمهورية اللبنانية، ذي اعترف قائلاً: "**كلما قرأت في القرآن، وتلقتني فصاحته وبلاغته، إلا صحتُ بنفسي: يا نفسُ، ويحكِ! انجِ! إنكِ على دين النصرانية**"، كلما

طالع القرآن، حاول أن يُخرج نفسه من تأثيره خوفاً من أن يتحول إلى الإسلام. وهذا كل المطلوب منك: أن تخرج من نطاق لغتك وثقافتك المحدودة، وتدخل إلى ساحة اللغة العربية وبلاغة العرب، وتقرأ القرآن. حتى أنت أيها العربي، فإن عرب هذا الزمان ليسوا كالعرب الأصليين.

عرب هذا الزمان يتحدثون لغات مختلطة، بين الهندية والفارسية والتركية والإنجليزية، ولغتهم أصبحت مزيجاً من هذه اللغات، فكيف يتذوقون البلاغة الحقيقية؟، هذه القصة رواها نجم عبد الكريم، الإعلامي المعروف، وهو كويتي من أصول عراقية.

يقول إنه في أيام الوحدة العربية والقومية العربية، كانت هناك محاولات لتحقيق اتحاد بين مصر وسوريا والعراق. في هذا السياق، قام التلفزيون المصري بإعداد برنامج استضاف فيه شخصيات إعلامية من تلك الدول، واجتمعوا حول طاولة واحدة ليُظهروا أن العرب أمة واحدة، لهم لغة واحدة، ثقافة واحدة، ورسالة واحدة. كان ذلك في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وفي ذلك اللقاء، طلب المذيع المصري من مذيعة عراقية أن يثبتوا للجمهور أنهم أمة واحدة، ولهم لغة واحدة، فاقترح أن يقول جملة باللهجة المصرية، وأن تعيدها هي باللهجة العراقية. الجملة التي قالها لم يتذكرها نجم عبد الكريم بدقة، ولكن مضمونها كان: "ذهبت مع مجموعة من أصدقائي وجلسنا حول الطربيزة وشربنا كذا". المذيعة العراقية حاولت أن تعيد الجملة باللهجة

العراقية وقالت: "ذهبت مع جماعة من أصحابي وجلسنا على الميز وجبنا السكمليات وشربنا كذا". وهكذا، كانت الكلمات مختلفة تماماً، ثم قال المذيع المصري: "ألم أقل لكم أننا لغة واحدة؟"، ولكن، كما أشار نجم عبد الكريم، نحن للأسف هجرنا لغتنا الموحدة وثقافتنا المشتركة، وأصبحت كل مجموعة تتحدث بلهجتها الخاصة حتى أننا أحياناً لا نفهم بعضنا البعض.

مثلاً، عندما يتحدث شخص مغربي، تحتاج في بعض الأحيان إلى مترجم لفهم كلامه. هذا البعد عن اللغة العربية الفصحى هو السبب.

- ومن الطرائف، أن رجلاً عراقياً ذهب إلى الكويت، وعندما عاد، سأله أحدهم: "ما هو أكثر ما أثار انتباهك في الكويت؟" فأجاب: "الشيء الوحيد الذي لفت نظري هو أن الكويتيين يعرفون أسماء جميع الأنبياء الـ124 ألفاً!". فسألوه: "كيف ذلك؟"، فأجاب: "سمعتهم يقولون: نبي خبز، نبي ماي، نبي نروح...". (وهو يشير بذلك إلى استخدام الكويتيين لكلمة "نبي" بمعنى "أريد").

النقطة المهمة هنا أن الإنسان بحاجة إلى أن يخرج من بوتقته الضيقة، ويتعلم اللغة العربية الفصحى. كثير من العرب اليوم لا يعرفون كيف يتحدثون أو يكتبون بالعربية الصحيحة. وهذه اللغة هي لغة القرآن، وهي اللغة التي سيتحدث بها أهل الجنة، كما جاء في بعض الأحاديث. فمن يحبس نفسه عن

هذه اللغة لا يمكنه أن يشاهد المعجزة. وبالتالي، إيمانه بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يكون كإيمان من سمع فقط، لا كإيمان من رأى وشاهد المعجزة بنفسه، نحن المسلمون، إذا كنا ندعي أننا مؤمنون حقاً، يجب أن نرفع رؤوسنا دائماً ونقول: "ما كان إيماننا بالنبي محمد صلى الله عليه وآله كإيمان بقية الأمم بأنبيائها". نحن آمنا به إيمان من شاهد ورأى، لا من سمع ونقل إليه. ومن العجيب أن هناك من لم يكن عربياً ولا مسلماً، ولكنه عندما تعلم اللغة العربية وتذوق فصاحتها وبلاغتها، أدرك بديهةً أن القرآن ليس من تأليف محمد صلى الله عليه وآله، بل هو كلام إلهي.

وهناك الكثير من القصص التي تدعم هذا.

من بين هؤلاء، المستشرق والشاعرُ الفرنسي الكبير **جوزيف شارل مارد روس**، الذي توفي عام 1949. هذا الرجل كانت مهمته الأصلية المكلَّفُ بها من وزارة الخارجية والمعارف الفرنسية أن يترجم 62 سورة من السور الطوال في القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية. ولكنه أثناء ترجمته للقرآن، أخذته بلاغة القرآن وسحره، فكتب في مقدمة ترجمته الفرنسية ما يعبر عن دهشته من روعة أسلوب القرآن، واعترف بإلهية هذا الأسلوب،[1] قال: "**أسلوب القرآن هو**

[1] في الصفحة 19 من مقدمته

الأسلوب الخاص بالله، وبما أن الأسلوب يمثل جوهر الكائن الذي صدر عنه، فإنه لا يمكن أن يكون هذا الأسلوب إلا إلهياً"

كل أسلوب يستعمله إنسان يعبر عن جوهره، ولكن الأسلوب الموجود في القرآن لا يمكن أن يكون بشرياً، بل هو إلهي، والحقُّ الواقع هو أن أكثر الكتّاب والمفكرين شكاً وارتياباً في القرآن، خضعوا لسلطان تأثيره، مثل هذا الرجل الفرنسي الذي كان مكلفاً من الدولة الفرنسية بترجمة القرآن. يقول إن أكثر الذين شكوا في القرآن وارتابوا فيه، قد خضعوا لتأثيره في النهاية، حتى عدوُّ القرآن خاضع لتأثيره يهيمن عليه ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ))[١].

وما يُذكر هنا أن عام 2008، في الأزمة الاقتصادية العالمية، كتب رئيس تحرير مجلة "تشالنجر" الفرنسية المدعو "بوفيس فانسون " مقالاً افتتاحياً أثار جدلاً واسعاً وصخباً في الأوساط الاقتصادية والدينية. في المقال، الذي حمل عنوان "البابا أو القرآن؟"، حيث أثار رئيس التحرير ذاك النقاش في موضوع أخلاقية الرأسمالية، أنه هل الرأسمالية التي تعتمدها الدول الغربية منهاجاً لإدارة الدولة اقتصادياً هي أخلاقية وعادلة؟ و ما هو دور السلطة الكنسية والفاتيكان في ذلك؟ وقال في مقاله مخاطباً البابا "بينيديكت

---

[١] الصف ٩

السادس عشر" بنبرة فيها شيء من السخرية والتهكم: "**أظنُّ أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها، لما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات، وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري، لأن النقود لا تلد النقود**"، يعني تعال يا بابا الفاتيكان، خذ القرآن، و أخرج لنا النظرية الاقتصادية من القرآن لتصلح وضعنا الاقتصادي.

وعلينا نحن، أيها الإخوة، أن ندرك قيمة هذه الثروة والجوهرة العظيمة، القرآن الكريم، المعجزة الخالدة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في الحديث الشريف الذي يرويه الكليني في "الكافي"، قائلاً: "**ظاهرهُ حُكْمٌ، وباطنُه عِلم، ظاهرهُ أنيق وباطنُه عميق، له نجومٌ، وعلى نجومِه نجوم، لا تحُصى عجائبُه، ولا تُبلى غرائبُه، فيه مصابيحُ الهدى ومنارُ الحكمة**".[1]

وقال زين العابدين عليه السلام أيضاً في "الكافي الشريف": "**آياتُ القرآن خزائنُ العلم، فكلما فتحتَ خزانةً ينبغي لك أن تنظر فيها**"..[2]

---

[1] الكافي, ج ٢ ص٥٩٩

[2] الكافي ج٢ ص٦٠٢

الفصل الرابع

ما عارضهُ أحدٌ إلا افتُضِح!

انتهينا إلى أن إيماننا بالرسول المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم هو إيمان مَن شاهدَ، لا مَن سمع، ونعني بذلك أننا شهدنا معجزته الخالدة المتمثلة في القرآن الكريم، ولسنا كغيرنا من الأمم التي آمنت بأنبيائها عن طريق السماع وتناقل المعجزات التي حدثت في أزمان حضورهم ووجودهم. هذه ميزة خُصَّت بها هذه الأمة، رغم تقصير بعض أفرادها في الوقوف على هذه المعجزة، فكل الأنبياء صلوات اللّه عليهم، مع كثرة وتعدد معاجزهم، ارتحلوا إلى جوار ربهم ورحلت معاجزهم معهم، فلم يبقَ منها أو من آثارها شيء يمكن تلمسه بالعين المجردة، بخلاف نبينا صلى اللّه عليه وآله، فهو الوحيد الذي وإن ارتحل إلى جوار ربه الكريم، فإن معجزته لا تزال باقية بعينها، لا بآثارها فحسب.

ولهذا نقول إن اللّه تعالى أعطى محمداً صلى اللّه عليه وآله ما لم يُعطِ أحداً من أنبيائه، وهذا الأمر أزعج خصومه صلى اللّه عليه وآله، وخصوم هذا الدين العظيم، لقد أربكهم وأثار حفائظهم، فقالوا فيما بينهم: كيف لنا أن نبطل هذه المعجزة التي تجذب كل من له إلمام باللغة العربية، فصاحةً وبلاغةً؟ كيف يمكننا أن نوقف هذا الانجذاب لنحافظ على بقية الأديان الأرضية المخترعة من السقوط والانهيار؟ ومن هنا فكَّروا في كيفية النيل من هذه المعجزة أو خدشها، فمنهم من قال إنها ليست معجزة، وأن الكلام الموجود في القرآن كغيره من الكلام، وسرعان ما عاد هذا القائل خائباً يجر أذيال الهزيمة، لأن كل من له أدنى إلمام باللغة العربية يمكنه أن يلمس الفرق،

بل إن الفرق يلوح ويتضح حتى لو مزجنا بين بعض الآيات والألفاظ القرآنية وبين ألفاظ أخرى من كلام آخر، وإذا ما جعلت الآيات القرآنية، أو حتى بعضها، جزءاً من نص أو فقرة ما باللغة العربية، مهما كانت مكتوبة أو مصاغة بأروع صياغة أدبية أو بلاغية، فإن الفرق يظهر جلياً، فإنك بمجرد أن تقرأ وتتأمل تلاحظ أن هذا الذي أخذ من القرآن وأدرج أو ضمّن في تلك الفقرة تلاحظ أن عليه نور خاصاً يختلف عن باقي الكلام.... ذلك القائل الذي يزعم أن ما في القرآن من كلام يشابه غيره سرعان ما يولّي منهزماً، إذ لا يقنع أحداً بكلامه. لقد حاول البعض إبطال إعجاز القرآن بمنافسته ومحاولة الإتيان بمثله، وهو أمر تكرر كثيراً عبر العصور وحتى يومنا هذا.

محاولات ومحاولات جرت فيها مساعٍ لمعارضة القرآن أو الإتيان بمثله، لكنها جميعاً باءت بالفشل، وكل محاولة مستقبلية أيضاً محكومة بالفشل قطعاً، لأن الله تعالى قال: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[١].

حتى نتحقق من ذلك على أرض الواقع، سأخصص حديثي في هذا الباب للحديث عن هذا الموضوع إن شاء الله تعالى، بطبيعة الحال، لن أتحدث عن المحاولات السخيفة لمعارضة القرآن. ولن نتحدث مثلاً عن تلك الأضحوكة

[١] الإسراء ٨٨

التي تحفنا بها بعض النصارى في زماننا هذا، حيث ألفوا لجنة تضم أفراداً على أساس أنهم من المتضلعين في اللغة العربية، وكان فيهم بعض الأدباء، منهم لبنانيون، وجعلوا مهمتهم معارضة القرآن الكريم بوضع كتاب آخر زعموا أنه بمثله، وأسموه "**الفرقان الحق**"، لقد طبع هذا الكتاب في أوائل الألفينيات ووزع، وأثار بعض اللغط حينها.

وكان الهدف منه معارضة القرآن الكريم، وإثبات أنه يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، ليقال بذلك أن معجزة المسلمين قد بُطلت.

هذه محاولة سخيفة لا أحتاج إلى الإطالة في الحديث عنها، فهي تفضح نفسها بنفسها. فلو فتحت هذا الكتاب المزعوم "الفرقان الحق"، لوجدت في أوله ما يسمونه سورة الفاتحة، وكتب فيها: "**باسم الآبِ الكلمةِ الروحِ، الإلهِ الواحدِ الأوحد. هو ذا الفرقان الحق، نوحيه فبلِّغْهُ للضالين من عبادنا وللناس كافةً، ولا تخشى القوم المعتدين. مهيمنٌ يحطّمُ سيفَ الظلمِ بكفِّ العدلِ ويهدي الظالمين، ويهدمُ صرحَ الكفرِ بيدِ الإيمان، ويشيّد موئلاً للتائبين، وينزعُ غلَّ الصدر شذا المحبة، ويشفي نفوسَ الحاقدين. ويطهّرُ نجسَ الزنا بماءِ العفّةِ ويبرئُ المُسافِحين. ويفضحُ قولَ الإفكِ بصوتِ الحقِّ ويكشفُ مكرَ المفترين. فيأيُّها الذين ضلّوا من عبادنا توبوا وآمِنوا فأبوابُ الجنةِ مفتوحةٌ للتائبين**" إنهم بهذا الكلام الركيك الفاضح يريدون معارضة القرآن الكريم، ويريدون إقناع الناس أن هذا الكلام السخيف الركيك،

الضعيف من كل النواحي، هو بمستوى القرآن أو يتفوق عليه. هذه محاولات طفولية تفضح نفسها بنفسها من ركاكتها، فلن نطيل الكلام في مثل هذه المحاولات السخيفة. إنما سنتحدث عن محاولات شبه جادة قام بها أدباء بالفعل، كانوا يسعون لمعارضة القرآن الكريم. من بين هذه المحاولات، واحدة لشخص عاش في القرن التاسع عشر الميلادي ويدعى "**رزق الله حسون الحلبي**"، وهو أرمني نصراني من أهل حلب. كان شاعراً وأديباً باللغة العربية، كما كان كاتباً للروايات. وكان يجيد عدة لغات منها الأرمنية والتركية والإنجليزية والفرنسية والروسية.

اعتبره بعض المستشرقين أحد أعظم رواد النهضة الأدبية العربية في القرن التاسع عشر.

رزق الله حسون، كان حاقداً على الإسلام والمسلمين، فأصدر في سنة 1859 كتيباً صغيراً بعنوان "حسر اللثام عن الإسلام"، هاجم فيه الإسلام وعقائده، ما أدى إلى اعتقاله من قبل السلطات العثمانية. وبعد الإفراج عنه، هاجر إلى لندن وأخذ يصدر هناك بعض الصحف والمؤلفات التي هاجم بها الإسلام والمسلمين. ومع ذلك، كان يمتدح في بعضها السلطان العثماني عبد العزيز، أملاً في استعطافه كي يعود إلى دياره من جديد.

من تلك المؤلفات التي ألفها في لندن كتاب وديوان بعنوان "النفثات"، حاول في هذا الكتاب الطعن على النبي المصطفى صلى الله عليه وآله بزعمه أن القرآن إنما هو كلام من نظمه من صنعه من صنع النبي لا أنه وحيٌ إلهي، وزعم أن في القرآن أغلاطاً، لأن هذا من جملة ما يكرره أولئك السفهاء ومازالوا أن القرآن فيه أغلاطٌ نحوية لغوية كما يزعمون، وما هذا إلا من جهلهم فإن القرآن لا يُقاس بل يُقاسُ عليه، فهو أضبطُ نصٍّ حتى لو لم تؤمن بكونه إلهيّ المصدر، فإنه بحسب مقاييس العلم - أي علم - أضبطُ نصٍّ عربيّ قديمٍ وصل إلينا.

فعليه ينبغي أن تُقاس اللغة، لا أن يُقاس القرآنُ بما استنبَطه اللغويون. هؤلاء الذين يقولون إن في القرآن أغلاطاً قد سبقهم إلى هذا القول رجل نصراني أرمني، حاول في كتابه "النفثات" أن يعارض القرآن الكريم وأن يأتي بمثله، لكي يثبت أن القرآن بشري المصدر، وليس إلهيّاً. ومن هنا نشبت المعركة السجالية بينه وبين أديب آخر من عصره، في القرن التاسع عشر، وكان أعلى منه مقاما في اللغة والأدب والبلاغة والفصاحة، مع أنه نصراني الأصل والمولد، وهو فارس يوسف الشدياق.

فارس يوسف الشدياق (توفي عام 1887) كان لبنانياً مارونياً من بيت قساوسة ورجال دين نصارى، الشدياق هو لقبٌ دينيٌّ كنَسيّ عندهم، وهو ما يُطلق على من هو دون الكاهن في الرتبة الكنسية. هذا الرجل، كان من كبار أهل اللغة

والأدباء المجددين في عصره. لماذا نعتبره مجدِّداً؟ لأنه ابتكر العديد من المصطلحات الشائعة التي نستعملها اليوم في اللغة العربية.

قد تتفاجئون أن مصطلحات مثل "المستشفى" و"الصيدلية" و"الباخرة" هي من ابتكاراته. هذه المصطلحات التي وصف بها الأشياء المستحدثة في الأزمنة المتأخرة، التي لم تكن معروفة من قبل.

من كلماته أيضاً "الجريدة" و"الجامعة" و"مجلس الشورى" و"الانتخاب" و"الاشتراكية"، وغيرها الكثير، حتى أسماء الحيوانات، تجدونها في بعض الدراسات العلمية التي صدرت عن هذا الرجل، ومن أشهرها الدراسة التي صدرت بعنوان "أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية" لمحمد أحمد خلف، التي نُشرت في القاهرة عام 1955.

كان فارس الشدياق في زمانه يُعتبر من قمم الأدباء واللغويين. وُلد في لبنان وكان مارونيّاً، وهو أيضاً صاحب أول رواية عربية، وهي "الساقُ على الساق للشدياق". البعض يعتقد أن أول رواية عربية هي "زينب" لمحمد حسين هيكل، لكن الدراسات أثبتت أن الشدياق سبق هيكل، فهو أول من كتب الرواية بهذا الفن المستحدث، كان صاحب مؤلفاتٍ عديدة، كلّها تدور مدار اللغة والأدب، ومن أشهرها ما استدركه على "القاموس المحيط" للفيروز آبادي، حيث ألّف كتاباً بعنوان "الجاسوس على القاموس".

ومن شدة براعته اللغوية، اختارته جامعة كامبريدج للعمل على ترجمة ما يسمى بالكتاب المقدس مع كتاب آخر ملحق به بعنوان "كتاب الاختيارات من كتاب الصلوات العامة" في عام 1848. وقد أنجز هذه المهمة ببراعة، وكانت ترجمته معتمدة في ذلك الوقت، كان فارس الشدياق أديباً لغوياً كبيراً، ومجدداً في اللغة، ولم يكن مقلداً كسائر الأدباء. حين يريد الأديب أن يتحقق من سلامة لفظٍ ما، فإنه يعود إلى المعاجم، لكن الشدياق كان مختلفاً، إذ كان يستدرك على المعاجم نفسها ويصحح أغلاطها. كان مشهوداً له بطول باعه في اللغة العربية، وكأن اللغة كانت جزءاً من طبيعته، ويُشاع أنه أسلم، ولذلك سُمّي "أحمد فارس الشدياق". فقد أضيف إلى اسمه "أحمد" بعد إسلامه.

ولكن وصيته قبل وفاته بأن يُدفن في الحازمية، في مقبرة النصارى في لبنان، تكشف عن استمراره في التمسك بالنصرانية. وعلى كل حال، لم يكن الرجل متديناً بطبيعته.

كانت آراؤه تحررية، ودعا إلى تحرر المرأة وكان من أوائل من نادوا بالأفكار الليبرالية ذات الطابع الأوروبي. ولكن مع ذلك كله والأهم، كان شديد الاعتزاز بالإسلام كثقافة وتاريخ وأمة، وهذا واضح في كتاباته وشعره ونثره، المهم في الأمر أن فارس الشدياق كان خبيراً في اللغة. أصدر في زمانه صحيفة شهيرة من إسطنبول باسم "الجوائب".

و"الجوائب" تعني الأخبار الطارئة، وهي جمع "جائبة". هذه الجريدة كانت من أقوى الجرائد في تلك الفترة، وكانت تتميز بلغة أدبية راقية وفائقة...

إذاً، لدينا رجلان من نفس القرن التاسع عشر. الأول هو رزق الله حسون، أديب نصراني أرمني من حلب، وأحد رواد الأدب العربي في ذلك القرن. والثاني هو فارس يوسف الشدياق، أديب لبناني ماروني، وأحد أعظم علماء اللغة والأدب. بينهما وقعت مساجلات ومعارك أدبية، لأن الأول، رزق الله حسون، حاول معارضة القرآن الكريم والطعن عليه وعلى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وألّف كتاب "**النفثات**"، زاعماً أنه يوازي القرآن. فانبرى له الشدياق غيرةً ودفاعاً عن القرآن، هذه ظاهرة يمكن ملاحظتها، إذ إن كل من

عشق اللغة العربية، وإن لم يكن مسلماً، ينتفض إذا ما مُسَّ القرآن الكريم. تجد أن عشقه للغة يدفعه للانتفاض في وجه أي طعنٍ على القرآن الكريم، فهو يعتبره القمة في اللغة و البلاغة والفصاحة. وما يدفعه للرد ليس بالضرورة إيمانه، بل عشقه للغة.

هذه ظاهرة موجودة؛ فما من أديبٍ حقيقي إلا ويعشق هذا الكتاب، وما من أديبٍ حقيقي إلا ويعشق محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم.

ولعلنا نفصل في هذه الجوانب أكثر، ونقول: ما من إنسانيٍّ أحبَّ الإنسانية إلا وعشق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

لماذا أقول الإنسانية؟ إذا كان شخصٌ ما يعشق القيم الإنسانية .. فإنه لا يمكن أن يجد نموذجاً للإنسان الكامل أعظم من هذا الإنسان، محمد بن عبد اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

وهناك شاعر ألماني شهير اسمه "**جوته**" قال تصريحاً عظيماً، إذ كتب: "**طوال حياتي كنت أبحث عن الإنسان النموذج، فما وجدت غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم**".

وأضاف أن محمداً هو الإنسان النموذج، هذا التصريح من جوته، الذي كان شاعراً عظيماً، يُظهر عمق إحساسه بالإنسانية .... فالشعراء هم أكثر الناس إحساساً بالمشاعر الإنسانية، ومن هنا جاء تقديره لمحمد صلى اللّه عليه وآله وسلم باعتباره النموذج المثالي للإنسان.

ونحن لدينا هذا النموذج، الإنسان الكامل، وهو محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم.

لهذا، أقول: كل من يعشق الإنسانية والنُّبل يعشق محمدًا، كل من يعشق الأدب يعشق محمداً، كل من يعشق البلاغة يعشق محمداً، وكل من يعشق الإدارة والسياسة الحكيمة يعشق محمداً صلى اللّه عليه وآله وسلم.

إنه شخصية لا يمكنك إلا أن تعشقها، مهما حاولت أن تمسك نفسك.

نعود إلى الشاعر النصراني رزق الله حسون، الذي كان حاقداً على الإسلام والمسلمين، وأراد أن يمسّ بقدسية القرآن الكريم، المعجزة الخالدة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

حاول أن يظهر ما زعم أنه أخطاء في القرآن، وقال إنه يمكنه الإتيان بما هو أفضل منه. فألّف كتاب "**النفثات**"، وانتشر هذا الكتاب حتى وصل إلى يد عالم اللغة النصراني فارس يوسف الشدياق، ومن هنا بدأت المساجلة بين الطرفين. هذه المساجلة وثّقها الكاتب اللبناني يوسف قزم الخوري في كتابه "**مختارات من آثار أحمد فارس الشدياق**"، وفي فصل بعنوان "**معركة الشدياق الصحافية مع رزق الله حسون**". في هذا الفصل، يذكر الشدياق أن رزق الله حسون، ألف كتاباً طعن فيه على الإسلام والقرآن أشد الطعن، وسماه "**حسر اللثام عن الإسلام**". ومما قاله في هذا الكتاب: **أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتلقى علم القرون الأولى من راهب اسمه "نصطورس"، وأنه جمع القرآن منه.**

وادّعى أنه رأى في بعض خزائن الكتب في مسجد "الأستانة" مصحفاً مكتوباً بخط الإمام علي كرم الله وجهه، وأنه كان مكتوباً في أوائل السور "قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم: سورة كذا". وبناءً على هذا الادعاء، زعم أن علياً كان يعتقد أن القرآن من إنشاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وليس من وحي الله تعالى، كيف يصح هذا التقول على سيدنا علي، وهو أرسخ المؤمنين

قدماً في الإسلام! كيف يُعقل أن يؤمن الإمام علي بأن القرآن من إنشاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟!"

يقول الشدياق "الظاهر أن رزق الله حسون وجد في إحدى الخزائن كتاب "الكندي" الذي عاش في عهد المأمون، فنقل منه ما نقل، ثم زاد علبه أشياءً من عنده".

ومن بين النقاط التي أثارها حسون للطعن في القرآن قوله بأن كلمة "**ذواتا أفنان**" في سورة الرحمن خطأ في اللغة، وأن الصواب "ذاتا أفنان". وهنا يرد عليه الشدياق قائلاً: "**لو فكر هذا الغبي قليلاً، لعلم أن مثنى "ذو" هو "ذواتا"، وليس "ذاتا". لقد فضح نفسه بجهله!**"

ويؤكد الشدياق أن من يتحرش بالقرآن الكريم، مهما كان متضلعاً في اللغة، سيفتضح فوراً.. ثم بعد ذلك يوجه الشدياق كلامه إلى من سماه "العلاّمة" الذي خفي عليه أمر رزق الله، وكأنه أحسن الظن به، فقال: "**ثم العجبُ سابعاً من ذلك العلامة الذي يعلم سرَّ الحرف، كيف أنه خفي عليه باطنُ رزق الله الفاسد، وما تسوّل إليه نفسه من تحدي القرآن الشريف في كتابه**

"النفثات"؟" ثم يقول: "**بل هل يتأتَّى لأحد من النصارى العارفين بأساليب اللغة العربية، كالشيخ ناصيف اليازجي..**"[1]

الشيخ ناصيف اليازجي، رغم نصرانيته، كان حافظاً للقرآن الكريم من شدة عشقه للغة العربية. هذا الرجل الأديب الكبير، كان يكثر من استخدام التضمينات القرآنية في نصوصه الأدبية، مما كان يضفي على كتاباته بريقاً خاصاً. فالشدياق، إذ يضرب مثالاً باليازجي، يقول: "**بل هل يتأتَّى لأحدٍ من النصارى العارفين بأساليب اللغة العربية، كالشيخ ناصيف اليازجي ومن حذا حذوَه، أن يتحمل تشدُّق رزق الله وتبلتُعَه فيما جاء به نظماً ونثراً؟**" ويواصل الشدياق قوله: "**لا جَرَمَ أن من لم يَغِرْ على هذه اللغة المصونة، فما هو بذي غيرة على دينه ولا على امرأته، ولا سيما أن هذا السفيه قد أشعرَ إشعاراً ظاهراً بأنه قادرٌ على تحدي القرآن، وهذا أعجبُ شيءٍ من جنونه وهوسه**"، ثم يستمر الشدياق في حديثه عن الأمير عبد القادر الجزائري، المعروف بأنه من أورع العلماء وأتقاهم، وقد أرسل حسون بعض مؤلفاته إلى الأمير عبد القادر، فلذلك ذكره الشدياق في رده عليه قائلاً: "**فإن الأمير المشارَ إليه من أورع العلماء وأتقاهم، فلا يرضى بأن نصرانياً متشدقاً معتوهاً يعارض كلام**

[1] ناصيف اليازجي، هو أحد كبار أدباء عصره في القرن التاسع عشر، يُعَدُّ من لبنان، و من عائلة عريقة ومعروفة. كان نصرانياً ومات على النصرانية، لكنه كان يُلقب بالشيخ من باب تفوقه في اللغة والأدب. كما يُسمَّى البعض في لبنان "شيخاً" لوجاهة عائلاتهم، مثلما يُقال "**الشيخ سعد الحريري**"، وليس لكونه شيخاً دينياً.

القرآن في قوله: **'فَتَوَقَّلَ ثمَّ السِّدْرَةَ الكُبْرى، وَيَلْتَبِطُ أَمْوَاجاً، تَارَةً يَرْبُو جِبالاً، وَطَوْراً يَغُورُ فِجاجاً'"** مشيراً إلى إحدى المقطوعات التي زعم بها رزق الله حسون معارضة القرآن، ويستمر الشدياق في نقده قائلاً: "**وفي قوله أيضاً 'فأجابَ الجرْوُ لائِمَهُ وقد سفَّهَهُ كثيراً، ما أحطْتَ بمِا أريدُ عِلْماً ولا كُنْتَ بسببِ النُّبّاحِ خَبِيراً'، وغير ذلك من الكلام الغثّ**"، وإن كان فيه مسحة بلاغية، ولكنه لا يرقى إلى مستوى القرآن الكريم.

اذا كنتَ تعارض كلام الله بهذا الكلام فإنك قد رجعتَ بخفّيّ حُنَين، يقول: "**إن هذا الكلام الذي يدلُّ دلالةً صريحةً على أن المتشدِّقَ بهذه الفِقَرِ معتقداً غاية الاعتقاد أن بوسعه معارضة فواصل القرآن، مع إصراره على إفساد اللغة وتغيير مبانيها، وما كفاه ذلك حتى أهدى هذيانَه إلى إمامٍ في العربية**"، وهو الأمير عبد القادر الجزائري..

ويختتم الشدياق كلامه بالإشارة إلى أن القرآن ليس فقط جميلاً في سبكه وصياغته، بل عظيمٌ في مضمونه أيضاً. فالصعوبة ليست فقط في سبك الكلام، بل في صب المضمون العظيم في قالب بليغ وجميل دون إخلال بالمعنى، أو تنافرٍ في الصياغة، فإذا كان الأمر بهذه السهولة، فيمكن لأي شخص أن يأتي بكلامٍ تافه مثل 'صوت صفير البلبلِ' ويدَّعي أنه يعارض القرآن.

ولكن من يتحدى القرآن ينبغي أن يكون على مستوى عالٍ في البلاغة والفصاحة، وهذا هو التحدي الحقيقي.

في إحدى محاضراتنا.. ذكرنا أن في عهد هارون الرشيد (لعنه الله)، كان يعطي جائزة لأي شاعرٍ يأتي ويهجو الرافضة، فجاءه شخص فألقى بيتين من الشعر لم يكن لهما أي قيمة أو معنى..

" قيل: دخل رجل على هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إني هجوت الروافض.

قال: هات، فقال:

شمساً ورغماً وزيتوناً ومظلمةً ... من أن ينالوا من الشيخين طغيانا

فقال: فسّر. .. قال: يا أمير المؤمنين أنت في مائة ألف لا تفهم هذا أفأفهمه وأنا وحدي! فضحك وأمر له بصلة."

هذه الظاهرة موجودة، وهي أن البعض يحاول فقط أن يأتي بكلام له نغمة جميلة ويستخدم كلمات فارغة. وهذا ما حدث مع سيبويه أيضاً! رغم أنه إمام في اللغة والنحو، و سيبويه كان فارسياً وليس عربياً خالصاً.

ولتحسين لغته، ذهب ليعيش مع الأعراب ليأخذ اللغة من منبعها الصافي. و في العصر العباسي، دخلت كلمات من ثقافات ولغات مختلفة، فأراد سيبويه أن يجوّد لغته أكثر، فذهب ليعيش بين الأعراب فترة طويلة. و تزوج من امرأة أعرابية، وفي ليلة من الليالي أراد أن ينام فقال لها: "**اقتلي المصباح**".

فتفاجأت وقالت: "ماذا؟ اقتلي المصباح؟ لستَ عربياً، لأن العربي لا يستخدم هذا التعبير". فقال لها: "أنا عربي"! فقالت: "لا، نحن العرب نقول أطفئ المصباح أو غيِّب المصباح، لكن لا نقول اقتُله".

حاول سيبويه أن يخفي الأمر لئلا يُكتشف أمره بأنه أعجمي، لأن ذلك قد يؤدي إلى مشكلات مع القبيلة وربما حتى الموت. فأجابها قائلاً: "نحن من العرب، ولدينا ألفاظ تختلف عن ألفاظكم"، فأرادت التأكد فقالت: "كيف ذلك؟"، فأجابها ببيت من الشعر يقول:

"إن **الأناكيرَ** إذا **ساهَتْ** بعدَما **سبُزت** **واشرورنت** بعد أن كانت **تراشيشا**".

فقالت له: "هذه ألفاظ غريبة"، قال لها: "هذه هي لغتنا!"، لكنه في الحقيقة كان يستخدم ألفاظاً فارسية بلباس عربي. "الأناكير" تعني "العناقيد"، "ساهت" تعني "أصبحت سوداء"، و"سبُزت" تعني "أصبحت خضراء"، و"اشرورنت" تعني "صارت حلوة"، و"تراشيشا" تعني "كانت حامضة".

وهذا هو الفارق بين البلاغة والهذيان؛ البلاغة من بلوغ المراد هي أن توصل المعنى بأفضل وأجزلِ وأقصر العبارات، وعند العرب التطويل مخلٌّ بالبلاغة، والتكرار مخلٌّ بالبلاغة إلا إذا كان له غرض، بينما الهذيان هو مجرد كلام فارغ بلا هدف، لذلك، يسمي الشدياق كلام حسون بالهذيان، لأنه بلا مضمون، فضلاً عن الأخطاء اللغوية.

لذلك يقول: "**لقد حان الآن أن نظهرَ جهلهُ باللغة، والصرفِ، والنحوِ، وغير ذلك، ليعلَم فيما قصدَهُ من تحدي القرآن أنهُ مجنونٌ جنوناً مطبقاً**" وهذا دليل على جنونه! فتحدي القرآن ليس بالأمر الممكن، وهذا ما أكده النصارى الخبيرون باللغة في ذلك الزمان.. مثل من ترجم الكتاب المقدس.

يقول: "**والآن قدِ انتهينا إلى ذكرِ أغلاطِ رزق الله حسون في كتابِ النفثات، وهي من النوعِ الأول، ولكن ينبغي أن نمرَّ عليها مَرّاً خفيفاً، فإنها لكثرتها تقضي بمدةٍ طويلة، ولاسيما إذا أردنا تعليلها، ولانريدُ أن نضيِّعَ الوقت في هذا العمل الخبيث، وإنما المقصودُ بيانُ جهلِ هذا المدّعي بالعربية، وإشعار الناس بأن معارضتَهُ للقرآنِ الشريفِ مع هذا الجهل أقوى دليلٍ على أنه مجنون، فمن ذلك قولُهُ في أوّلِ صفحةٍ في كتابه النفثات فيقول: "إلى ذي الهمة العلياء" وصوابها القصْر لأن الممدودةَ اسمٌ بمعنى المكانِ العالي، والمقصورُ نعتُ تأنيثِ أعلى**".

للوهلة الأولى، لا نجد في هذا التعبير خطأً، لكن خبير اللغة الشدياق اكتشف الغلطة، لأن "العلياء" تشير إلى مكان مرتفع، بينما "الهمة" مؤنثة، وكان من الأصح أن يقول: "إلى ذي الهمة العليا". هذه هي دقة اللغة والبلاغة، التي يعجز عنها أولئك الذين يحاولون تحدي القرآن.

نرى الآن بعض الملحدين أو النصارى يخرجون ويتحدثون عن أخطاء في القرآن، لكنهم في الحقيقة جاهلون، وكلامهم مضحك، هناك خبراء قد راجعوا هذا العمل بدقة وقالوا: "انظر إلى هذا، منذ أول سطر في أول صفحة، لقد وجدت خطأً.

هذا الشخص الذي ارتكب الخطأ هو شخص ذو محاولة شبه جادة في معارضة القرآن الكريم، وهو شخص متمكن، وليس شخصاً هامشياً أو من دولة مجهولة لا تتعلق بالموضوع.

بل هو شخص ممتلئ علماً، ولكن سبحان الله، القرآن دائماً غالب، ولا يُغلب أبداً. لا أحد يستطيع التغلب على القرآن، فكل من يحاول معارضته يسقط في خطأ من البداية."

ومن ذلك قولُه: "**"وجدائلُ جريٍ"** والصواب **"وجداول" فإن الجدائل جميع جديلة، وهي بمعنى الشاكلةِ والقبيلة، وليس جداول المياه**"

وهي بمعنى الشاكلة أو القبيلة، وليس بمعنى الجداول، وهي المياه. فهو يريد أن يشبه الاستعارة، ولكن أخطأ في التعبير.

"**وفي الصفحة السابعة من كتابه، "بالصوتِ الشجيِّ" يقصد بها المطرب وهي لفظة عامّية، فإن الشجيَّ في اللغة معناه الحزين**" وهذا التعبير ليس فصيحاً، حيث أن استخدام لفظ "الصوت الشجي" هنا في غير محله.

"**الشجي**" في اللغة يعني الحزين، فإذا قلت "الصوت الشجي"، فأنت تقصد "الصوت الحزين" وليس "الصوت المطرب الجميل" كما يستخدمه العامة اليوم. وهذا مثل ما نبهنا عليه سابقاً في محاضرة سابقة، حين قلنا إن اللفظ الشائع "**شجعان**" هو في الأصل عامي، والصواب هو "**شجعاء**"، مثلما يكثر استخدام "**بدون**" شائع بين الناس، وهو استخدام خاطئ، إذ يجب أن يُقال "**من دون**" أو "**دون**" بحسب السياق. فمثلاً، لا يصح القول: "**أرز بدون كباب**"، بل يجب أن نقول: "**أرز من دون كباب**" أو "**دون كباب**". وهذا من الأخطاء الشائعة التي أشار إليها الشدياق في محاولته لنقد لغة رزق الله حسون في محاولته البائسة لمعارضة القرآن الكريم.

ومن هنا، نقول: سبحان الله، ما من أحدٍ عبر التاريخ، قديماً كان أم حديثاً، حاول معارضة معجزة محمد صلى الله عليه وآله إلا وافتُضح. لا يمكن لأحدٍ أن يصمد، لا هو ولا ما بذل من جهد. وهذه ميزةٌ لم تعطَ لأي نبي آخر.

فقد كان هناك من استغل رحيل الأنبياء لمحاولة معارضتهم أو الإتيان بمثل ما أتوا به ولو على سبيل الشعوذة، ونجح في استقطاب الناس إليه، فتكونت الكثير من الديانات والفرق الأرضية المنحولة، أما في الإسلام، فمن حاول البناء على ما سبق من النبي صلى الله عليه وآله، كان يعلم أنه إذا اقترب من دائرة معارضة المعجزة أو الإتيان بمثلها، فإنه سيفتضح فوراً ولا يستطيع الصمود.

وهذا مما حباه الله عز وجل لنبيه الأكرم صلى الله عليه وآله، فبقيت معجزته حية خالدة لا يستطيع أحد مجاراتها. ولهذا، نجد أن من دافع عن هذه المعجزة وانتفض لها، مثل الشدياق، شعر بالاشمئزاز من محاولة مجاراتها.... لكن هناك أناس آخرون، رغم نشأتهم في بيئات مخالفة للإسلام، لم يستطيعوا مقاومة جاذبية القرآن.

فمنهم من انجذب وصاح بنفسه قائلاً: "ويحك! إنك على دين النصرانية"، كما هو حال أمين نخلة.

ومنهم من سلّم واستسلم، مثل الشاعر والأديب النصراني المعروف"؛ نقولا يوسف حنا، الذي توفّي في سنة 1999، هذا الرجل الذي أذهلته قراءة القرآن، فتعمق فيه، ففتنه، ثم أعاد قراءته، فآمن، وهنا لا نعلم هل كان إيمانه بالقرآن يعني دخوله الإسلام فعلاً، أم أنه كان إيماناً بمعجزة القرآن مع الحفاظ على دينه النصراني.

وهذه الظاهرة موجودة، فهناك من احتفظ بديانته اليهودية أو النصرانية مع التسليم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وبأن القرآن وحي إلهي.

يوسف حنا قال في مقدمة قصيدته "من وحي القرآن": **"قرأتُ القرآنَ فأذهلَني، وتعمقتُ به ففتنني، ثم أعدتُ القرآنَ فآمنتُ، آمنتُ بالقرآن الإلهي العظيم وبالرسول الذي حمله، النبي العربي الكريم، أما الله فمن نصرانيتي**

ورثتُ إيماني به وبالفرقانُ عظُمَ هذا الإيمان"، ويقول: **"وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يديّ أنظرُها وأحسها كل حين؟"**

وكما قلنا، هذا هو الفرق بيننا وبين سائر الأمم. نحن آمنا برسالة النبي صلى اللّه عليه وآله إيماناً من شاهد وعاش المعجزة، وليس إيماناً عن خبر أو رواية، عندما تأتي لليهودي أو النصراني أو لأي تابع نبي قد مضى، وتسأله: "هل شاهدت المعجزة وتلمستها؟"، سيقول لك: "كلا، ما هي إلا أخبارٌ وأنباء". سيخبرك: "قيل لنا أن عيسى عليه السلام كان يُحيي الموتى، وقيل لنا أن موسى عليه السلام كانت عصاه تتحول إلى ثعبان أو أفعى".

ونحن كذلك، قيل لنا أن محمدًا صلى اللّه عليه وآله أشار إلى القمر فشقه نصفين. لكن هذه الأخبار ليست السبب الوحيد الذي جعلنا نؤمن به، وليست السبب الرئيسي!

أنا لا أحتاج أحدًا ليخبرني بشيء، فأنا أرى بنفسي. لدي معرفة باللغة، أقرأ القرآن وأقرأ غيره، فأقول: هذا كلامٌ يعلو على كلام البشر. لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ومع كل المحاولات التي حاولها البعض لتقليده، ينكشفون ويُفضحون فوراً.

إذًا، هذا كلام اللّه، وهكذا.. فيقول نقولا حنا نفس الشيء: **"كيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يدي أنظر إليها وأحسها في كل حين؟"** هذه معجزة لا

كبقية المعجزات، معجزةٌ إلهيةٌ خالدة تدلُّ بنفسِها على نفسِها، وليست بحاجةٍ لمن يُخبر عنها أو يبشر بها"، وهذا هو الفرق. معجزة القرآن تتحدث عن نفسها، ولا تحتاج إلى من يرويها لنا.

ويقولُ أيضاً.... "**كم احتاجَت وتحتاجُ الأديانَ السابقة إلى علماءَ ومبشّرين وشواهد وحجج وبراهين لحضِّ الخلقِ على اعتناقها، إذ ليسَ لديها منظورٌ يثبتُ أصولها في القلوب**"، ولذلك، كانت بحاجة إلى هذا الجهد الهائل من الدعاء والمبشرين والعلماء، لإقامة الشواهد والبراهين التي تحض الناس على اعتناق تلك الأديان. "**أما الإسلام، فقد غَنِيَ عن كل ذلك بالقرآن**". القرآن يكفي وحده، فهو بنفسه يدفعك أو يجذبك إلى اعتناق هذا الدين، غاية الأمر أنك تحتاج فقط إلى تعلم اللغة لتذوّقه، "**فهو أعلمُ معلِّم، وأهدى مبشّر، وهو أصدق شاهداً، وأبلغُ حجّةً، وأدفعُ برهاناً، هو المعجزةُ الخالدةُ بخلودِ الواحدِ الأزليّ، المنظورة المحسوسة في كلِّ زمان**"، تستطيع رؤيتها والشعور بها في كل زمان، "ومن إيماني العميقِ هذا، استلهمتُ أبيات قصيدتي هذه، فيقول:

يقولون ما آياتُه؟ ضلَّ سعيُهم... وآياتُه ليست تُعدُّ عظامُ

كفى معجزُ الفرقانِ للناسِ آيةً... علا وسما كالنجمِ ليسَ يُرامُ

فكلُّ بليغٍ عنده ظل صامتاً... كأن على الأفواه صُرَّ كِمامُ

كفى نصرُه فرداً تعاديه أمةٌ... ومن ينصرِ الرحمنُ كيفَ يُضامُ

فإذا قرأت تاريخ نبينا صلى اللّه عليه وآله، ستجد أن أمة العرب كلها، على وحشيتها في ذلك الزمان، قد عادت نبي الإسلام. كان قومه، عشيرته، حتى عمه ضده.

لكن مع ذلك، تكوّنت أقلية صغيرة في الإسلام، وتحولت تلك الأقلية وسط بحر من الأعداء إلى قوة لا تُهزم. خاض النبي صلى اللّه عليه وآله هذه الحروب العظيمة، رغم أن القبائل كانت قد تحزبت ضده.... فكانت معركة الأحزاب يفترض أنها محسومة النتائج.. ولكن القرآن وحده نصَر محمداً صلى اللّه عليه وآله نصراً عجيباً، رغم أن أمة بأكملها كانت تعاديه.

ويقول يوسف حنا في أبياته:

شاءَ إلهُ العرشِ بالناسِ رحمةً... وأن يتلاشى حقدُهم وخصامُ

ففرَّقَ ما بين الضلالةِ والهدى... بفرقانِ نورٍ لم يشبه قَتامُ

أتاهُم بقرآنِ السلامِ رسولُه... فطافَ بأرجاءِ البلادِ سلامُ

كتابٌ هدىً لا ريبَ فيه مشرِّعٌ... وللسلمِ والعُمرانِ فيه دعامُ

القرآن هو كتاب السلم والعمران، دعاماته واضحة في هذا الكتاب. ويصف آياته بأنها عربية فصيحة، قائلاً:

مفصلَّةٌ آياتُهُ عربيّةٌ... فصاحَ بها عِزَّ البيانِ عِظامُ

تلا كتُبَ التنزيلِ لكن مكمّلا.. فذي أولِ التشريعِ وهو ختامُ

فصيحٌ بليغٌ نطقُه وبيانُه... قريبٌ بعيدٌ فهمُه ومرامُ

فالقرآن قريبٌ يمكنك فهمه، لكن بلاغته بعيدةٌ لا يستطيع أحد الوصول إليها. ويضيف:

تنزَّه عن هُجرٍ فما اللفظُ فاحشٌ... ولا فيه بهتانٌ وليس يُذامُ

ويبدو أن هذا البيت قد نظمه الشاعر تضجراً من كتاب النصارى المزعوم، الذي يدَّعون أنه التوراة أو الإنجيل، فهذا الكتاب الذي يتحدثون عنه هو كتاب مختلط، ليس أكثر من ذلك.. فإذا نظرتم في هذا الكتاب[١]، ستشعرون بالقشعريرة من كثرة الألفاظ الخادشة للحياء التي وردت فيه.

تتعجبون كيف يمكن أن يكون هذا وحياً إلهياً بمثل هذه الألفاظ السوقية، النابية، والفاحشة جداً.

لذلك يقول نقولا في وصف القرآن: "**تنزّه عن هجرٍ، فما اللفظُ فاحشٌ... ولا فيه بهتانٌ، وليس يُذام**" .

---

[١] أيّ الإنجيل المُدّعى

حتى الألفاظ المستخدمة في القرآن، حتى لو كانت للعتاب أو التقريع، فإنها بليغة.

لا تشعر بالتقزز حين تقرأها، ولا تشعر بأنها تخدش الحياء عندما تُتلى أمام الأهل. بل إن اللفظ في القرآن سامٍ ورقيّ، فهو يصف الأمور بشكل بليغ ومهذب. حتى عندما يتحدث القرآن بلهجة قاسية، فإنه يبقى نزيهاً.

ثم يصف الشاعر يوسف حنا القرآن في قصيدة من روائع قصائده التي يعبر فيها عن خلود معجزة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه لا تضاهيها معجزة أخرى. يقول في قصيدته:

"تجاوبَ أصداءَ التلاوةِ في قُبا... فشقَّ لها في المشرِقين إمامُ"

ثم يقول: "أين نحن من هذه المعجزة؟". نحن مررنا كما سبق على نقطة مهمة، وهي أن مع الأسف الشديد، هناك من التفَتَ إلى هذه المعجزة وإلى مضامينها وتعاليمها، لكنه لم يكن مسلماً.

هو شخص أخذ يتفكر في القرآن ويتدبره، أما المسلمون، في الأعم الأغلب، فهم غافلون عن هذا التفكر والتدبر في القرآن، أحد العوائق التي تعيق المسلمين عن هذا التدبر هو هجر اللغة العربية. فالعرب اليوم لا يستعملون

اللغة العربية جيدًا، بل يشعرون بالصعوبة عندما يتحدثون بها مع أهلهم أو أبنائهم. ولو أنهم اهتموا بها منذ السنوات الأولى لولادة أبنائهم، لتقوّمت الألسنة عليها، ولعادت اللغة العربية إلى الواجهة.

فبصريح العبارة، إن هذه مأساة وكارثة حلت على المسلمين، خاصة على أبنائهم، في مثل هذه البلاد[1]. بل حتى في البلاد العربية الآن، بسبب ضعف استخدامنا للغة العربية الفصحى مع أبنائنا.

فإن أبناءنا يبتعدون عن الدين. لأنهم لا يتلمسون المعجزة، ولا يذوبون حباً فيها، ولا يعرفون عظمة هذا الدين، فإنهم لا يستطيعون تلقي المعارف الدينية بشكل مباشر، فهذه هي الإشكالية..

سابقاً، كان خطباؤنا أدباء، وكانوا شعراء.. كانوا يصعدون المنابر ويلقون خطبهم بلا تحضير.

أما الآن، فالمنبر تحول إلى شيء آخر، سوى بعض الاستثناءات.. فالإشكال الآن هو أن أول خطوة يجب على الأمة الرافضية العظيمة أن تقوم بها، هي إعادة الاهتمام بدراسة اللغة العربية وتقويم اللسان... حتى يصبح ذلك أمراً شائعاً بيننا، خاصة في التعامل والتفاهم مع أبنائنا، إذا لم تحصل الأجيال القادمة على هذه الآلة، وهي آلة اللغة، فإنهم لن يصلوا إلى شيء.

---

[1] ويقصد الشيخ هاهنا البلاد الغربية، كونه ممن يقطن فيها.

إنها مشكلة كبيرة وأزمة عظيمة.. أزمة هجران اللغة. كيف يمكن لهذا الابن أن يطالع القرآن الحكيم ويفهمه؟ لا يفهم شيئاً! فهو يقرأ القرآن دون أن يفهم منه شيئاً.

فكيف يمكن له أن يقرأ كتب الحديث التي تتضمن أنوار آل محمد عليهم السلام وحِكَمِهم وتعاليمِهم ودررهم و هو لا يعرف شيئاً؟

يشعر بالثقل عند قراءة هذه الكتب لأن اللغة الأقرب إلى نفسه هي اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، بحسب ما تعلمه في المدارس، فيأخذ بالتكلم باللغات الأجنبية، ويشعر أن اللغة العربية صعبة. لكن الحقيقة أن اللغة العربية ليست صعبة على الإطلاق. هي أفخم من اللغات الأخرى، وقواعدها أكثر، واشتقاقاتها أوسع. وبمجرد أن تتذوقها، تستشعر سلاستها وشاعريتها التي لا تضاهيها لغة أخرى، وهذا ما يشهد به المستشرقون الذين ترجموا القرآن إلى لغاتهم.

مثل الشاعر الفرنسي الكبير **جوزيف شارل ماردروس**، الذي كُلِّف من وزارة الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة سور القرآن الطوال. هذا الرجل قال في تصريحه: "أسلوب القرآن هو الأسلوب الخاص بالله وأن هذا وحيٌ إلهي". وأضاف: "عندما قسنا لغتنا الفرنسية بلغة القرآن، تبين لنا أن لغتنا فقيرة جداً، وأنه من العبث أن نحاول مجاراة القرآن".

لغتنا ضعيفة مقارنة بلغة القرآن، وكل اللغات كذلك، اللغة العربية هي لغة العلم والبلاغة. هي اللغة التي توصلك إلى المراد بأقصر عبارة وأفخمها وأجزلها وأدقها.. اللغات الأخرى لا تمتلك مثل هذه الإمكانيات.. الاستعمار البريطاني اكتسح العالم، وكانت الإمبراطورية البريطانية هي الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. لذلك أصبحت اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية، وصار توقيت العالم هو التوقيت الإنجليزي، توقيت غرينتش.

حتى أنتم تسيرون عليه[1]؛ يقول لك البرنامج: "في الساعة (.......) بــــــــــــتوقيت المدينة المنورة"، وبعدها يجب أن يضيف "بتوقيت غرينتش" حتى يفهم الناس، سواء كانوا في شرق الأرض أو غربها. هذا هو الواقع، وهو موجود، ولا مشكلة في ذلك. فنحن نأخذ هذا الواقع ونعيد توظيفه في خدمة الإسلام، فلا مانع منه.

عندما ننتج فيلماً عالمياً عن ولادة نبي أو إمام من الأئمة عليهم السلام، نختار اللغة الإنجليزية لأنها واقعياً هي اللغة العالمية الآن.

هذا يمُكننا من إيصال الرسالة باللغة الإنجليزية في البداية، وبعد ذلك، عندما يسلم هذا الشخص أو يتشيع، سيفكر في تعلم اللغة العربية، وسينبهر

---

[1] يوجه الشيخ هاهنا كلامه للعاملين في قناة فدك..

بها أكثر، ويكتسب معارفها أكثر فأكثر، فقد كانت اللغة العربية لغة العلم واللغة العملية أيضاً لقرون مضت.

كانت موجودة ومستعملة حتى في بعض البلاد الغربية، نتيجة التمدد الحضاري العربي والإسلامي. فعلينا ألا نهمل اللغة العربية، فهناك إشكاليات كبيرة تحدث جراء هذا الإهمال. إذا نشأ ابنك على لغة أخرى، يصبح من الصعب عليه عندما يبلغ الأربعين أو الخمسين من عمره أن يعود ليتعلم اللغة العربية مرة أخرى حتى يفهم دينه... فإذا لم تكن لديك اللغة العربية، فإن القناة الرئيسية التي تتلقى بها كلام الله وكلام رسوله وكلام الأئمة الطاهرين عليهم السلام تُقطع، فلا تصل إلى شيء.

هذه دعوة جادة وأكيدة على ضرورة الاهتمام باللغة العربية.

القرآن لا تنقضي عجائبه ولا تحصى، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ظاهرُه حُكمٌ وباطِنُه عِلم، ظاهرُه أنيق وباطنُه عميق، له نجومٌ وعلى نجومِه نجوم، لا تحُصى عجائبه، ولا تُبلى غرائِبُه، فيه مصابيحُ الهدى، ومنارُ الحكمة**»[1].

كلما قرأت القرآن، اكتشفت أعجوبة جديدة، حتى من نفس الآية التي ربما قرأتها مئة مرة، تكتشف أمراً جديداً، سبحان الله. إذا تدبرت وعمقت في

[1] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - الصفحة ٥٩٩

التفكر، فإن عجائب القرآن لا تحصى، ولا تبلى غرائبه. فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة.

الفصل الخامس

آيةُ التغايرُ والتفاوت

من أعظم الدلائل على صدق نبوة نبينا (صلى الله عليه وآله) هو تغاير أسلوب حديثه مع أسلوب القرآن الحكيم؛ إن من المعلوم ضرورةً أنّ الإنسان لا يمكنه مع إكثاره للكلام إلا أن ينهج نهجاً واحداً فيه نمط واحد يُعرف به، يُقال هذا أسلوب المتحدث الفلاني، من أسلوبه تعرفه، هذا أسلوب الشاعر الفلاني؛ من أسلوبه في شعره تعرفه، لكل متحدث أسلوب يُعرف به، وإذا اجتهد أحدهم في أن يغير أسلوبه، فإنه يتمكن عادة؛ لكن هذا التغير تلاحظه في مقطوعة أو اثنتين أو ثلاث، على أنها أيضا كثيراً ما تحمل بصمات أسلوبه، أما إذا كان مكثاراً في الحديث، فإنه يصعب عليه أن يغير أسلوبه كليةً، بحيث لا يكون مشابها لأسلوبه الأصلي، هذا أمر صعب جدًا، بل يكاد يكون مستحيلاً، خاصة إذا كان مسترسلاً في كلامه، مرتجلاً فيه، كحين يكون خطيباً في الناس مثلاً لا يمكنه أن يضبط نفسه إلى حدٍّ أنه لا يستعمل شيئا من ألفاظه أو تعابيره المعهودة..

نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، يتهمه خصومه ومنكروا نُبوّته بأنه أنشأ هذا القرآن، يعني أن هذا القرآن الذي بين أيدينا ليس وحياً قد تلقاه! وإنما هو من إنشائه، هو رجل فصيح، بليغ، أنشأ هذا القرآن، وكلّ ناظرٍ في هذا القرآن، وناظرٍ في الحديث الشريف المتضمن لأقوال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وخطبه وحِكمه، يلمس بوضوح تغاير الأسلوبين، فأسلوب القرآن فريد من نوعه، كما أن أسلوب الحديث الشريف فريدٌ من نوعه، لا يوجد

تشابه بين الأسلوبين؛ فهذا التغاير آيةٌ على صدق نبوته؛ لأن المتكلم بكثرة -ونبينا صلى الله عليه وآله كان مكثاراً في كلامه- فهذا المتكلم بكثرة لا يمكنه، ولا يسعه أن يضبط نفسه، وألفاظه وتعابيره على نحوين متغايرين إلى هذا الحد، وهذا الأمر واضح عند كل من تفحص أو قلّب آياتِ القرآن وعباراتِ الحديث الشريف، فوراً يتّلمس أن ها هنا تغايرٌ دالٌّ على وجود متكلمين اثنين، يقول هذا له أسلوبه الخاص، وذاك له أسلوبه الخاص، فحتى لو افترضنا أن النبي صلى الله عليه وآله كان يُجهدُ نفسَه حتى يُظهر أن القرآن قد تُلُقِّي من قبله لا أنه من إنشائه، فإنه قد ينجح في آيةٍ أو آيتين، سورةٍ أو سورتين، أما مع هذا الإكثار والكلام المسترسل والمتمادي والطويل عبر السنوات يستطيع أن يضبط إلى حدٍّ أنه لا يتشابه هذا الأسلوب مع ذلك الأسلوب، هذا أمر أشبه بالمحال!

أنتم تعرفون أن النقاد حين يتناولون مثلاً قصيدة، فلنفرض أنها نُسبت للمتنبي مثلاً، ينكرون نسبتها للمتنبي بأخف مؤونة، بكلمة واحدة، يقولون أسلوبها ليس أسلوب المتنبي، المتنبي له إيقاعه الخاص، له أسلوبه الخاص، له لحنه الخاص، له ألفاظه، له تعابيره، وهكذا حين تُتَناقلُ أبياتٌ لقائلٍ قد أخفى هويته، واسمه، فإنه كثيراً ما يستكشف هذا القائل من الأسلوب، يقولون هذا أسلوب النابغة مثلاً، هذا أسلوب الفرزدق، هذا أسلوب دِعبل مثلاً، فينسبون ذلك إليه؛ هذا أمرٌ جارٍ في عالم الأدب وفي عالم اللغة، أحدُ

الذين انتبهوا إلى تغاير الأسلوبين "أسلوب القرآن وأسلوب الحديث" هو المستشرق **آرثر جون آربري** المتوفى سنة ١٩٦٩، وهو مستشرق و عالم بريطاني عضوٌ في الأكاديمية البريطانية، تعلم اللغة العربية حتى نبغ فيها، وترجمَ القرآن الحكيم. هذا الرجل اعترف بالاختلاف الجوهري ما بين أسلوب القرآن، وما بين أسلوبِ الحديث النبوي الشريف، له كتاب بعنوان **The holly Qura'n: an introduction with selections**، قال ما ترجمتُه:[١] نحن نعرف جيداً كيف كان محمد يتكلم في حالتِه العادية ومزاجه اليومي، إذ إنّ كلامه العارض قد حُفظ بوفرة، إنه من الصعب أن نجد حالةً أخرى حيث يختلفُ التعبير البلاغي لرجل بصورة جوهرية عن حديثه العادي، انتبهوا جيداً لهذه النقطة، **آرثر آربري** ليس معترفاً بإلهية القرآن، هو ليس مؤمناً، لا يقرُّ بأن القرآن وحيٌ إلهيٌّ، هو يعتبره من محمد صلى الله عليه وآله، من إنشائه هو، ولكنه اندهش لهذه الظاهرة، الفرق الجوهري ما بين أسلوب محمد العادي في خطبه، في أحاديثه، وما سماه أسلوبه البلاغي، وهو القرآن، يعني هو يَعتبر أن القرآن هو النتاج البلاغيُّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و الخطب والأحاديث والكتب والرسائل وما إلى هنالك، هذا أسلوبه العادي في الكلام، خُطبه اليومية، يقول كان محمد يتكلم في حالته العادية ومزاجه اليومي، يقول من الصعب أن نجد حالة أخرى لإنسان آخر

---

[١] ص٣١

يختلف تعبيره البلاغي بصورةٍ جوهريةٍ عن حديثه العادي إلى هذا الحد، لأنه حتى الإنسان البليغ إذا ما أراد نظمَ مقطوعةٍ بلاغية، أو إنشاء نص بلاغياً فإنك تجده اذا ما تحدث حديثه العادي في جلساته وخطبه وكلامه، كثيراً ما تكون هنالك تشابهات ما بين النص البلاغيّ، ونص الحديث العادي، هنالك ألفاظ مشتركة تستعمل هنا وتستعمل هناك، هنالك تعابير مشتركة تستعمل هنا وتستعمل هناك، غاية ما هنا أن هذا الرجل أجهدَ نفسه في النصّ البلاغيّ أن يحكمه فيجعله بليغاً، في حين إنه قد تخفف في النصوص الأخرى أو في حديثه العادي، لا يمكن أن تجد نموذجاً لشخص لا يكون كلامه العادي مشابهاً في الأسلوب لكلامه البلاغي.

أنا الآن أحدثكم مثلاً بإمكانكم أن ترجعوا إلى كتبي ومؤلفاتي، أنا الآن أنشئ الكلام إنشاءً، أنا الآن في جلسة عادية، أتكلم على طبيعتي العادية، لستُ أجهد نفسي حتى مثلاً أنظم بيتاً أو أنثر نثراً أو أؤلفَ كتاباً، بليغاً أو علمياً، فأنا الآن في حديثي العادي، لكنك إن تأملت لا محالة تجد أن في حديثي العادي هذا تشابهاً مع مؤلفاتي، مع كتبي، هنالك ألفاظ مشتركة، هنالك تعابير مشتركة تقول إن الأسلوبين من مصدر واحد، أما هنا في الظاهرة المحمدية، هنالك أسلوبان متغايران متفاوتان تماماً ومن مصدرٍ واحد، ولذا أثار هذا الأمر دهشة هذا العالم البريطاني؛ يقول من الصعب أن نجد نموذجاً آخر هكذا لرجل آخر، انتبهوا لكلامه، يقول نحن نعرف جيداً كيف

كان محمد يتكلم في حالته العادية ومزاجه اليومي، إذ إن كلامه العارض قد حُفظ بوفرة؛ هنالك وفرة في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، مسجلة ومتداولة، لكن من الصعب أن نجد حالة أخرى حيث يختلف التعبير البلاغي لرجلٍ بصورة جوهرية عن حديث العادي، .هذه في الحقيقة إحدى آياتٍ نبينا الأكرم صلى اللّه عليه وآله التي لا يمكن دفعها، ولا يمكن بعدها إلا التسليم بأنه نبيٌّ من اللّه تبارك وتعالى، لأن البشر بطبعه غيرُ قادرٍ على أن يضبط نفسه كل هذا الضبط في غير أسلوبه كليةً، لا شكلياً بل بصورة جوهرية، لا عارضة ولا طارئة.

اختلاف الأسلوبين وهذا التغاير والتفاوت دليل على صدق النبي صلى اللّه عليه وآله، هذه ظاهرة لا يمكن دفعها، ولا يمكن معها أن يقال بإمكانه تحقيقها مع هذه الكثرة والوفرة، إن كانت عن قصد وعمد من صاحبها لا بد أن يقع هذا المكثار في الكلام هنا أو هناك، في ما يدل على أن الأسلوب الآخر الذي أخفاه وأراد إيهام الناس أنه ليس منه، لا بد أن يقع في مواقع تدل السامع أو المستمع على أن هذا الإنسان هو صاحب الأسلوبين معاً!، كما أن هذا الكلام موجود في كتب تاريخنا، مثلاً بعضٌ من علمائنا الأقدمين ممن كانوا يضطرون لظروف التقيّة أن يؤلفوا كتباً بأسماءٍ مستعارة، أحدهم السيد ابن طاووس مثلاً ألف كتاباً مطبوعاً، هو متداول اليوم اسمه **الطرائف في معرفة مذاهب والطوائف**، انتحل فيها اسماً ما، وصور نفسه على أنه رجلٌ

ذميٌّ، كأنه ينظر إلى الإسلام من عين خارجية يميز بها ما بين الطوائف والمذاهب، حتى ينتهي إلى أن المذهب الحق هو مذهب التشيُّع، كيف عُرف أن هذا الكتاب هو من تأليف السيد ابن طاووس؟! من الأسلوب! لا يستطيع أن يخفي أسلوبه فهذا أمر معهود لا مريةَ فيه؛ فإذا علمنا بأن خصوم النبي الخاتم صلى اللّه عليه وآله، والمشككين بنبوّته، والحاقدين عليه وعلى دينه من هؤلاء المهلوسين، وصلوا إلى حدٍّ من هلوساتهم أنهم اتهموا النبي صلى اللّه عليه وآله بالصرع، أنه كان مصروعاً، وأن هذا هو تفسير ما كان يدّعيه من نبوّة، لأنه كانت تتراءى له أشياء في حال الصرع، ومنها كان يحدث بهذا القرآن، اذا أخذنا بالحسبان هذه الهلوسة وبنينا عليها، وقلنا أن مصروعاً يأتي بكل هذا الضبط والتفاوت بين أسلوبين بلاغيين فصيحين بمنتهى الاختلاف والتفاوت والتغاير فهذه بحد ذاتها آية ومعجزة! يعني هؤلاء من جهلهم لا يعلمون حين يوجهون مثل هذه الاتهامات أو يقدّمون هذه التفسيرات للظاهرة المحمدية ويريدون القدح بها، إنهم يقدمون من حيث لا يشعرون نموذجاً استثنائياً في تاريخ الخليقةِ تماماً، أن تجد مصروعاً بليغاً إلى هذا الحد! و قادراً على ضبط ألفاظه وتعابيره إلى منهجين وأسلوبين في الكلام مختلفين تمام الاختلاف والتفاوت، لعمري إنها آية الآيات!! لك أن تستكشف بنفسك هذا التغاير، نحن قلنا أن آيات نبينا الأعظم صلى اللّه عليه وآله التي تدل على نبوته كثيرة، هذه بحد ذاتها إحدى الآيات، **آية التغاير والتفاوت**،

يعني من كان لديه إلمام باللغة العربية وأساليب البيان شيئاً ما، فإنه بمجرد اطّلاعه على الأسلوبين "أسلوب القرآن وأسلوب الحديث" يلمس هذا التغاير والتفاوت، وحين يعلم أن ذلك كان بكثرة ومن شخص واحد، لا يمكنه أن يصدق أن هذا الشخص قادر على أن يتكلم بأسلوبين متغايرين متفاوتين كل هذا التغاير والتفاوت، فلا بد أن أسلوباً منهما كان له، والأسلوب الآخر لغيره، ولا يكون هذا الغير إلا الله تعالى.

أنت بنفسك يمكنك أن تستكشف هذه الظاهرة، وإن تقرأ الكتب التي دوِّنت خُطب النبي صلى الله عليه وآله وأحاديثه وحكمه وأقوالِه، ترى أنه إذا ما ضمّن النبي صلى الله عليه وآله في إحدى أقواله أو خطبه شيئاً من القرآن فإنك فوراً تشعر بالفرق، حتى وإن لم تكن مطّلعاً على القرآن كل ذلك الاطلاع، فسبحان الله.. المقطع الذي يكون من القرآن، وضُمِّن في الحديث وجرى على لسان النبي صلى الله عليه وآله في وسط حديثه تجده وكأنه يقفز أمام عينيك فجأة ويطرق سمعك كموجة صوتية لا تشبه ما قبلها ولا ما بعدها، مع أن النص واحد، يعني لدينا مثلاً خطبة واحدة عن النبي صلى الله عليه وآله خطَبَها في حجة الوداع، في الخطبة التي تناقلها المسلمون وأكثروا من روايتها وتضمنتها كتبهم، هذه الخطبة عبارة عن خطبة واحدة للنبي صلى الله عليه وآله، قالها في موقف واحد ارتجالاً، وقد ضمّنها شيئاً من القرآن، حين تقرأ هذه الخطبة، ما إن تصل إلى الموضع الذي استشهد فيه صلى الله

عليه وآله بالقرآن، تلاحظ فوراً تغير الموجة الصوتية، إنهما اسلوبان مختلفان تماما، مثلا هذا المقطع يقول صلى الله عليه وآله: (**أيها الناس إنَّ الشيطانَ يئسَ أن يُعبَد في أرضِكم هذه، ولكنه قد رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم؛ أيها الناس، إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر، يُضلُّ به الذين كفروا يُحلِّونه عاماً ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرم الله، وإن الزمان استدار كهيئتِه يومَ خَلقَ اللهُ السمواتِ والأرض، و إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشرَ شهراً في كتاب الله، يومَ خلقَ السموات والأرض، منها أربعةٌ حرُمٌ، ثلاثةٌ متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلّغت، اللهم اشهد**)[1]

نص واحد من خطبة واحدة، لكنك حين تقرأه ويطرق سمعك سرعان ما تلاحظ وجود التغاير بين أسلوبين، ما إن أجرى النبي صلى الله عليه وآله على لسانه جزءاً من آيات، إلا ولاحظت أن هاهنا النغمة تغيرت، لاحظوا؛ " **أيها الناس إنَّ الشيطانَ يئسَ أن يُعبَد في أرضِكم هذه، ولكنه قد رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم** " أسلوب واحد صحيح، إلى الآن الأسلوب منسجم؛ " **أيها الناس، إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر، يُضلُّ به الذين كفروا يُحلِّونه عاماً ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرم الله**" أسلوبٌ آخر، فوراً تشعر وكأن النغمة اختلفت، "وإن الزمان استدار كهيئته يوم خَلق

[1] تحف العقول ص٣١٣

الله السموات والأرض" لاحظ النبي لم يقل قال الله تعالى بل قال كلام استرسل فيه شيء من الآيات، " **وإن الزمان استدار كهيئته يومَ خَلقَ اللّهُ السمواتِ والأرض، و إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشرَ شهراً في كتاب اللّه"** فوراً تغير اللحن، " **و إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشرَ شهراً في كتاب الله، يومَ خلقَ السمواتِ والأرض، منها أربعةٌ حرُمٌ، ثلاثةٌ متواليات"**، عندما قال ثلاثةٌ متواليات تحس بانقطاع، حتى من لم يحفظ القرآن سيحس بالتغيير، فالآية بتمامها تختلف، واستعمل هنا آيتين من سورة التوبة، الآية الأولى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [١]}، الآية الثانية: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [٢]}، يعني حتى النبي صلى الله عليه وآله ما استعمل الآية بتمامها حتى نلتفت إلى اختلاف جرسها من ختامها، لأن الآياتِ عادةً يتم تمييزها من ختامها، فواصلها تختلف عن بقية الكلام، يكون الأمر

---

[١] التوبة ٣٧

[٢] التوبة ٣٦

أصعب في التمييز إذا ما أخذت صدر الآية أو شطراً منها دون أن تختمها، لاحظوا أن الختاميات هنا.. الكافرين، المتقين، هذه معهودة من القرآن، هكذا خواتيم آياتِ القرآن ، النبي ما وصل إلى خاتمة الآية! فكيف ميزنا أن هذه آية؟ تختلف اختلاف اللحنين، الأسلوبين، الأدبين، أدبُ اللّه على شكل وعلى لحن، وأدبُ محمد صلى اللّه عليه وآله على شكل ولحن آخر، فهذا الاختلاف وهذا التفاوت آيةٌ على النبوّة، لأنه لا يمكن لأحد أن يضبط تعابيره وألفاظه على نحوين أدبيين متغايرين تمام التغاير إلى هذا الحد، خاصة إذا كان مكثاراً في الكلام، فكيف نجد مع كثرة الاستخدام اختلافاً في التعبير، عادة للإنسان المتكلم ألفاظٌ يكثر منها، مثلاً (بصراحة – في الحقيقة – للأمانة – في الواقع) الطبيعي في البشر أن كل إنسان له أسلوبٌ معين، وألفاظٌ كثيراً ما يستعملها جاريةٌ على لسانه كثيراً، إذا حاول هذا الانسان أن يتكلم بكلام كثير في جانب آخر، فمهما أجهد نفسه حتى يغير الأسلوب كلية، فإنك ستجد شيئاً من ألفاظه التي يكثر استخدامها تدخلُ في ذلك الكلام لا محالة، خاصة إذا كان ارتجالاً من غير روية، أو من غير إعداد مسبق، نبينا الأكرم صلى اللّه عليه وآله في أحاديث كان يكثر من استخدام ألفاظٍ معينة ومع ذلك، تفتش في هذا القرآن من أوله إلى آخره، من فاتحته إلى خاتمته، فلا تجدُ هذه الألفاظ إطلاقاً، هذا مغايرٌ للطبيعة البشرية إلا أن يكون قد أوحيَ إليه، وليس من إنشائه، واحدةٌ من تلك الألفاظ التي نجدها تكثر في أحاديثه الشريفة صلى

الله عليه وآله لفظةُ أو تعبير "بئس لعبد" موجودة في الروايات، هذه إحدى الأحاديث في الكافي الشريف أنه صلى الله عليه وآله يقول: (**بئسَ العبدُ القاذورة**)[1] أي القذر، كلمة "بئس العبد" كثرت في الروايات والأحاديث لكنك لا تجد هذا التعبير إطلاقا في القرآن الحكيم، يوجد "نعم العبد إنه أواب" مثلاً، لكن بئس العبد غير موجودة في القرآن أبداً، كيف استطاع أن يضبط نفسه لألا يقع في هذا الخطأ، إنه يستخدم مثلاً هذا التعبير الذي يكثر منه في أحاديثه، ولكن لا يستعمله في آياته إن كانت من إنشائه (والعياذ بالله) ، وأيضاً لفظة أيمُّا، فالنبي صلى الله عليه وآله يستخدم لفظة أيما كثيراً؛ أيمّا مؤمن، أيمّا عبد، أيما امرئ، فمثلاً عندنا في الكافي الشريف أنه صلى الله عليه وآله يقول (**أيمُّا مؤمنٍ نزل في دارِ الحرب فقد برئت منه الذمة**)[2]، هذه كلمة أيما الجارية على لسانه، وعلى ألسنة العرب أيضاً، لنبحث في القرآن عن كلمة أيما!! لن نجدها، هل من المعقول أن يكون هذا القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وآله؟ وقد عُرف منه إكثاره من كلمة أيمًّا، ولا تجد في هذا القرآن من أوله إلى آخره لفظة أيمّا، ما سرُّ كل هذا التغاير والتفاوت مع كثرة الاستخدام إلى هذا الحد وهذا القدر؟ هذا خارقٌ للعادة! وما هو تعريف المعجزة أصلاً؟ المعجزة هي كل ما هو خارقٌ للعادة، فإذا ثبت بالضرورة

[1] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٦ - الصفحة ٤٣٩

[2] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٧ - الصفحة ٢٧٨

والبرهان الواضح وجود هذا التغاير الخارق للعادة فهذه آيةٌ من آياتِ النبوة، هذا مع أن النبي صلى الله عليه وآله كان فصيحاً بليغاً من بيت فصحاءَ وبلغاء، ونجد أن الذين يُنجَبون في بيوت الفصاحة أو البلاغة، أو الشعر والأدب، ونحو ذلك، تتقارب أساليبهم، ولا يمكن لهذا الذي تطبّعَ بطبعِ البلاغة أو الفصاحة أو الإنشاء أو الأدب أو البيان، إلا أن يترك بصمات طبعه هذا على كل ما يصدرُ منه في كل الحقول، يعني حتى إن أراد هذا الفصيح البليغ مثلاً أن يؤلف كتاباً عربياً في علم الهندسة أو الرياضيات، فلا محالة تجد لبلاغته وفصاحته بصمات وآثار تلك الفصاحة والبلاغة على ما ألفه في الهندسة أو الطب أو الرياضيات، لا بد هنالك بعض الألفاظ المتقاربة المتشابهة، والتعابير المتشابهة كذلك، نبينا صلى الله عليه وآله، كان فصيحاً بليغاً، يتحدث بالفصاحة والبلاغة وله أسلوبه الخاص الذي لا يشبه إطلاقا أسلوب فصاحة وبلاغة القرآن الحكيم، هنالك تغاير!

أعرض على حضراتكم ثلاثة نماذج من فصاحته وبلاغته، بالفعل كلمات تعتبر في القمة من حيث الفصاحة والبلاغة، لكنها مهما بلغت من قمة، إلا أنها دون القرآن الحكيم، ولا أقل أنها تختلف اختلافاً جذرياً عن أسلوب القرآن الحكيم في فصاحته وبلاغته.

الحديث الأول في الكافي الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: **(إنَّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرِّهوا عبادةَ الله إلى عبادِ**

الله، فتكونوا كالراكبِ المُنبَتِّ الذي لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى) كلام في منتهى البلاغة والفصاحة، دعوني أشرحه، يقول "**إنّ هذا الدين متين**" الدين له متانة، بمعنى أن له ثقلاً وشدةً فينبغي للذي يتوغل فيه أي يدخلُ فيه بعمق، أن يكون دخوله برفق، "فأوغلوا فيه برفق" لأنك إن جئت إلى هذا الذي تدعوه إلى التدين والالتزام بالدين وأردت منه أن يتوغل في الدين بسرعة من دون تدريج أو تدرُّج، فكثيراً ما يرتدُّ على عقِبيه لما يستشعره من ثقل هذا الدين، هؤلاء الذين كانوا يأتون ويمثُلون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مُشهرين إسلامهم، من الأعراب، بعضهم زعماء أو شيوخ للقبائل، كان يكلفهم النبي صلى الله عليه وآله بأدنى ما هنالك من أحكام الإسلام، لأنهم حديثو عهد بالدين، وذلك لتعليمهم برفق وتدريج حتى يتعمقوا في الدين، فالنهج النبوي يتطلب الرفق في تقديم الدين وعدم الإكراه على العبادة، حيث يقول النبي: " **ولا تكرِّهوا عبادةَ الله إلى عبادِ الله** "، والتشيع أيضاً يحتاج إلى نفس النهج التدريجي، فلا يمكن تحميل من يدخل في التشيع حديثاً بأحكام معقدة من البداية، بل يجب تعليمه خطوة بخطوة، كذلك من يدخل في الإسلام من غير المسلمين يجب التعامل معه بحذر وبمقدمات تدريجية، خاصة إذا كانت هناك روابط أسرية مع غير المسلمين، حتى لا يؤدي ذلك إلى ارتدادهم، فالدين متين ويجب التعمق فيه برفق دون استعجال، حيث إن التعجل قد يؤدي إلى نتائج سلبية كما في حديث النبي "

فتكونوا كالراكبِ المُنبَتِّ الذي لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى " الذي استعجل فقطع سفره وأهلك راحلته دون أن يصل إلى هدفه. فالدين والعلم لا يمكن أخذهما بسرعة أو بدون تمهل وتأنٍ.

كثير من الطلاب يسعون للحصول على العلم بسرعة، لكن العلم يتطلب سنوات من السهر والصبر والتأمل. ليست المسألة في كثرة التعلم، فقد قال أئمتنا عليهم السلام: "ليس العلم بكثرة التعلم". فالعلم الحقيقي هو الذي يتطلب التدبر والتفكر العميق، على سبيل المثال، بعض العلماء يقضون سنوات في دراسة متن واحد، ويتوسعون في استدلالاته ويدرسونه مراراً حتى ينغرس في أذهانهم. يُحكى عن صاحب "العروة الوثقى" أنه كان يراجع دروسه ست مرات يومياً، مما جعله فقيهاً دقيقاً ومعتمَداً من قبل العلماء. هذا النهج العميق في الدراسة هو ما يجعل العلماء يكتبون حواشيهم على كتابه، أما من يحضر الدروس بنصف تركيز وينام أثناءها، ثم يسعى للظهور كعالِم، فهو بعيد عن فهم العلم الحقيقي. العلم يحتاج إلى جهد ونفس طويل، فالاستعجال في التعمق في الدين يؤدي إلى الإرهاق وربما الارتداد. كما قال النبي صلى الله عليه وآله: "**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**"، هذا الحديث الشريف دال على مدى فصاحة وبلاغة رسول الله صلى الله عليه وآله، لكن يجب التمييز بين التدرج في فهم الأحكام والعبادات، وبين أصول

الدين وضرورياته التي لا يمكن التهاون فيها أو تأجيلها. فالتدرج مطلوب في التفاصيل، لكن في الأصول والضروريات يجب الالتزام الكامل من البداية.

نعرض نموذجا ثانياً في الكافي الشريف قام رسول الله صلى الله عليه وآله خطيباً فقال: (**أيها الناس: إيّاكُم وخضراءُ الدِّمَن؛ قيل يا رسول الله وما خضراءُ الدِّمَن؟ قال: المرأةُ الحسناءُ في منبتِ السوء**) أول من ابتكر هذا التعبير "خضراء الدمن" هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وهو تعبير في منتهى البلاغة، يقول "إياكم وخضراء الدمن" يعني المرأة الحسناء هي خضراء مثل النبتة الخضراء التي تسر النظر في هيئتها ومنظرها، لكن منبتها في دِمَن الدمن جمع دِمنة، وهي الأماكن التي تُدمِنُ فيها الإبل وتبعُر، هذا دالٌّ على مدى فصاحة وبلاغة النبي صلى اللّه عليه وآله وكيف يمكن أن يركب تركيباً لغوياً فيه تشبيهٌ واستعارةٌ فائقةُ التصوير، فنحن إزاءَ رجلٍ بليغٍ فصيح، فكيف استطاع مع هذه البلاغة والفصاحة التي تميز أسلوبه الخاص أن يضبطَ نفسه بحيث يغير هذا الأسلوب كليةً إلى أسلوبٍ آخر، لا يستطيع السامع أن يسوّيَ بين الأسلوبين ويجعلهم من مصدرٍ واحد، هذه آيةٌ بحد ذاتها.

المثال الثالث والأخير وهو حقيقةً من أروع ما رأيتُه من بلاغة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، إنه ما جاء في نثر الدرّ للآبي؛ وهو عبارةٌ عن كتاب من كتب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وقد كتبه إلى بني غاديا أو عاديا -على الاختلاف في ضبط اسم أولئك القوم- كانوا قوماً من اليهود، صالحوا النبي

صلى الله عليه وآله وعاهدوه فدخلوا في ذمة المسلمين فكتب لهم النبي صلى الله عليه وآله كتاب الأمانِ هذا، أولاً.. ينبغي أن نلاحظ أنه صلى الله عليه وآله كان قد أوتيَ جوامعَ الكَلِم، واختُصِرَ له الحديثُ اختصاراً، وكانت ميزته اختصار الكلام دون إخلال بالمعنى ودون تطويل تملّه الأسماع، ليس كغيره يعني كما قيل " **خيرُ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ** "، وبالمناسبة هذه الأمثولة هي في الحقيقة مروية عن إمامنا السبط الأكبر الحسن المجتبى عليه السلام، "**خيرُ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ ولم يُطَلْ فيُمَلّ**"، لاحظوا إخواني، في الوقت الحاضر عندما تُعقد معاهدات سياسية أو اتفاقات بين الأمم، تجدون أن هذه المعاهدات تحتوي على العديد من البنود، مثل المادة الأولى والمادة الثانية، وذلك لتجنب أي لبس في الفهم أو التفسير، بينما نبيكم صلى الله عليه وآله كان يختصر كل ذلك في سطر أو سطرين فقط، مع تضمين جميع العناصر المطلوبة.

على سبيل المثال، عندما أبرم النبي صلى الله عليه وآله اتفاقاً مع جماعة من اليهود، مثل بني قريظة أو بني النضير، كان الهدف واضحاً: حماية هذه الجماعة اليهودية مقابل دفعهم الجزية، هؤلاء اليهود يدخلون تحت حماية الدولة الإسلامية، مما يعني أن المسلمين يتحملون واجب الدفاع عنهم إذا تعرضوا لأي اعتداء، وليس على اليهود الدفاع عن أنفسهم، بالمقابل عليهم دفع الجزية كتعويض عن هذه الحماية التي قد تكلف المسلمين دماءهم، وهذا

الوضع مشابه لما تقوم به بعض الدول اليوم، مثل الكويت التي تدفع لأمريكا مقابل الحماية، إذن ليس هناك أي ظلم في فرض الجزية، بل هي مقابل حماية ثمينة، يُقال إن الإسلام يفرق بين المواطنين، ولكن في الحقيقة، المسلم يدفع الزكاة والخمس والخَراج إذا كان يعمل في الزراعة، بينما غير المسلم يدفع نوعاً واحداً من الضرائب وهو الجزية، ومع ذلك يحصل على الحماية والأمن. هذا يعكس رحمة الإسلام وتسامحه، وأحد أهم النقاط في هذه المعاهدات هو عدم نقضها؛ فعندما تُبرم اتفاقية، يجب على الطرفين الالتزام ببنودها . النبي صلى الله عليه وآله كان يصوغ هذه المعاهدات بإيجاز وبلاغة فائقة، معتمداً على أحد أصحابه وكتّابه مثل خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، وبذلك كانت تُكتب هذه المعاهدات في سطر أو سطرين، ولكنها تحتوي على كل ما هو ضروري لضمان الحقوق والواجبات، وهذه إحدى المعاهدات التي كتبت في سطر ونصف أو سطرين لا أكثر، وبمنتهى البلاغة والأدب الرفيع والتصوير الفني الجميل الراقي

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد الرسول الله لبني غادية أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عِداء ولا جَلاء، الليل مَدّ والنهارُ شَدّ وكتبَ خالدُ بن سعيد)

كل كلمة بموضعها ووزنها، تعطيك إيقاعاً جميلاً جداً، أنا متأكّد أنه لما وصلَهم هذا الكتاب حفظوه جميعهم لسهولته وبلاغته، لنشرح الكتاب، "**أن لهم**

الذمّة" معروف لهم الذمّة "**وعليهم الجزية**" لاحظوا نفس الإيقاع الذمّة والجزيّة، "**ولا عداء**" لا يُعتدى عليهم، "**ولا جلاء**" لا نجْليهم أي لا نُخليهم نت مساكنهم، حتى نُوثِّق هذا الكتاب أكثر ونُشدِّده أكثر ونُعطيه صفة أبديّة أنه على تعاقب السنين لا أحد يستطيع نقض هذا الكتاب، هذا الكتاب من رسول اللّه أقوى وأعلى سلطة في الأرض، يعني لو فرضنا أن هؤلاء القوم باقون إلى اليوم في الجزيرة العربية على يهوديتهم لما جازَ لأحدٍ أن يمسّهم بسوء التزاماً بكتاب النبي، "**الليل مدّ**" كل ما يأتي ليل يمُد في هذا العهد أي يستمر، "**والنهار شد**" أي كلما يأتي النهار يتشدد هذا الكتاب (الاتفاقية أو العهد) أكثر فأكثر، فأعطاها صفة أبديّة مستمرة على مر الزمان وصفة تغليظية تأكيدية تشديدية على مر الزمان، في كل ليلٍ ونهار، يعني يقول النبي في كل ليلٍ يأتي أنا أمدُّ في هذا الكتاب مدّاً وفي كل نهار يأتي أنا أشدُّ هذا الكتاب شدّاً، لا يوجد عبارة أوجزُ وأعمق وأبلغُ وأوثق من هذه، "**وكتب خالد بن سعيد**" أيّ الذي كتب عن النبي صلى اللّه عليه وآله هو خالد بن سعيد بن العاص.

هذه ثلاثة موارد أو أمثلة تدلك على عِظَم بلاغة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فمع الأخذ بالاعتبار أو الالتفات إلى هذه البلاغة التي كانت تميّزه لمَ لا نجد مثل هذه الألفاظ والأسلوب في القرآن؟

الآن أنا تلوت عليكم ثلاثة من أحاديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله البليغة، هل تجدونها على بلاغتها وفصاحتها تشابه بلاغة وفصاحة القرآن الكريم؟

أم أن هاهنا أسلوبين متغايرين غير متماثلين، مع الأخذ أيضاً بالاعتبار أنه صلى اللّه عليه وآله كان من بيت فصاحة وبلاغة، هُم أفصح العرب وأبلغهم، فقد نشأ في بيت عبد المطلب عليه السلام، و بنو عبد المطلب بلغاء وفصحاء، فعبد المطلب نفسُه جد النبي صلى اللّه عليه وآله كان أفصحَ وأبلغَ وأشعرَ العرب، كان شاعراً.. عمُّه أبو طالب كان شاعراً بليغاً، بل حتى أبوه عبد اللّه بن عبد المطلب عليهم السلام، هذا الرجل العظيم الجليل المجهول القدر مع الأسف، الذي تظلمه الفرقة البكرية المنحرفة، فتنسب إليه الكفر وأنه في النار نعوذ باللّه.. لأنهم يروون حديثاً موضوعاً عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فيه أنه قال لأحدهم: (**إن أبي وأباك في النار**)[١] نعوذ باللّه..

وما لم تصحح الفرقة البكرية موقفها هذا وتتوب إلى اللّه عز وجل فإنه لا يمكن قبول إسلاميتها أبداً، المسلم لا يطعنُ في أصل النبي سوأةٌ لكم، سيدنا عبد اللّه ابن عبد المطلب وليٌّ من أولياء اللّه جل وعلا، و لولا أنه كذلك لَما اختار اللّه سيدَ خلقه من صلبه، طاهرٌ مطهَّر ابن طاهرين مطهرين من ذرية

---

[١] صحيح مسلم (٢٠٣)

اسماعيل وابراهيم الخليل، هؤلاء ورثةُ بيت اللّه..كانوا على الإبراهيمية، على التوحيد، على الحنيفية.

هذه عقيدتنا نحن المسلمون أتباع أهل البيت عليهم السلام، فلا نقبل الإساءة أبدًا لوالدَي الرسول الأكرم صلى اللّه عليه واله ولا لوالدَي أمير المؤمنين عليهم سلام اللّه عليهم جميعاً..

بل عندنا في الأحاديث وفيما علَّمَنا أئمةُ أهل البيت النبوي عليهم السلام أعمالاً نتقرب بها إلى اللّه حين نهديها إلى هؤلاء، فلدينا عمل من القُرُبات مذكورٌ في الكافي الشريف: أن أحداً يأتي الإمام عليه السلام ويقول:(**إن لي دَيناً فماذا أفعل؟ فقال الامام: إذا صرت بمكة فطف عن عبد المطلب طوافا، وصل عنه ركعتين، وطف عن أبي طالب طوافا، وصل عنهركعتين، وطف عن عبد الله طوافا، وصل عنه ركعتين، وطف عن آمنة طوافا وصل عنها ركعتين، وطف عن فاطمة بنت أسد طوافا، وصل عنها ركعتين**[1] .

والشيء بالشي يُذكر أن آمنة بنت وهب عليها السلام أيضاً يطعن فيها هؤلاء السفهاء ويقولون أنها ماتت مشركة والعياذ باللّه، وأنها في النار وأن النبي نُهي عن أن يستغفر لها، وَالِدَةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللّه عليه وآله مَاتَتْ مُشْرِكَةً! نَعُوذُ بِاللَّه، هذا كله لأنهم أخذوا بهذه الأحاديث المكذوبة.. كأحاديث أبي

---

[1] ج ٤ ص ٥٤٤

هريرة وأحاديث عائشة، ما رجعوا إلى أحاديثِ أئمة أهل البيت، ولا رجعوا حتى للتاريخ الصحيح..

و كيف تقولون أنهم من أهل النار وهم من أهل الفترة؟ أي ماتوا قبل بعثة الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام- على أقل تقدير، هذا مناقضٌ للقرآن الحكيم، فلا حساب عليهم في ذلك، وثم ماذا نفعل مع كل هذه الدلائل الواردة في التاريخ، الدالة على أنهم كانوا موحّدين ابراهيميين على ملةِ ابراهيم الخليل عليه السلام؟ ماذا نفعل مع كل تألُّههم هذا الذي سارت به الركبان؟

كيف تستحلُّ أنت كمسلم أن تطعن في والدَي رسول الله بهذه الطريقة؟ هؤلاء تثور ثائرتُهم إذا طعن احد بوالدَي معاوية يعني أبو سفيان.. يجرّمونه بالفعل! هند بنت عتبة أكلة الأكباد إذا طعن بها أحد تثور ثائرتهم.. لكنهن يطعنون في عبدالله ابن عبد المطلب و آمنة بنت وهب سلام الله عليهما، ومن يدافع عنهما يحاكمونه، يقولون أنت نقضت الأحاديث الصحيحة!!

أئمتنا عليهم السلام يقولون اذهبوا و طوفوا عن هؤلاء و أهدوا هذه الأعمال إليهم، فلو كانوا نعوذ بالله مشركين فلمَ يأمرنا أئمتنا بهذا؟

فمع الأسف هذه الأمة ما زالت تضلم رسول الله صلى الله عليه وآله في آبائه في أمهاته في أبناه في عترته في أهل بيته كأنهم عندهم ثأر مع هذا النبي و

هذا كله ترجمة لما قاله عمر بن الخطاب:(**إنما مَثَلُ محمدٍ كمثلِ نخلة نبتت في كُبا**) [1]يعني في قمامة نعوذ بالله، إنه الحقد على آل النبي، أي النبي نخلة نبتت في قمامة! فليقرأ وليتطلع هؤلاء الذين لا زالوا مع الأسف يحترمون عمر ابن الخطاب ويتولونه على هذه الحقائق، هذا أمر معلوم أن عمر أساء لرسول الله صلى الله عليه وآله في أهله، فغضِب النبي غضباً دعاه إلى أن يقوم على المنبر ويلقي بياناً ضد عمر، أدى هذا الغضب إلى أن يرفع الأنصار السلاح وقالوا أُغضِبَ نبيكم! لمّا وجه هذه الإهانة للنبي.. وقف خطيباً وقال: (**ما بالُ أقوامٍ ينتقصون أهلَ بيتي ألا لا يقومنَّ أحدٌ منكم الآن ويسألني من أبوه إلا أعلمته**) هذا الذي يتكلم على أهلي وأصلي وشجرتي، سأعلمه بأصله، و المسلمون كلهم محتشدون في المسجد النبوي الشريف و الأنصار محدقون برسول الله صلى الله عليه وآله، مشهرون سيوفهم على عمر، قام أحدهم قال من أبي قال أبوك فلان الذي تُدعى إليه، قام واحد آخر من أبي قال أبوك واحد آخر غير الذي تُدعى إليه، فانكشفت السوءة، قام ثالث، قام رابع، النبي يقول ما بال الذي انتقصَ أهل بيتي لا يقومنَّ فيسألني من أبوه!،

[1] كتاب سليم بن قيس ص٢٣٥

فقال عمر: **يا رسول الله اعفُ عنا عفا الله عنك لا نعود** [1]، فنزل قوله تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ] [2].

موقف آخر، رأى عمر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وآله تبكي على ابن لها قد توفي، فقال لها: لا تبكي فوالله إن قرابتك من محمد لا تنفعك شيئاً، فغضب النبي صلى الله عليه وآله و هذا مروي حتى عند المخالفين[3]، حتى قام خطيباً وقال: (**ما بالُ أقوامٍ يقولون إن قرابتي لا تنفع، إن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي**) [4،5].

---

[1] تجدونها في تفسير القمي ج1 ص188، وصحيح البخاري برقم 92، حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس سلوني عما شئتم قال رجل من أبي قال أبوك حذافة فقام آخر فقال من أبي يا رسول الله فقال أبوك سالم مولى شيبة فلما رأى عمر ما في وجهه قال يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عز وجل.
وكذا مسند أبي يعلى الموصلي رقم الحديث: 3641، وفي تفسير الطبري:12801 وفي مجمع الزوائد للهيثمي كتاب علامات النبوة - باب في كرامة أصله صلى الله عليه وآله: 13823.

[2] المائدة ١٠١

[3] جواهر العقدين : ٢ / ١٩٨ مجمع الزوائد : ٨ / ٢١٦

[4] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٣١ - الصفحة ٢٨

[5] الفصول المهمة في معرفة الأئمة - ابن الصباغ - ج ١ - الصفحة ١٥٢

فأنا عندي رسول اللّه شهد له القرآن بالطهارة، وأنه متقلب في الساجدين.. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ[1] فليس بعد شهادة القرآن شهادة، فعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: (**إن الله اصطفى قريشاً، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب، فأنا خِيارٌ من خِيارٍ من خيار)**...[2]

يقولون عنهم مشركون وسيرتهم -أي سيرة عبد المطلب وعبد اللّه ابن عبد المطالب وأبي طالب- تثبت بالذات أنهم متألّهون موحِّدون ومرتبطون باللّه عز وجل، لاحظوا مثلاً ما يقوله إمامنا الصادق عليه السلام في شأن يوم الفيل[3].. يوم هجوم أبرهة على بيت اللّه عز وجل بجيشه الجرار، يعلم القارئ ماذا جرى، أن عبد المطالب عليه السلام خرج إليه وفاوضه و ثم قال إن للبيت رباً يحميه.. فقال له "**إن لهذه البَنيِّة ربّاً يدفع عنها**" قال أبرهة **فإني غادٍ لهدمها حتى أنظر ماذا يفعل، فلما انصرف عبد المطلب حلَّ أبرهة بجيشه فإذا هاتفٌ يهتفُ في السحر الأكبر: يا أهل مكة أتاكم أهل عكة بجحفل جرار يملأ الأندار -الأندار**.. يعني جمع الأندر أي البيدر -، **يملأ الأندار مِلأَ الجفار** - و هو جمع الجفرة وهي الأرض الواسعة المستديرة.

---

[1] المائدة ٢١٩

[2] أخرجه المفيد في " الأمالي ص / 216 م / 25 ح

[3] جامع أحاديث الشيعة - السيد البروجردي - ج ١٠ - الصفحة ٤٧

و هذه الأبيات القادمة علاوة على أنها تدلك على أن النبي صلى الله عليه وآله نشأ في بيت بلاغة وفصاحة لأن عبد المطلب كان بليغاً فصيحاً شاعراً مجيداً، تدلك أيضاً على تألُّهه وأنه يؤمن بالله لا يؤمن بالأوثان، يقول:

أيها الداعي لقد أسمعتني... كلما قلتَ، وما بي من صمَم

إنَّ للبيتِ لربّاً مانعاً... من يرده بآثامي يَصطلِم

رامَه تُبَّعٌ في أجناده... حِميَرٌ والحيُّ من آلِ إرَم

هلكتْ بالبغيِ فيه جُرهُمٌ... بعد طسمٍ وجَديسٍ وجُثَم

وكذاكَ الأمرُ فيمن كادَه... ليسَ أمرُ اللهِ بالأمرِ الأُممَ

نحنُ آلُ الله فيما قد خلا... لم يزل ذاك على عهدِ ابرهم

لم يزل لله فينا حجةٌ... يدفعُ اللهُ بها عنها النِّقم

نعرفُ الله وفينا شيمةٌ... صلةُ الرحمِ ونوفي بالذِّممَ

ولنا في كلِّ دورٍ كرَّةٌ... نعرفُ الدينَ وطوراً في العَجم

فإذا ما بلغَ الدورُ إلى... مُنتهى الوقتِ أتى طيرُ القِدم

بكتابٍ فُصّلت آياتُه... فيهِ تِبيانُ أحاديثِ الأمم[1]

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٥ - الصفحة ١٤٠

يتنبّأ عبد المطلب ببعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وبأنه سيأتي بكتابٍ فُصّلت آياته، وسيكون حديث الأمم، وهذا ما حصل بالدقة، يتكلم عبد المطلب عن المستقبل مما يعني أنه مطلع على الغيب متصل بالسماء، وتقولون عنه إنه كافر! نعوذ بالله!

يقول الإمام الصادق عليه السلام: "**فلما أصبح عبد المطلب في اليوم التالي** -وهو اليوم الموعود للهجوم- **جمع بنيه وأرسل الحارث** -ابنه الأكبر- **إلى أعلى جبل أبي قبيس فقال: انظر يا بُني، ماذا يأتيك من قِبل البحر** لماذا أرسله إذا لم يكن متصلاً بالسماء؟ لماذا يذهب ويقول انظروا وانتظروا علامة معينة تأتي من الله عز وجل؟ هذا يدل على أن هؤلاء أولياء الله متصلون بالله عز وجل، **يقول: فرجع فلم يرَ شيئاً** -أي الحارث- **فأرسل واحداً بعد الآخر من وِلده** -لديه عشرة أبناء-، **فلم يأتِهِ أحدٌ منهم عن البحر بخبر، فدعا ولده عبد الله عليه السلام** -و هذا الولد أصغرهم، ومن أشرفهم وأطهرهم وأعظمهم مكانة عند أبيه- يقول: **فدعا ولده عبد الله وإنه لغلام حين أيفع** -أي فتى قد بلغ- **وعليه ذؤابة تضرب إلى عجزه** -شعره مسترسل طويل.. وبالمناسبة عبد الله عليه السلام كان آية في الوسامة، فعندما تزوج آمنة بنت وهب عليها السلام، الروايات التاريخية تذكرُ أن مئة امرأة في مكة ماتت كمداً، لم يقدرن على تحمل أن هذا الشاب سيصبح زوجاً لامرأة أخرى، كأن

فيه نور رسول الله صلى الله عليه وآله فما بالكم بجمال ابنه محمد ابن عبد الله عليه و على آله الصلاة والسلام.

يقول: **فدعا عبد المطلب عليه السلام ولده عبد الله عليه السلام، وإنه لغلام حِين أيفع، وعليه ذؤابة تضرب إلى عجزه، فقال له: اذهب فداك أبي وأمي** - هذا عبد المطلب، شيخ قريش وبني هاشم، يفدّي عبدَ الله بأبيه وأمه، وذلك لعظم مكانته، يعلم أن من صلبه خاتم الأنبياء- **اذهب فداك أبي وأمي، فاعلُ أبا قبيسٍ وانظر ماذا ترى يجيءُ من البحر فنزل مُسرِعاً وقال: يا سيد النادي** -هذه العبارة من عبد الله عليه السلام دالةٌ على بلاغته، كان بليغاً، مع أنه كان غلامًا يافعًا حِينئذٍ، إنه من تعليم الله عز وجل- قال له: "**يا سيد النادي**" النادي يعني المكان الذي يجتمع فيه القوم فيجلسون ويتحدثون، حيث مكان مجالسهم يسمونه النادي.. و سيد النادي كناية عن سيد القوم لأنه كان سيد القوم، أي سيد مكة.

قال: **يا سيد النادي، رأيتُ سحاباً من قبل البحر مقبلاً، يَستَفِلُ تارةً ويرتفع أخرى إن قلتُ غيماً قلَّتْهَ، وإن قلتُ جَهاماً خلَّتْهُ**، ما الفرق؟ إن قلتُ غيمًا، الغيم هو الذي يحمله الماء، هذا يسمى الغيم. إن قلتُ غيمًا، قلته، وكأن هذه الغيمة قد أقلَّت ماء البحر، **وإن قلتُ جَهاماً**، الجهام عكس الغيم، و هو السحاب الذي لم ينزل مطره، **وإن قلتُ جهامًا، خلتْهُ** أي كأنها أفرغت الماء

بالأمطار. وهو تعبير بليغ جداً من مولانا عبدالله عليه السلام، **يرتفع تارةً وينحدر أخرى**.. هذا الذي رأيتُ من أعلى جبل أبي قبيس

فنادى عبد المطلب: يا معشر قريشٍ ادخلوا منازلكم، فقد أتاكم الله بالنصر من عنده. ما هذا الغيم العجيب الذي من بعيد يبدو غيماً؟ ولكن عندما اقترب بدا شيئاً آخر، **فأقبلت الطير الأبابيل، في منقار كل طيرٍ حجر، وفي رجليه حجران، فكان الطائر الواحد يقتل ثلاثة من أصحاب أبرهة**"[1]. لا يخطئ، كل طير من هذه الطير الأبابيل معه ثلاثة أحجار.. ينزلها على ثلاثة، يقتلهم ولا يخطئ هدفاً! هذه كرامة الله عز وجل لعبد المطلب، لعبد الله بن عبد المطلب، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلوات الله عليهم أجمعين..

يقول عبد المطلب عليه السلام: **نحن آلُ الله**، وأنتم تعلمون إخواني، قليلٌ ما بلغنا أو وصل إلينا من أقوال والدِ رسول الله صلى الله عليه وآله، فسيدنا عبد الله بن عبد المطلب قليل المأثورات عنه .. و هذه إحداها من النوادر، رواها لنا إمامنا الصادق عليه السلام، وأوقفتنا هذه الرواية على هذه الحقيقة، أن والد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى وهو في فتوته وبداية بلوغه كان يتمتع ببلاغة فائقة و فصاحة فائقة، نبينا ورِث، هؤلاء فيكون نبينا

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٥ - الصفحة ١٤١

صلى الله عليه وآله على هذا المستوى من الفصاحة والبلاغة، من هذا البيت الذي يشعُّ فصاحةً وبلاغةً وأدباً وبياناً، ومع هذا لا يترك هذا كله على جنسِ ما تفوّه به من كلام القرآن أثراً، فتلك لعمري آية النبوة، لأنه لا يتأتى لأحد نشأ هذه النشأة، واصطبغَ بهذه الصبغة الأدبية والبلاغية، حتى صارت لساناً قد عُرف به، بألفاظه وتعابيره وإكثارهُ من التراكيب اللغوية والكلمات والألفاظ.. أن لا يترك هذا كله على جنس كلامه بالقرآن أثراً؛ هذا لا يتأتّى محال!، هذا التفاوت والتغاير آيةٌ من آيات النبوة، دليلٌ من دلائل صدق الرسالة، أعيدوا اكتشاف نبيكم صلى الله عليه وآله واقمعوا بهذه الحجج خصومه الذين يشككون بنبوته..

الفصل السّادس

تلميذُ الإلهِ في الأدبِ والفصاحة!

أوتيَ نبيُّنا الأعظم صلى اللّه عليه وآله من الفصاحة أعلاها وأسماها، وكان من آياته في ذلك ما تناقلته الأُدباء، والفُصحاء، والبُلغاء، وذكرَته بلسانِ الانِبهار والإعجاب منقطع النظير، والتسليم بأنه صلى اللّه عليه وآله كان أفصحَ العرب، اكتسب فصاحتَه في ظاهر الصورة من نشأتِه في بيت فصاحة وبلاغة، ومن نشأته في البادية، حيث كانت العرب إذا أرادت لأولادها أن تتعلم الفصاحة وتتشربها من أصولها، كانت تجعل أولادها يرضعون في البادية، لتكون سنوات عمرهم الأولى حيث يلتقطون الكلمات والألفاظ في البادية عند الأعراب، الذين هم أهل اللغة أصلاً، لذا كانوا يودعون أبناءهم لدى قبائل بدوية من أهل الوبر[1] لا من أهل المدر[2] "

نبيُّنا الأعظم صلى اللّه عليه وآله نشأ في بني سعد، فإنه استُرضع فيهم.. سلّمَهُ أهلُه بعدما ولد، للسيدة حليمة السعدية سلام اللّه عليها، فكانت أمه بالرضاعة، وهناك في ظاهر الصورة، التقط ما التقطَه من فصاحة العرب، قريشٌ وهم عشيرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله من جانبهم عُرفوا كذلك بأنّهم أرقُّ العربِ كلاماً، إذ كانوا يتخيّرون الألفاظ من لغات العرب ولهجات العرب ما كان أحسنَه وأجملَه وأفضلَه وأرقَّه، وذلك لأن العرب بقبائلِها كانت تفِد إليهم في الموسم في مكة المكرمة في أيام الحج، فكانت قريش تستقبلُ هذه

[1] أي أهل الوبر "البادية"

[2] أي أهل الحضر

الوفود وتستمعُ من أهلها لغاتهم ولهجاتهم وتعابيرهم، فكانت تتخيّر الألفاظ الحسنة والبديعة، ومن هنا كانت لغةُ قريشٍ أفضلَ لغات العرب، فرجلٌ نشأ في هذا البيت، وفي هذا المجتمع القرَشي، وفي ذلك المجتمع السعدي، لامحالةَ يكونُ قد اكتسبَ من الفصاحة ما كان من أعلاها.

هذا في ظاهر الصورة التي إنمّا تكونت تعليماً لنا نحن، لكي نقتدي ونتأسى نحن بها، فمن أرادَ لأبنائه أن يتعلّموا اللغة من منابِعها الصافية الأصيلة، فإن إحدى الوسائل لتحقيق ذلك تكون بأن يعهد بأبنائه إلى قومٍ من العرب الأقحاح يربّونهم..

أما في حقيقةِ الصورة وباطنها، فإن نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله بلغ من الفصاحة قمّتها وشأوها، لأنه كان له معلم خاصّ، لم يكن لغيره من البشر، هذا المعلّم أو الأستاذ **هو رب العالمين تبارك وتعالى.**

ونبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله كان تلميذ هذا الأستاذ، تلميذه الفريد.. الذي تلقى منه الأدبَ والفصاحة والبلاغة والحكمة، بما لم يتلقّه أحدٌ غيرُه بمثله وبمقداره، شيخنا المفيد عليه الرحمة والرضوان يروي في كتابه "الاختصاص[1]" عن بعض الهاشميين، رفعَ الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛ أن أعرابياً أتاه فقال: "**يا رسول الله أيُدالِكُ الرجلُ امرأتَه؟، قال:**

[1] الاختصاص - الشيخ المفيد - الصفحة ١٨٧

نعم إذا كان ملفَجَا"، لعلك تسألني عن معنى هذه العبارة.. سيأتي بيانها بعد حين إن شاء الله فترقب، "**فقال هذا الأعرابي: يا رسول الله من أدَّبك؟!**" لماذا سأل رسول الله هذا السؤال بعدما أجابه رسول الله بذلك الجواب..

كأن الأعرابي جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله يختبره أيعرف لغاتٍ لا تعرفها قريشاً؟ ففوجئَ بأن النبي يعرف ويُجيب وبكلمة فصيحة أيضاً، فهنا اندهش الرجل وقال من أدَّبك؟ يعني من علمك هذا؟ "**يا رسول الله من أدَّبك؟! قال صلى الله عليه وآله: اللهُ أدَّبني، وأنا أفصحُ العرب ميدَ أني من قريش**"!

ـــ نُكتةٌ لغوية من وَحيّ حديثه عليه وآله السلام

بالمناسبة "ميد" مروية عن النبي صلى الله عليه وآله أنه استعملها في هذا المقام، وفي تفسيرها أقوال، فهنالك من قال "**ميد**" هي بمعنى "بيدَ" أي تأخذ معنى "**غيرَ**"، وأن الباء انقلبت إلى ميم، وأنَّ هذا جارٍ أحيانا في بعض لغات العرب، من باب القلب، وهو قلبُ الباءِ إلى ميم.

وهنالك مَن فسّرها بهذا التفسير.. فيكون معنى عبارته صلى الله عليه وآله: "**الله أدَّبني وأنا أفصحُ العربِ، بيدَ أني من قريش**" يعني غير أني من قريش، وهناك من يقول معناها "**على أنَّ**"، فيصبح كلامه: "**وأنا أفصحُ العربِ، على**

أني من قريش" يعني رغم كوني من قريشٍ، التي يفترض أن لا تكون هي الأفصح لأنها كانت تتخيّر الكلام..

هناك تفسيرٌ آخر قال: معناها "**من أجل أنّي**" يعني أخذت معنى السببية والتعليل، "**وأنا أفصحُ العربِ من أجل أنّي من قريش**".

كأنه يقول إنما اكتسبتُ الفصاحة لاكتساب قريشٍ إياها من لهجات ولغات العرب، وتفسيرٌ رابع أنّ المقصود "**وإن كنتُ**"، "وأنا أفصح العربِ، **وإن كنتُ من قريش**" فكأنّه هنا يشيرُ إلى حالتِه الاستثنائية..

أنه مستثنى عن باقي قريش إذ صار أفصحَ العرب مُلِمّاً بكل لغاتها ولهجاتها والفاظها وتراكيبها اللغوية.

حار إذاً الحائرون في تفسير قوله صلى الله عليه وآله "ميد أني" ولكنّه استعمل هذه اللفظة، "قال له الأعرابيّ: **يا رسول الله من أدَّبَكَ؟، قال: اللهُ أدّبني، وأنا أفصحُ العربِ، ميدَ أنّي من قريش، ورُبِّيتُ في الفخر من هوازٍ بني سعدِ بن بكر**".

لما تكفلت به وبرَضاعهِ السيدة حليمة السعدية عليه السلام، نبيُّنا هنا صلى الله عليه وآله يصرّح بأنه أفصح العرب مع كونه من قريش وأنه رُبّي في هوازن ... في بني سعدِ بن بكر..

يستمرّ المفيد فينقلُ لنا حوادثَ تبينّ لنا فصاحَتَه صلى الله عليه وآله، "يقولُ [1]**ونشأت سحابةٌ، فقالوا: هذه سحابةٌ قد أظلّتنا، فقال صلى الله عليه واله: كيف ترونَ قواعدَها، فقالوا: ما أحسنها وأشدّ تمكُّنَها، قالَ: وكيف ترَونَ رَحاها، فقالوا: ما أحسنَها وأشدَّ استدارَتها، قال: وكيفَ ترونَ البرق فيها وميضاً أم خَفْواً أم شقَّ شقاً**[2] "؟

لأن كل صفة من هذه الصفات تدل على نوعية هذه السحابة، وما تحمله لنا، أهي ممطرة أم غير ممطرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما أجابوه عن صفات هذه السحابة التي لاحت أو نشأت لهم، **قال لهم: قد جاءَكمُ الحياء!**

وهذه من فصاحته فمن ذا يعلم أن الحياءَ في لغة العرب الأصيلة عند الأعراب إنما هو المطر، لما استنطقهم وسألهم عن صفات هذه السحابة، وقد استنطقهم بلغةٍ فصيحة، وأجابوه كذلك، أعطاهُم النتيجة وبشّرهم بالمطر، وقال لهم قد جاءكم الحياء أي المطر، فقالوا: **يا رسول الله ما رأينا أفصحَ منك!**.. من أين جئت بهذه الألفاظ التي لا تستعملها قريشاً؟ قال: **وما**

---

[1] الاختصاص - الشيخ المفيد - الصفحة ١٨٧

[2] في إحدى النُسخ: أم بواسقها

يمنعني وانا أفصحُ العرب، وأنزلَ اللهُ القرآنَ بلغتي، وهي أفضلُ اللغات، ميد أنّي رُبّيت في بني سعد بن بكر"..

نعود إلى بداية الرواية حتى نفسر ما ورد فيها، **أن أعرابياً أتاه فقال: "يا رسول الله أيُدالِكُ الرجلُ امرأتَه؟، قال: نعم إذا كان مُلفَجَا"**، فما معنى ذلك؟

الحقيقة أنّ هذه الحادثة، حادثة مجيء هذا الأعرابي وسؤاله الاختباري للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، مرويّة عندنا، كما هي مروية عند مخالفينا، مع بعض التفاصيل. ارجعوا إلى تأريخ جرجان لحمزة السهمي[1]، تجدونه يروي عن محمد بن عبد الرحمن الزُّهري عن أبيه عن جده، **قال: قال رجلٌ من بني سليل: "يا رسول الله أيُدالِكُ الرجلُ امرأتَه؟، قال: نعم إذا كان مُلفَجَا"، فقال له أبو بكر: "يا رسول الله، ما قال لك؟ وما قلت له؟".**

كان أبو بكر حاضراً في ذلك المجلس، وعندما سمع هذه الكلمة من النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، كان مندهشاً ولم يفهم معناها، لا يعلم ماذا سأل الأعرابي ولا ماذا أجاب الرسول الأكرم صلى اللّه عليه وآله وسلم، فأجابه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: **"إنه قال: أيماُطلُ الرجلُ أهلَه؟"**، أي بمعنى: **هل يماُطلهم في دفع مهرهم؟ فقلتُ له: "نعم، إذا كان مُفَلَّساً"**.

---

[1] تاريخ جرجان - حمزة بن يوسف السهمي - الصفحة ١٨٨

إذاً السؤال كان حول المماطلة في دفع المهر.. قد يماطل الرجل زوجته في دفع مهرها، وهذا حق للمرأة، فهو دين على الرجل. فحتى لو مات، يجب أن يُخرج هذا الحق من تركتِه.. فالمسألة الشرعية هي: **هل يجوز للرجل أن يماطل في دفع مهر امرأته، خاصة إذا كان مقتدراً؟** الجواب: **لا يجوز**. إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجاز ذلك فقط في حالة واحدة، وهي إذا كان الرجل مُفلِساً، أي لا يملك القدرة المالية على دفع المهر.

هنا يأتي السؤال: الناس تقول "**فلان مُفلِس**"، ما معنى كلمة "**مُفَلَّس**"؟ وهو المصطلح الأصح، بمعنى من لا يملك المال. إذا كان الرجل مُفلَّساً، فلا بأس أن يتأخر في دفع المهر، أما إذا كان مقتدراً، فلا يجوز له أن يماطل.

في هذا المجلس، **قال أبو بكر**: "**يا رسول الله، لقد طفتُ في العرب، وسمعتُ فُصَحَاءَهم، فما سمعتُ أفصحَ منك، فمَن أدّبك؟**"، **قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم**: "**ربّي، ونشأتُ في بني سعد**".

هنا يوجد سبب **إلهي** في فصاحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك سبب **ظاهري** وهو نشأته في بني سعد، حتى يقتدي الناسُ بذلك، اشتهرت القبيلة بالفصاحة.

أبو بكر، رغم طوافه في قبائل وأحياء العرب وسفراته وسماعه من فصحائِهم، اعترف بأنه لم يسمع أفصح من رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم، كما اعترف بأنه لم يكن يفهم شيئاً من كلامه. وهذا يدل على محدودية معرفته باللغة العربية... كان يجلس في المجلس مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويسأل النبي ويستمع إلى جوابه، ولكنه لم يكن يفهم الموضوع أو الهدف، إذا رجعتم إلى أحوال المنافقين، ستجدون أنهم كثيراً ما كانوا يجلسون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن لا يفقهون حديثه، ولاسيَما أنهم ممن طبعَ الله على قلوبهم وأسماعهم..

قال الله تعالى في القرآن الكريم: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ))[١].

هؤلاء لم يفهموا حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ورد في تفسير القمّي أنّ هذه الآية نزلت في المنافقين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. كانوا يستمعون إلى كلام النبي ولا يؤمنون به ولا يعقلون ما يقول، هؤلاء الذين طبع الله على قلوبهم هم الذين كانوا يستمعون ولكن لا يعقلون حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب اتباعهم أهواءهم.

---

[١] سورة محمد ١٦

يقول القمي[1] حدّثنا محمد ابنُ أحمد ابنِ ثابت، قال حدثنا الحسنُ ابنُ محمّد عن سماعةَ عن وهبِ ابنِ حفص، عن أبي بصير، **عن أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام، قال: سمعتُه يقول: "إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله كان يدعو أصحابه، فمن أراد الله به خيراً سمعَ وعرفَ ما يدعوه إليه، ومن أرادَ اللّهُ به شراً طبعَ على قلبِه، لا يسمعُ ولا يعقِل**"..

وهذا هو قول اللّه تعالى في الآية السابقة، أما في تفسير البرهان.... وردت رواية توضّح لنا من هم "**الذين أوتوا العلم**" الذين كان المنافقون يسألونهم قائلين: "ماذا قال آنفاً؟"، "**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**" هناك الفرق بين "يستمع" و"يسمع"، الذي يسمع لا يقصد الاستماع أي الصوت طرق سمعك، أما المستمع هو القاصد الذي ينصت بتركيز، في هذا السياق، ننتبه إلى الآية الكريمة التي تقول: { **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ** }، لم يقل "يسمع"، بل قال "يستمع"، أي أن المنافق كان يقصد الاستماع، يحاول الفهم، لكن لا يفهم شيئاً. ثم تقول الآية: {حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا}[2].

---

[1] تفسير القمي - ج ٢ - الصفحة ٣٠٣

[2] محمد : ١٦

جاء في تفسير البرهان[1] عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام قوله: "**كنَا نكونُ عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيُخبِرنا بالوحي، فأعيه أنا دونَهم واللهِ وما يَعَونَه**"، ومعنى ذلك أن مستويات أصحاب النبي في فهم الوحي كانت متفاوتة، فكانوا بحاجة إلى من أوتي العلم ليعيد شرح كلام النبي والوحي إليهم، هذا هو السر في أن النبي صلى الله عليه وآله وصف علياً بأنه "**القرآن الناطق**".

لأن الوحي قد يحتاج إلى شارح ومفسر يفسر معانيه وأحكامه. لكن مأساة هذه الأمة أنها أهملت هذا الشارح وارتدت عنه وناصبته العداء، وأخذت من الأراذل غيره لتفسير القرآن. إذا أرادت الأمة أن تنهض مجدداً، فإن عليها أن تعود إلى القرآن الناطق، الذي يفسر القرآن ويبين معارفه وأحكامه وحدودَه، يقول عليه السلام: "**كنا نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبرنا بالوحي، فأعيه أنا دونهم والله وما يعَونَه، وإذا خرجوا قالوا لي ماذا قال آنفًا؟**". وكان أبو بكر من هؤلاء الذين طبع الله على قلوبهم فلا يفهمون، لم يكن أبو بكر فصيحاً أو عالماً باللغة، وكان محدود المعرفة والإدراك، ولم يكن يجيد فهم القرآن، القصة المشهورة التي تروى في هذا السياق هي فضيحته عندما سُئل عن قوله تعالى: {وَفَـاكِـهَةً وَأَبًّا}[2]، فلم يعرف معنى "الأبّ"، هذه

[1] الجزء : 5 صفحة : 61

[2] عبس ٣١

الرواية مروية في كتب المخالفين،[1] تجدهم يروون عن إبراهيم التيميّ أن أبا بكرٍ سُئل عن (فـاكـهةٍ وأبّـا) فأجاب: **"أيُّ سماءٍ تُظلّني، وأيُّ أرضٍ تُقلّني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"!**

أما المفيدُ رحمه الله فيَروي في إرشاده[2] أن أبا بكرٍ سُئِلَ عن قول الله تعالى (وفـاكـهةٍ وأبّـا) فلم يعرف معنى الأبّ في القرآن فقال: " **أيُّ سماءٍ تُظلّني، أم أيُّ أرضٍ تُقلّني، أم كيفَ أصنعُ إن قلتُ في كتاب الله بما لا أعلم، أما الفاكهةُ فنعرفها، وأما الأبُّ فالله أعلمُ به**" .

كيف ينصّب نفسه خليفة وإماماً لهذه الأمة وهو يعلم بجهله وفقره اللغوي والشرعي والفقهي وفيها من هو أعلمُ منه، فبلغَ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله في ذلك، فقال[3]: " **يا سبحان الله، أمَا علمَ أن الأبَّ هو الكلأُ والمرعى، وأن قوله تعالى: {وَفَـاكِـهَةً وَأَبًّا} اعتدادٌ من الله تعالى بإنعامه على خلقِه بما غذاهُم به، وخلقَهُ لهم ولأنعامِهم مما تحيا به أنفسُهم، وتقومُ به أجسادُهم**".

هذه اللفظة كانت تستخدم حتى في قريش، الأبّ، كما قال علي عليه السلام،

---

[1] كمصنف ابن أبي شيبة ورقم الرواية هناك 30107 والدر المنثور للسيوطي، وفتح الباري لابن حجر

[2] الإرشاد - الشيخ المفيد - ج ١ - الصفحة ٢٠٠

[3] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٠ - الصفحة ٢٤٧

هو الكلأ والحشائش التي تأكلها الدواب وهي معروفة عند العرب.

فكيف بأبي بكر الذي يدعي الإمامة وهو يجهل هذه الأمور البسيطة؟

هذا الجهل يكشف عن محدوديته في العلم واللغة، فكيف يتصدى لمنصب الإمامة في الأمة وفيها من هو أعلم وأفهم منه؟، النبي صلى اللّه عليه وآله كان أفصح العرب وأعلَمهم، وقد أدّبه ربّه تبارك وتعالى.

هناك كتاب للسيوطي بعنوان "**المزهر في علوم اللغة وأنواعِها**" يقول[1]: "**أفصحُ الخلقِ على الإطلاق سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله حبيبُ ربِّ العالمين جلّ وعلا**". وفي الحديث الشريف قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: "**أنا أفصح العرب**". وأصحاب الغريب (حديث غير مشهور اقتصرت روايته على طرق محدودة) روَوهُ أيضاً بلفظ "**أنا أفصحُ من نطق بالضاد، بيدَ أنّي من قريش**"، يقول: "**وتقدَّم حديثٌ أن عمر قال: "يا رسول الله، ما لك أفصحُنا ولم تخرج من بين أظهُرِنا؟**".

لاحظوا هذه الظاهرة: المنافق الأول، أبو بكر، كان مذهولاً من فصاحة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وقرينه وصاحبه المنافق الثاني، عمر، كان كذلك مندهشًا من فصاحة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله. المنافقون كانوا يندهشون من فصاحة خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله. فعمر سأل النبي:

[1] في الصفحة ١٦٥ منه، ج١

"**يا رسول الله، ما لكَ أفصحُنا ولم تخرج من بين أظهُرِنا؟**". قال: "**كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ** (اندثرت)، **فجاء بها جبريل عليه السلام فحفّظَنيها فحفظْتُها من الله تبارك وتعالى**".

يقول السيوطي[1]: روى البيهقي في "شعب الإيمان" عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن رجلاً قال: "**يا رسول الله، ما أفصحك! فما رأَيْنا الذي هو أعربُ منك!**"، يعني: أفصح منك وأقدر على إعراب الكلام، "**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "حُقَّ لي، فإنما أُنزِلَ القرآنُ عليّ بلسانٍ عربيٍّ مبين**".

يحق لذلك؛ أنا معلّمي هو الله، والله أنزل عليّ هذا القرآن بلسان عربي مبين، فكيف لا أكون أفصح من نطق بالضاد وأعربَ العربِ على الإطلاق؟

نرجع إلى كلام السيوطي في "المزهر في علوم اللغة"، حيث يقول الخطّابي: "**أعلمُ أن الله لما وضع رسوله صلى الله عليه وآله موضعَ البلاغِ من وحيه، ونصبَه منصِبَ البيانِ لدينه، اختارَ له من اللغاتِ أعربَها، ومن الألسُنِ أفصحَها وأبينَها، ثمّ أمدّهُ بجوامعِ الكَلِم**". وقال: "**ومن فصاحتِه أنّه تكلّمَ بألفاظٍ اقتضبَها لم تُسمع من العربِ قبله، ولم توجد في متقدَّم كلامِها**". هناك ألفاظ، تعابير، تراكيب لغوية، جمل وأمثال، أول من تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وتلحظُ فيها هذا التألق، كما بيَّنا في الباب السابق، أن

---

[1] المصدر السابق

نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله كان يبلغ مراده بأيسَر أو بأخصرِ الكلام؛ كلام مختصر، بليغ وفصيح، وتشعر بعذوبته، ورقّته، ودقّته أيضاً.

مثل كتابه الذي مرّ معنا البارحة، والذي وصفناه بأنه من أروع الكتب، قال فيه: "**من محمد رسول الله إلى بني غاديا، إنّ لكم الذمة، وعليكم الجزية، ولا عداء ولا جلاء. الليل مدّ، والنهار شدّ**".

انظر لمدى دقّة العبارة وألفاظها الدقيقة. هذا التركيب اللغوي، هذا السبك، يسبك لك العبارة مثل الذهب، "الليلُ مدّ والنهار شدّ" يعني كلما جاء ليلٌ فإنه يمدّ في هذا العهد، وكلما جاء نهار فإنه يشدد هذا العهد، عهدٌ وميثاق!

فعرفَ الناسُ من نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله كلماتٌ جرت مجرى الأمثال، وكان هو الذي ابتكرها. كقوله: "**ماتَ حتفَ أنفِهِ**"، وهي عبارةٌ بليغة تعني الشخص الذي مات بسبب طبيعي، لم يقتُلهُ أو يؤثر في موته أحد.

وقوله صلى الله عليه وآله: "**و حَمِيَ الوَطيْس**"، وهي جارية إلى اليوم وتعني اشتداد الحرب والتهابها.

وكذا قوله صلى الله عليه وآله: "**ولا يُلدغُ المؤمنُ من جحرٍ مرّتَين**"[1]، وهو مثلٌ قاله للنبي صلى الله عليه وآله بعد أن وقع أحد المشركين في الأسر في معركة

[1] صحيح البخاري ٦١٣٣

بدر، جاء هذا الرجل وتوسل إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وقال له: "**لكَ عليَّ عهدُ الله إذا أطلقْتَ سراحي، ومنَنْتَ عليّ، فإنّي لا أقاتلك**".

فأطلق النبي سراحه بسماحته. لكن في السنة التالية عاد ليحارب النبي في معركة أُحد. فوقع في الأسر مرة أخرى، وطلب نفس الطلب من النبي، لكن النبي صلى اللّه عليه وآله قال له: "**لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين**".[1] ثم أمر بقتله.

يقول أيضاً: "**وأفصحُ العربِ قريشاً**"، قال ابنُ فارس في "فقه اللغة" بابُ القولِ في أفصحِ العرب، أخبرني فلانٌ عن فلان، منتهاه إلى إسماعيل ابن أبي عُبَيدِ اللّه قال: "**أجمعَ علماؤنا بكلامِ العرب، والرواةِ لأشعارِهم، والعلماءِ بلُغاتِهم وأيامِهِم ومحالِّهم، أن قريشاً أفصحُ العربِ ألسنةً، وأصفاهم لغةً، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمداً صلى اللّه عليه وآله، فجعل قريشاً قُطّانَ حَرَمِه، و وُلاةَ بيته، فكانت وفودُ العرب من حُجّاجها وغيرِهم يفِدون إلى مكة للحجّ، ويتحاكمون إلى قريش**".

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٤ - الصفحة ٣٦٣
وحاصلها حسب تعليق العلامة المجلسي في المصدر أعلاه؛ أن أبا عزة الشاعر أخا مصعب بن عمير كان أسر يوم بدر فسأل النبي صلى الله عليه وآله أن يمن عليه ففعل، وعاهده أن لا يحرض عليه ولا يهجوه، فلما لحق بأهله عاد إلى ما كان عليه، فاسر يوم أحد فسأله أيضا أن يمن عليه، فقال النبي صلى الله عليه وآله هذا الكلام البليغ الجامع الذي لم يسبق إليه، وفيه تنبيه عظيم على أنه إذا رأى الأذى من جهة لا يعود إليها ثانية.

في كل سنة يحج العرب إلى مكة بقبائلهم وشعرائهم ومتكلميهم، المهم في الأمر أن ما كان يجري بينهم كان أشبه بالمباريات اللغوية الارتجالية، وكانت قريشٌ هي الحكم، فزعماء قريش كانوا يجلسون ويحكمون بأن هذا الشاعر أبلغُ من ذاك أو أنّ ذاك أفصح من هذا؛ من هذه المباريات اكتسبت قريشٌ هذه الفصاحة والصفاء اللغوي، وهذا ما يدلنا على أن قريشاً، رغم خبرتها العميقة في لغات العرب وأشعارهم وأنثارِهم وألفاظِهم وتراكيبهم اللغوية وموجاتهم الصوتية، عجزت عن أن تأتي بمثل القرآن، فإن أهل الخبرة هؤلاء لم يستطيعوا مجاراة القرآن ولو بشطر آية من الآيات، فهذا يعني أن هذا القرآن فوق مستوى البشر، وأنه معجزٌ بالفعل، لقد عبّروا عن هذا العجز بمحاربة القرآن، ولم تقتصر الحرب على السيف فقط، بل كانت حروبًا فكرية أيضاً.

فلو كان أمر القرآن سهلاً وممكناً التغلب عليه بالإتيان بمثله، لما احتاجت قريش إلى تجييش الجيوش وتحزّب الأحزاب ورفع السيوف لمحاربة هذا القرآن وصاحبه. كان الأمر سيكون سهلاً وميسوراً بأن يردوا على القرآن بآية مثله، فيسخرون منه ويبطلون آية النبي صلى الله عليه وآله دون أن يضطروا إلى إراقة دمائهم، فمجرّد رفعهم السيوف ومحاربتهم القرآن وصاحبه دليل على عجزهم عن المعارضة، وإلا لما لجؤوا إلى السيف، إذ كانت المسألة أيسر مما كانوا يظنون..

مثل ما نراه اليوم من الطائفة البكرية التي تسعى إلى قتل الشيعة ومحاربتهم وتكميم أفواههم، تجد دعاة البكرية يستنفرون استنفارَ الحُمُرِ المستنفَرة كلما جاءت دعوة للتشيع، فيرتعدون ويصرخون، ويبدؤون في الهستيريا، مثال ذلك ما قاله الداعية المصري حازم صلاح أبو إسماعيل، لقد توعد بتطهير مصر من التشيع، وأنه سيذهب بنفسه من دار إلى دار وحارة إلى حارة، لكنه لم يفعل شيئاً، بل على العكس، رأينا المصريين يتجهون نحو التشيع بأعداد كبيرة.

لقد قلنا من اليوم الأول من الضجة المفتعلة ضد احتفالنا بهلاك عائشة، حين رأينا بعض مشايخنا قد ارتعبوا وبدؤوا في إصدار البيانات والخطابات. قلنا لهم: لماذا أنتم خائفون؟ هؤلاء مجرد ظاهرة صوتية، أمام الكاميرا يصنعون من أنفسهم أبطالاً، ولكن وراء الكاميرا هم ضعفاء وجبناء.

في الكويت، نسمي هذا النوع من الأشخاص "**زهيوي**"، أي كالصرصار الذي يظهر فجأة ثم يهرب، لقد رأيناهم بعد كل الصخب والصياح يفرون إلى جحورهم..

كان أحدهم صفوَت حجازي، الذي كان يتحدى ويهدد بقتل كل من يواجهه، ويهددني شخصياً، عندما انقلبت الأوضاع في مصر وانهار حكم محمد

مرسي، هرب كالفأر إلى ليبيا، متنكراً، محاولاً النجاة بنفسه، ونحن نرى هذا في كل زمان.

في معركة صفين، نرى مثالاً حيًّا عندما واجه عمرو بن العاص الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم يجد أمامه سوى الحيلة لإنقاذ نفسه، فخلع سرواله ليحرج الإمام ويجبره على العفو عنه.[١]

وهكذا، يتعلم الجبناء من مثل هذه الحيل كيف ينجون بأرواحهم، لكنهم يظلون صغاراً في عيون الناس، عمرو بن العاص، ومن بعده كثيرون من أمثاله، كانوا يلجؤون إلى الحيلة في معركة صفين. لم يكن عمر وحده من فعل هذا، بل عدة أشخاص آخرين اتبعوا نفس الأسلوب، وإن كنت لا أذكر الأسماء بدقة الآن. لذلك قال الشاعر:

"أفي كلِّ يوم فارسٌ ليسَ يَنتَهي... وعورَته وسطَ العجاجةِ بادية

يميطُ عنها عليٌّ سِنَانَه... ويضحكُ منها في الخلاءِ معاوية"[٢]

معاوية كان يضحك عليهم، كان كل واحد منهم يأتي بملابسه الممزقة أو في حالة محرجة، كعمرو بن العاص، فكان يقول له "هل هذا وقت استحمام!"،

[١] مروج الذهب للمسعودي ج٢ ص٢٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٥٨٠

[٢] الأبيات للحرث بن النضر السهمي

بينما كان علي عليه السلام قد أتى في وسط المعركة ولم يبق لعمرو بن العاص إلا الحيلة ليهرب من مواجهة الإمام.

فكان عليه عمرو قائلاً: "لو رأيتَ ما رأيتُ، لما تحدثت بهذا".

فالناس في تلك اللحظات العصيبة لا يستطيعون إلا الاحتيال للنجاة. وهذا يُظهر لنا شخصية الإمام علي عليه السلام وصبره وحلمه ونُبله، خاصة تجاه هؤلاء المخادعين الذين كانوا يشكلون خطراً كبيراً على الأمة.

وفي موقف آخر، نجد الإمام علي عليه السلام في مواجهة عائشة، التي كانت من أشد المحرضين على الفتن والحروب الأهلية في الإسلام. هي التي فتحت الباب للقتال بين المسلمين، ولو لم تكن هي المحرضة لما تشجع معاوية ولا الخوارج على قتال الإمام علي عليه السلام.

ورغم كل ما فعلتّه، عندما سقط هودجها في معركة الجمل، وقف الإمام علي عليه السلام بسيفه أمامها، وكان بإمكانه أن يجهز عليها بسهولة، لكنه لم يفعل. ضرب الهودج ضربة غير مبرحة وقال لها: "**هيهِ يا حُمَيراء، أردتِ أن تقتليني كما قتلتِ ابنَ عفّان؟**"[1] فردت عليه بكلمة فصيحة بليغة قائلةً: "**ملكْتَ فاسْجَح**"[2]. فأعرض عنها الإمام علي عليه السلام وانصرف.

---

[1] الأمالي - الشيخ المفيد - الصفحة ٢٤ ومثله في كتابه الجمل

[2] كسابقه

هنا يظهرُ حِلم أمير المؤمنين عليه السلام، وهو حِلم مستمد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. لو كان مكانه عمر بن الخطاب مثلاً، لأقدم على قتلها فوراً، كما يعترف بذلك بعض علماء أهل الخلاف. لكن علي عليه السلام تحمل وصبر، وفضّل أن يملك نفسه ويكبح غضبه، لأن التبعات التي قد تترتب على الانتقام لم تكن في صالح الإسلام أو التشيع أو الأمة.

أحيانًا، الإنسان يكون قادراً على الانتقام، لكنه يفضل أن يتجنب ذلك لأسباب أخلاقية أو دينية. ومن خلال تجربتي الشخصية، أعلم كم هو مؤلم أن تكون قادراً على الانتقام ولكنك تملك نفسك وتفوّض أمرك إلى الله. إن أفضل ملاذ للإنسان المظلوم هو أن يلجأ إلى الله، كما يقول الحديث القدسي: (**فإنّ انتصاري لكَ خيرٌ من انتصارِك لنفسِك**[1])، في تلك اللحظات الصعبة، لا يجد الإنسان إلا الصلاة وسجادة الصلاة ليخاطب ربه في السجدة الأخيرة من صلاة الليل، ويدعو على من ظلمه، (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)[2] الله سبحانه وتعالى ينصر المظلوم ولو بعد حين، وبطريقة عجيبة، فالإنسان يعاني من الظلم والبهتان والأقاويل، لكنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله، قال

---

[1] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - الصفحة ٣٠٤

[2] القمر ١٠

تعالى: (وَذَرْنِي وَالْـمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْـمَةِ وَمَهِّلْـهُمْ قَـلِيلًا[1])، فالله يمهل ولا يهمل.

وفي النهاية، ينتصر الله للحق، كما قال في القرآن الكريم: (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا[2])، هذه الآيات نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، في وقتٍ كان الإسلام ضعيفاً، ولم يكن معه إلا القليلون، كأمير المؤمنين علي عليه السلام، خديجة أم المؤمنين، وأبو طالب عليه السلام.

كانت الأوضاع صعبة، ولكن القرآن الكريم كان يخاطب المشركين بالثقة الكاملة في انتصار الحق، نبيّنا صلى الله عليه وآله كان سلاحه سلاح البيان، وقد أثبت أنه بالفعل يتلقى وحياً من الله تعالى، لأن كل ما وعده الله به تحقق ولم يتخلف.

---

[1] المزمل ١١

[2] المزمل ١٢ -١٣

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ[1])، بكلمة تنبض بالثقة، وعده الله أنه سيعود منتصراً إلى مكة، وقد تحقق ذلك. رجع صلى الله عليه وآله إلى مكة ظافراً منتصراً. أليس هذا دليلاً كافيًا على نبوته؟

نعود الآن إلى قريش، وتكملة قولِ ابن فارس.

في تلك الفترة، كانت وفود العرب، سواء من حجاجهم أو غيرهم، تفد إلى مكة للتحاكم إلى قريش، وكانت قريشٌ مع فصاحتها وحسن لغاتِها ورقّةِ ألسنتها، تتخير من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمعَ ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبِعوا عليها، مما جعلهم أفصح العرب. هذه ميزة قريش في الحقيقة، إذ كانت تنتقي من لغات ولهجات العرب الألفاظ الأرقّ والأفصح والأعذب، مما جعلها تتفوق في الفصاحة، ومع ذلك كان نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله يفوق قريشاً في الفصاحة، رغم كل ما بلغته قريش من فصاحة. وكانت فصاحته تثير تعجّب قريشٍ نفسَها. كما نعلم، أن أبا بكر وعمر - وكلاهما قُرَشيان - كانا يسألان النبي صلى الله عليه وآله: من أين لك هذه الفصاحة؟ رغم أنهما نشآ في البيئة الثقافية القُرَشية ذاتها. لا يوجد تفسير منطقي لهذا الاستعلاء في الفصاحة والبلاغة إلا أن للنبي صلى الله عليه وآله إمداداً إلهياً، كما قال: "**أدَّبَني ربّي فأحسَنَ**

---

[1] القصص ٨٥

تأديبي" فهو تلميذ الإله في الأدب والفصاحة، لذا ليس من العجب أن يتحدث بكلام لا مثيل له.

ولا نبالغ إذا قلنا إن أحداً إن أراد أن يتحداه في كلامِه - وليس في القرآن - لما استطاع أن يأتي بعبارة أوفى وأجمل وأسمى في المعاني والتراكيب من عبارته، دعني أذكرُ لكم مثالاً إضافياً على ذلك..

مما ورد في **الكافي الشريف**[1] **عن الإمام الباقر أبي جعفرٍ عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من يتفقّد يَفقِد، ومن لا يُعِدَّ الصبرَ لنوائبِ الدّهر يعجِز، ومن قَرَضَ الناسَ قرَضوه، ومن تركَهم لم يتركوه" قيلَ: فأصنعُ ماذا يا رسول الله؟ قال: "أقرِضهُم من عِرضِك ليومِ فقرِك".**

دعونا نشرح هذه الحكم النبوية البليغة..

قال صلى اللّه عليه وآله: "**من يتفقّد يَفقِد**" أي من يتفقد أحوال الناس ويفتقدهم في سرّائهم وضرّائهم قد يجد نفسه وحيداً حين يحتاج إليهم.

المفترض أن الإنسان إذا تفقد أحوال الناس، يُكافأ بالإحسان كما أحسن إليهم..

[1] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٨ - الصفحة ٨٦

ولكن البشر في كثير من الأحيان جاحدون، يجازون المحسن بالإساءة. تحسن إلى أحدهم، تربيه، تطعمه، تصنَعُه صنعاً، ثم إذا به يرتدّ عليك بالإساءة. وفي الحديث الشريف عن أئمة الأطهار عليهم السلام: "أسرعُ شيءٍ عقوبةً أن تُكافئَ من أحسنَ إليكَ بالإساءة.[1]" كما قال الشاعر:

أعلِّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ... فلمّا استدَّ ساعدُه رماني

ولطالما علّمتُه نظمَ القوافي... فلمّا قال قافيةً هجاني

هذه طبيعة البشر، الشخص الذي أحسنت إليه وربّيته قد يعود عليك بالإساءة. على سبيل المثال، عبد الرحمن بن ملجمٍ لعنَه الله، كان من الذين أحسنَ إليهم أمير المؤمنين عليه السلام وربّاه، ولكنه عادَ وقتَلَه، حتى بعد فعلته الشنيعة، استمر أمير المؤمنين عليه السلام في الإحسان إليه، إذ جاء بشيء من اللبن وقال ما مضمونه: "أطعِموا أسيركم هذا الذي ضربني"..

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يقول في حكمته البليغة: "**من يتفقّد يَفقِدِ**"[2] لأنّ طبيعة البشر تجعلهم جاحدين، لا يكافئون الإحسان بالإحسان دائماً، ومع زيادة عدد من تتفقدهم وترعاهم، يزداد التناقض بينهم، فلا تستطيع

---

[1] كما عن أبي جعفر عليه السلام: **أربعة أسرع شئ عقوبة رجل أحسنت إليه ويكافيك بالاحسان إليه إساءة**. الخصال - الشيخ الصدوق - الصفحة ٢٣٠

[2] الكافي ج٨ ص٨٦

إرضاء الجميع، وهذا يرهقك. لذا قال الحكماء: "رضا الناس غاية لا تُدرَك"فمهما حاولت، ستجد دائمًا من يسخط عليك، أرأيتَ كيف أن الأئمة عليهم السلام كانوا يشكون من الناس؟ في كلامهم الشريف نجدهم يقولون إنهم، لولا ما كلفهم اللّه به من مهام الإمامة، لودّوا أن يعبدوا اللّه على قُلّةِ جبلٍ بعيد عن الناس، حيث لا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد.

"**من لا يُعِدُّ الصبر لنوائب الدهر يعجِز**"[1].

يجب أن يكون لديك صبرٌ وتأنٍ، فلا تستعجل.. كلما جاءت نائبة من النوائب أو أزمة من الأزمات، عليك بالصبر.

فمتى يأتي الصبر و النصر؟ عندما يرى اللّه عز وجل منك الصبر. قال تعالى: "وبشِّرِ الصّابِرِيْنَ"[2].

البشارة من اللّه إنما هي للصابرين الذين يتحملون الشدائد والأزمات والنوائب، ثم قال صلى اللّه عليه وآله: "**ومن قَرَضَ الناس قَرَضوه**"، أي أنّك إذا تحدثت عن الناس وانتقدتهم، فإنهم سيبادلونك بالمثل، سيتحدثون عنك وينتقدونك. فماذا يجب عليك أن تفعل؟ تترك الحديث عن الناس؟ لكن

---

[1] كما ورد في الكافي الشريف ج٢ ص٩٣ عن الباقر أو الصادق عليهما السلام.

[2] البقرة ١٥٥

المشكلة أنك حتى إن تركتهم، لن يتركوك هم. قال: "**ومن تَرَكَهم لم يترُكوه**" فما الحل؟

إن تحدثت، فإنهم يتحدثون عنك، وإن لم تتحدث، فإنهم أيضاً يتحدثون عنك. فماذا تفعل؟ الحكمة النبوية هنا هي العلاج النفسي لما تشعر به من ضيق، يقول صلى اللّه عليه وآله: "**أقرِضهُم من عِرضِك ليوم فَقرِك**"، العِرض هنا هو كل ما يحامي عنه الإنسان من كرامته وشرفه، فليس المقصود فقط الحُرمة، بل كل ما يتعلق بكرامة الإنسان.

إذاً، مهما فعلت، الناس سيتحدثون عنك، خاصّة إذا كنت على درب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، أو إذا كنت مصلحاً دينياً أو اجتماعياً، فإن الشياطين ستتحرك لتؤذيك.

الناس لن يتركونك وشأنك، سيظلون ينالون من عرضك ويقرضونك بالكلام. فما الذي يجب عليك فعله؟، النبي صلى اللّه عليه وآله يقول: "**أقرِضهم من عِرضِك**"، أي عندما يتحدثون عنك، اعتبر ذلك قرضاً أعطيتَه لهم من كرامتك، لكن متى تستحق هذا القرض؟ يوم القيامة، يوم الفقر الحقيقي.

في ذلك اليوم، كل من تحدث عنك، كل من ظلمك بالكلام والافتراء، سيُحاسَب، في ذلك اليوم، سيُجرّون بسلاسل من نار ويقفون أمامك، وسيُقال لك: هل تعفو عنهم أم لا؟

أنت ستكون صاحب الأمر والنهي، تخيّل المشاعر التي ستنتابك عندما تراهم في هذا الموقف المُذلّ، وأنت المسيطر عليهم، تأمر وتنهي فيهم.

تخيل هؤلاء الذين ظلموك وآذوك بالافتراء، سيُجلَبون أمامك، وسترى الذل في عيونهم. حينها، سيشعر صدرك بالشفاء... هذه هي الحكمة التي قالها النبي صلى اللّه عليه وآله: "**أقرِضهِم من عِرضِك ليوم فَقرِك**"، ففي يوم القيامة سيُحضرون جميعاً أمامك، وعندما تُفتح صحيفة أعمالك في ذلك اليوم، ستجد أعمالاً جليلة وعظيمة لم تقم بها، ستسأل الملائكة: من أين جاءت هذه الأعمال؟ سيقولون لك: هذه من فلان الذي اغتابك وظلمك، أخذنا منه حسناته وجعلناها في صحيفتك، وربما تجد أن في صحيفتك بعض السيئات التي كنت قد ارتكبتها في الدنيا، لكنها مَحَتها أعمال الآخرين.

لأننا أخذنا من سيئاتك ووضعناها في صحائفهم... فيحدث تبادل عجيب للأعمال..

إذاً، كل ما هو مطلوب منك هو أن تصبر، بل وتصبح كأنك متبلد المشاعر، لا تهتم لما يقوله الناس عنك. استمر في أداء أدوارك كما هو مطلوب منك، ووكِّل الأمر كله للّه عز وجل. النبي صلى اللّه عليه وآله قالها بعبارة شافية: "**أقرِضهِم من عِرضِك ليوم فَقرِك**"[١]، فالصبر مفتاح الفرج.

---

١ تذكيرًا بمصدرها في نهاية هذا الباب؛ الكافي - الشيخ الكليني - ج ٨ - الصفحة ٨٦

الفصل السّابع

لامية أبي طالب الخالدة

كم تحمّل نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله من الآلام ما لا يُطاق في سبيل دعوته، فقد واجه الأذى ليس فقط من البعيد، بل حتى من القريب.

مما اضطره إلى أن يحارب الجميع، حتى ممن كان من أسرته، كل ذلك في سبيل هذه الدعوة وفي سبيل الله عز وجل.

كان من أسرته من حاربوه، وقطعوا الرحم الذي كانت بينهم وبينه.

وفي دعاء مولانا وسيدنا زين العابدين (عليه الصلاة والسلام) في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله، ذلك الدعاء الشريف المروي في الصحيفة السجاديّة المقدسة[1]، والذي سبق أن أوردناه على حضراتكم من قبل، نجده عليه السلام يقول: "**اللهم فصلِّ على محمدٍ أمينك على وحيك، ونجيبك من خلقك، وصفيك من عبادك، إمام الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة، كما نصب لأمرك نفسه، وعرّض فيك للمكروه بدنه، وكاشف في الدعاء إليك حامّته، أقاربه، وحارب في رضاك أسرته.**"

فكان نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله يحارب أسرته في سبيل رضا الله (جلّ وعلا) "**وقطع في إحياء دينك رحمة، وأقصى الأدنين على جحودهم**". فكان من اعتُبر قريبًا منه، من الأدنين، أبعدهم لجحودهم هذه الدعوة، ولإشراكهم بالله عز وجل، بينما قرّب الأقصين، أي أولئك البعداء، بسبب

[1] الصحيفة السجادية الصفحة ٣١

استجابتهم لك. فمن استجاب للّه عز وجل، كان المصطفى صلى اللّه عليه وآله يقرّبه، وإن كان بعيدًا في النسب.

ومن جحد دعوة اللّه عز وجل ولم يستجب لها، كان المصطفى صلى اللّه عليه وآله يبعده، وإن كان قريبًا في النسب، حتى وإن كان من بني هاشم، ومن أسرة النبي صلى اللّه عليه وآله ..

"ووالى فيك الأبعدين، وعادى فيك الأقربين".

وحتى نقف معكم على بعض ما عاناه النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله من أسرته، إليكم هذا المثال، وهو مثال مؤلم في الحقيقة.

رجلٌ هو ابن عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، بل وأخوه من الرضاعة، فقد أرضعته السيدة حليمة السعدية (سلام اللّه عليها).

كان من أشبه الناس برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله حتى أن الغرباء إذا رأوه ظنوه محمدًا صلى اللّه عليه وآله. كان قريبًا منه ومحبا له جداً، ولكنه ما إن أعلن النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله دعوته ونادى بـ"لا إله إلا اللّه"، وإذ بهذا الرجل من الأسرة، أخو رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، يعاديه ويحاربه،!

ولأنه كان شاعرًا، كان ينظم القصائد في هجائه!

وكم استمرّت مدة محاربته لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يا ترى؟ سنةً أو

سنتين؟ كلا، بل طالت عشرين سنة..

إنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

وقد علمتم أن الحارث هو أكبر أولاد عبد المطلب عليه السلام.

فهذا ابن الولد الأكبر، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

وقد ذُكر تاريخه في العديد من الكتب، ومن ذلك ما ورد في كتاب "الطبقات الكبرى"[1] لابن سعد، حيث جاء فيه: "**وكان أبو سفيان شاعراً، يهجو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وكان مباعداً للإسلام، شديداً على من دخل فيه**".

فقد كان يحارب كل من دخل في الإسلام.

"**وكان أخا رسول الله صلى الله عليه وآله من الرضاعة، أرضعته حليمة أيامًا، وكان يألف رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان له تربًا، أي بنفس العمر، وكان رفيقًا له. فلما بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عاداه وهجاه وهجا أصحابه. فمكثَ عشرين سنة عدواً لرسول الله صلى الله عليه وآله، والأشدّ من ذلك أنه لم يتخلف عن أي موضعٍ تسير فيه قريش لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يتخلف عن كل حربٍ شنتها قريش على رسول الله**

[1] الطبقات الكبرى ج ٤ - الصفحة ٤٩

صلى الله عليه وآله، فكان في الصفوف الأولى، وكان من أوائل من يجيب للقتال بسبب شدة غيظه على رسول الله صلى الله عليه وآله." ولماذا كل هذا الغيظ؟ هل ظلمه النبي صلى اللّه عليه وآله بشيء؟ هل أساء إليه؟ هل انتقص منه أو آذاه؟ كلا. وإنما لم يتحمل الرجل الدعوة التي دعا بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله.

وقال: "**عندما ضرب الإسلام بجرانه**"

وهي كناية عن انتشار الإسلام واستقراره، كما يُقال عن الناقة حينما تضرب بجرانها..

"**ألقى الله في قلب أبي سفيان بن الحارث الإسلام**"

حيث كان النبي صلى اللّه عليه وآله قد قرر التحرك إلى مكة عام الفتح، فاستشعر أبو سفيان أن الأمر قد قُضِيَ، وأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في طريقه لدكِّ الحصن الأبرز والأخير من حصون الشرك، وأنه سيسيطر على العاصمة الدينية للعرب، مكة المكرمة، وأن دينه سيعمُّ العرب جميعًا، فبادر حينها وجاء إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وهو في طريقه إلى مكة، في منطقة تُسمى "ثنية العقاب" – ويُقال لها أيضًا "نيق العقاب" –، وهي تقع ما بين مكة والمدينة.

وهنا ننتقل بكم إلى كتاب "بحار الأنوار" للعلاّمة المجلسي (رحمه اللّه)، حيث ينقل هناك[1]: **"وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وآله في "نيق العقاب" بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فلم يأذن لهما"**. لم يأذن لهذين الرجلين رغم أن الأول ابن عمه وأخوه من الرضاعة، والآخر ابن عمته من بني مخزوم، وكذلك هو أقرب إلى النبي صلى اللّه عليه وآله لأنه صهره، فهو أخو سيدتنا أم المؤمنين أم سلمة عليها السلام.

كانا مشركين وجاءا تائبين يطلبان الدخول في الإسلام، ولكنه صلى اللّه عليه وآله لم يأذن لهما. فكلمته أم سلمة عليها السلام فيهما، ووسّطت نفسها عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله.

فقالت: **"يا رسول الله، ابن عمك هذا الأول، وابن عمتك وصهرك هذا الثاني"**، فقال صلى اللّه عليه وآله: **"لا حاجة لي فيهما. أما ابن عمي، فهو الذي هتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال"**.

كانت هذه المسألة شديدة الوطأة على قلب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكذلك على قلب كل مؤمن مصلح؛ لأن من يؤثر في الناس أكثر ليس قول الغريب بل قول القريب.

---

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢١ - الصفحة ١٢٧

لماذا نزلت سورة تذكر أبا لهب باسمه الصريح، ولم تنزل سورة تذكر أبا جهل أو أبا سفيان باسميهما؟ لماذا فقط أبو لهب ذُكر في القرآن باسمه الصريح وجاءت سورة صريحة فيه تحمل اسمه، وما زال المسلمون يقولون: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ[1]) بينما لم نسمعهم يقولون: "تبت يدا أبي جهل وتب"، "تبت يدا أبي سفيان وتب"، "تبت يدا عتبةَ وتب" مثلاً، أو غيرهم من صناديد قريش الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لماذا ركز القرآن على هذا الرجل بالذات دون غيره؟ مع أنه نزلت آيات في آخرين، مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل وحتى أبي سفيان وقومه من بني أمية (الشجرة الملعونة في القرآن)، ولكن كلها بلا ذكر صريح للأسماء.

أما أبو لهب، فذُكر اسمه صراحة مع وعيد وتهديد شديد؛ لأنه من الأسرة، فهو عمّ الرسول صلى الله عليه وآله، وكان لقوله وقع أشد على الناس من قول الآخرين.

حينما يأتي أبو جهل للناس في موسم الحج ليصدهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله، كان لكلامه وقع، لكنه أخف بكثير من وقع كلام أبي لهب، لأن أبا لهب كان يأتي للناس فيقول: "**أنا عمه، أعرفه فهو من بيتنا**"، فيشكك الناس بقوله: "**هو مجنون، هو كذاب، هو ساحر**".

---

[1] المسد :١

فكان لكلامه تأثير أكبر لأن الناس كانوا يقولون أن هذا عمه، وبالتالي أدرى الناس بحاله. كذلك هو الحال مع ابن العم والأخ، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فكان لكلامه وأشعاره وقع أيضاً، إذ جاء من بيت بلاغة وفصاحة، وكان هجّاءاً، فكان يحارب رسول اللّه بنفس السلاح: الأشعار والكلمات التي تهتك العرض.

فلذا، كان النبي صلى اللّه عليه وآله متألماً جداً من أخيه هذا، ومن صهره ذاك، فلم يقبل بدخولهما عليه، ولم يقبل حتى شفاعة أم المؤمنين أم سلمة، فقال: "**لا حاجة لي فيهما. أما ابن عمي فهو الذي هتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال**". قال: "**فلما خرج الخبر إليهما**" أي خبر رفض الرسول صلى اللّه عليه وآله استقبالهما، "**ومع أبي سفيان بني له، قال: "واللّه ليأذن لي أو لأخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً". فلما بلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله رقَّ لهما**".

إذ كان يعرف أن هؤلاء يعرفون كيف يصلون إلى قلبه رغم ما فعلوه من قبل. ورغم أن كلماتهم لم تكن سهلة فكانوا بهذه الكلمات والأشعار يحركون العرب لقتال النبي صلى اللّه عليه وآله، ولم يكن الأمر مجرد سباب أو هجاء، بل وصل إلى حدّ تحريضهم على قتله، وشنّ الحروب عليه، حيث أن أبو سفيان لم يكن يتخلف عن أي حرب تخوضها قريش ضد رسول اللّه صلى اللّه عليه

وآله، فمن الطبيعي أن يتألم الرسول صلى اللّه عليه وآله، لكنه مع ذلك كان يرقّ للناس. "**فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن أبا سفيان يقول: "إما أن يأذن لي أو سأذهب مع ابني ونتيه في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً"، رقّ لهما وأذن لهما بالدخول، فدخلا عليه وأسلما**".

ويُذكر في بعض التواريخ الأخرى، مثل "الطبقات الكبرى"، أن النبي صلى اللّه عليه وآله أمر علياً عليه السلام بتعليم ابن عمه الوضوء أو السنة.

وتذكر التواريخ والسير كذلك أن أبا سفيان بن الحارث حسن إسلامه بعد ذلك، حتى أنه كان من الذين ثبتوا مع النبي صلى اللّه عليه وآله في يوم حنين عندما انكشف الناس عنه وانهزموا وتركوه وحيداً، حيث كان من القلائل الذين أحاطوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، يدافعون عنه، كأنه يكفر عما مضى. وعلى أية حال، فإن السنوات العشرين التي قضاها أبو سفيان في حرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وهتك عرضه وهجاءه لم تكن سهلة.

من هنا يتجلّى لنا أيها الإخوة فضل سيدنا أبي طالب عليه السلام ومجده ونبله وشدّته في الدفاع عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في وقتٍ كانت فيه عامة أسرته ضد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكانت تحاربه بهذه الطريقة.

وبالمناسبة، معظم بني هاشم عادوا ورسول الله صلى الله عليه وآله ... وهذا ما يُذكر في الدعاء الشريف: "**اللهم صلِّ على محمد كما حارَبَ في رضاك أسرته**"[1].

وكان من وقف مع النبي منهم عدد قليل جداً، من أبرزهم سيدهم آنذاك أبو طالب عليه السلام، هذا الرجل العظيم. وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته[2]، وهو إمام السيرة خصوصاً عند مخالفينا، قائلاً: "**كان أبو طالب للنبي صلى الله عليه وآله عضداً وحِرزاً في أمره ومنعةً، وناصراً على قومه**".

وهناك في سيرة أبي طالب عليه السلام نقطة لامعةٌ ولافتةٌ للأنظار؛ وهي أنه كان حكيماً في سياسته، وحتى اليوم، نجد اختلافاً بين المسلمين في إيمانه من عدمه. لماذا؟ بعض المسلمين يقولون إنه مؤمن كما يرى الشيعة، وطائفة من المخالفين لهم.. وبالمناسبة، المخالفون ليسوا جميعهم مجمعين، على كفر أبي طالب و العياذ بالله..

حيث هنالك من أعلام أهل الخلاف قديمًا وحديثًا من ذهب إلى إيمان أبي طالب عليه السلام، ووافق في ذلك قول أئمة أهل البيت عليهم السلام.

لكن لماذا اختلف المسلمون في ذلك؟ السبب الأول هو تأثير الآلة الدعائية ..!

---

[1] سبق تخريجه.. الصحيفة السجادية الصفحة ٣١

[2] و نقلها عنه إمامهم ابن كثير في سيرته ج٢ ص١٢٢

الأموية التي كانت تجتهد في تبشيع صورة أبي طالب عليه السلام نكايةً في علي عليه السلام.

غير أن هناك سببًا آخر، وهو أن أبا طالب عليه السلام كان يدير الأمور بحكمة سياسية فائقة، فكان من جهة يتعامل مع القوم بالحسنى، ومن جهة أخرى يتصدى لهم بحزم. وكان ذلك جزءًا من حكمته وفطنته. لذلك، آمن برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في الباطن ولم يُظهر ذلك في العلن؛ لكي يُبقي على شيء من العلاقات بينه وبين قريش.

إذ لو قطعها كليًا مع الأوضاع التي كانوا يعيشونها آنذاك، لانكشف الغطاء عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله تمامًا، ولتمكنوا من القضاء عليه وعلى أبي طالب وعلى كل من انتصر له أو وقف إلى جانبه من بني هاشم.

خاصة عندما حاصروهم في الشِعب، وكان بنو هاشم آنذاك أقل عددًا وعتادًا من سائر بطون قريش. فكيف لو اجتمعت تلك البطون عليهم؟ ومن حكمة أبي طالب عليه السلام أنه نظم قصيدة خالدة تفوق في بلاغتها وفصاحتها المعلقات السبع.

وهذه القصيدة معروفة باسم "**لامية أبي طالب عليه السلام**"..

وهي قصيدة تُعد من أقدم ما وصلنا في السيرة النبوية الشريفة؛ لأنها تحتوي على أبيات تذكر ما جرى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ولقومه منذ

أن بدأ دعوته، وما كان من خصومه، حيث فيها ذكرٌ لأسماء الخصوم ورموزهم، وأسماء رجال، وقبائل، وبيوت، وبطون قريش.

كل ذلك في قطعة أدبية رائعة، تتوهج بالبلاغة والفصاحة، ولا عجب في ذلك، فهو أبو طالب ابن عبد المطلب.

وبالمناسبة، ينبغي ألا يفوتنا أن نذكر أن أبا طالب عليه السلام كان حالة نادرة في الزعامة بحسب ثقافة قريش وأعرافها وتقاليدها. فلم يكن في قريش من يسود إلا إذا كان ثريًا، والفقر كان مانعًا من السيادة، غير أن أبا طالب عليه السلام كان استثناءً لهذه القاعدة، والذي رغم كونه فقيرًا، ساد قومه بل ساد قريشاً، حيث جعلوه سيدًا عليهم، وهذه حالة استثنائية.

فلاحظوا إذاً رجلاً هو سيد قومه، مهابته تنبع من كونه ابن عبد المطلب، وشيخ بني هاشم، شيخ الأباطح. ولكنه، في النهاية، فقير، وقومه أقل عددًا بالنسبة إلى بقية البطون، فلو أنه أعلن جهارًا أنه قد اعتنق دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لقطعت قريش آخر ما تبقى من علاقة احترام بينها وبينه، حيث كانوا ما زالوا يحترمون أبا طالب لأنه منهم، وإن كان يحامي عن ابن أخيه بدافع الدم والنسب وليس لشيء آخر.

فلو أعلن أيضًا أنه على دين رسول الله، لما بقي شيء يردعهم عن إعلان الحرب عليه وعلى رسول الله وعلى كافة بني هاشم. وكان ذلك سيكون نهاية

الدعوة الإسلامية في مهدها، وهذا من أخطر الأمور. فماذا فعل أبو طالب عليه السلام؟ كان يُداريهم من جهة ويتودد إليهم، وفي الظاهر يستخدم التورية، فيوهمهم بأنه ليس على دين رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وأنه لم ينضم إلى دعوته علانية. لكنه في الحقيقة كان يحمل عليهم ويشتد في مواجهتهم، ويهددهم ويحذرهم. ويُعلن صدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وأنه نبي مرسل من اللّه، وأن دينه هو خير الأديان، وأشعاره طافحة بذلك.

فكان كما نقول، يجمع بين سياسة اللين والشدة، يجبر تارة ويكسر تارة أخرى، مستعملاً سياسة الحمائم والصقور.

فله قصيدة خالدة هي "**اللامية**"، والتي استعمل فيها هذا الأسلوب، ويتحدث عنها ابن إسحاق في سيرته[1] فيقول: "**فلما خشي أبو طالب دهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم من سائر العرب في شعره أنه غير مُسَلِّمٍ رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم.**" لأن هذا ما اشترطته عليه قريش.. فقالوا له ما مضمونه : "**إن أردت أن تعود الأوضاع كما كانت، ويفك الحصار عنك وعن بني هاشم، وتعود شيخًا علينا وسيداً كما كنت،**

---

[1] ذكر ذلك ابن هشام في سيرته ج١ ص٢٧٣

سلم لنا محمداً، فنحاكمه ونقتله، فإنه جاء بهذه الفتنة العظيمة، جاء بسب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، وتفريق قومنا، هذا شرطنا الذي نشرطه عليك".

ومع أنه تودد إليهم، خاصة إلى أشراف قومه، إلا أنه كان واضحًا وثابتًا في موقفه المبدئي المؤكد، وهو أنه غير مسلّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ولا تاركه لهم أبدًا حتى يهلك دونه. كانت تلك سياسة حكيمة، ولو تدبرها القوم لأدركوا بسهولة أن أبا طالب عليه السلام كان مؤمنًا، ولكنه كان يكتم إيمانه لهذا الغرض، لكي يحمي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ويُتيح له الفرصة لمواصلة دعوته.

هذا الأمر سيُتضح في هذا الباب إن شاء اللّه، وهو أن هذا النهج الذي سار عليه أبو طالب عليه السلام، أخذه عن آبائه.

إنها النبوة التي توارثها أكابر بني هاشم، كابرًا عن كابر، منذ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بشأن خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وآله.

فلو قال أبو طالب علانية إنه على دين رسول اللّه، لانقطعت العلائق بينه وبين قريش، ولشنوا الحرب عليه، حيث كانوا على وشك شن الحرب فعلاً.

كان أبو طالب، مع قومه من بني هاشم، يحمون رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في شعب مكة، لا يدخل إليهم أحد، ولا هم يخرجون. كانوا محاصرين،

وبدأت وفود من قريش تذهب إلى سائر قبائل العرب خارج مكة، تؤلبهم وتحثهم على التحرك لإنهاء هذه "البلية".

كانوا يحضرون لحرب بمشاركة العرب جميعًا، بجميع قبائلهم وبطون قريش، مضافًا إلى أفراد من بني هاشم أنفسهم الذين انشقوا عن أبي طالب، مثل أبي لهب وأبناءه وأبي سفيان بن الحارث وغيرهم..

هؤلاء جميعًا انضموا إلى أعداء النبي صلى الله عليه وآله، وقالوا: "**نحن معكم على محمد صلى الله عليه وآله.**"

فمن بقي إذاً؟

وبالتأكيد، لم يكن لأبي طالب وقومه قدرة على مواجهة جميع العرب. لاحظوا، عندما خشي أبو طالب أن يجتمع العرب عليه مع قومه ويحاربوه ويقضوا على النبي صلى الله عليه وآله، قال قصيدته العصماء، التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها.

هذه القصيدة أحرجت العرب فعلاً، لأنهم كانوا أهل بلاغة وفصاحة، وتقيمهم كلمة وتُقعدهم كلمة. كان هذا هو ما أثر في مزاجهم العام.

هذه القصيدة الرائعة جدًا، التي أبكتني حقًا، تحمل هذا الحس المرهف، وفيها تعوذ يصل إلى أعماق القلوب والضمائر، ويحرج الناس، ويوقظ فيهم

شيئًا من الرحمة. وفي المقابل، جمعت هذه القصيدة بين الرحمة والتهديد والوعيد، فهو يقول مهما تفعلون لن أسلم لكم هذا النبي.

ويؤكد أن هذا هو نبي المستقبل وستعلمون ذلك، فجمع أبو طالب بين الأمرين بطريقة فنية وأسلوب راقٍ لا مثيل له.

إن أولئك الذين يبهتون أبا طالب عليه السلام ويرمونه بالكفر، لو تدبروا سيرته لأدركوا هذه الحقيقة، وهي أنه كان يكتم إيمانه لحماية النبي صلى الله عليه وآله.

حتى ابن كثير، وهو تلميذ ابن تيمية، تنبه إلى ذلك، وإن لم يقر بإيمان أبي طالب، لكنه أدرك أن تظاهر أبي طالب بأنه ليس على دين رسول الله صلى الله عليه وآله، وبقاؤه في مخالطة القوم وملأ قريش، كان سياسة لحماية رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يهابه القوم.

يقول ابن كثير في كتابه "**السيرة النبوية**"[1]: "**وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترأوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.**"

---

[1] السيرة النبوية - ابن كثير - ج ١ - الصفحة ٤٦١

لأنه لو أسلم، لخَرَج عن حظيرتهم بالكامل، فلم يكن له احترام أو اعتبار بينهم. وبالفعل، كانوا يقولون له: "**نحن نكف أيدينا عن محمد صلى الله عليه وآله فقط لأجلك.**" وفي الحقيقة، هذه هي الحكمة الطالبية – نسبة لأبي طالب عليه السلام –، وهي اتباع هذه السياسة لحماية النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ولكنه في الحقيقة كان مصدقاً برسول الله صلى الله عليه وآله، مؤمنٌ لكن كان يكتم إيمانه.

وهذا ما رَوي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام، وهو أعرف الناس بحال أبيه.

في هذا السياق، يمكن الرجوع إلى كتاب "**الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب**" لشمس الدين أبي علي فخار بن معدٍ الموسوي، المتوفى سنة 630 هـ، وهو من علماء القرن السادس والسابع. في هذا الكتاب، يروي عن الشعبي، وهو إمام من أئمة أهل الخلاف من التابعين، عن علي عليه السلام، أنه قال: "**كان والله أبو طالب مؤمناً مسلماً.**"

يقسم علي عليه السلام على ذلك "**يكتم إيمانه مخافةً على بني هاشم أن تنابذهم قريش.**"

أي أنه كان يخشى المواجهة العلنية والمباشرة معهم بسبب تلك المنابذة، أي الحرب عليهم.

على أية حال، نعود الآن إلى كتاب "**السيرة النبوية**" لابن كثير، لننظر في شهادته حول لامية أبي طالب عليه السلام.

يقول ابن كثير، بعد أن نقل بعض أبيات القصيدة من سيرة ابن هشام عن سيرة ابن إسحاق: "**قال ابن هشام: هذا ما صح لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكرون أكثرها.**"[1] لكن ابن كثير يُعلق قائلاً: "**هذه قصيدة عظيمة بليغة جداً، لا يستطيع أن يقولها إلا من نُسبت إليه**".[2]

أي أن هذا الإنكار لبعض الأبيات لا قيمة له، لأن أحدًا لا يستطيع أن ينظم مثل هذا الكلام بفصاحته وبلاغته العالية إلا من نُسبت إليه، وهو أبو طالب.

البلاغة التي تشع من هذه القصيدة هي بحد ذاتها دليل كافٍ على صحة نسبتها إلى أبي طالب عليه السلام "**وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعاً.**"

المعلقات السبع، التي تُضرب بها الأمثال في الفصاحة والبلاغة، والتي يُحكى أنها عُلّقت على جدران الكعبة.

هذه شهادة واعتراف من ابن كثير، ذي النزعة التيمية الأموية، وهي بعيدة تمامًا عن النزعة الشيعية أو الطالبية العلوية. وحتى لو كان ابن كثير على

---

[1] البداية والنهاية ج٣ ص٧٤

[2] كالمصدر السابق

تلك النزعة، قد يقول قائل إنه ربما قد تأثر بميوله للطالبيين بالغ ففضل قصيدة أبي طالب على المعلقات، ولكن لا؛ هذه شهادة وإقرار من رجل تربى على يد ابن تيمية، ومع ذلك يشهد بهذه الشهادة المهمة جدًا.

ويضيف: "**وقد أوردها الأموي في مغازيه مطوّلة بزيادات أُخر، والله أعلم.**" هنا يرد على كلام ابن هشام الذي قال إن فيها زيادات لم تصح. فمن هو هذا **الأموي**؟ إنه الوليد بن مسلم، المؤرخ الأموي وصاحب الأوزاعي. الأوزاعي أيضًا كان مولى للأمويين، وهؤلاء جميعًا من أهل الشام، وميولهم وعواطفهم مع بني أمية.

ومع ذلك، لبلاغة هذه القصيدة وروعتها، لم يستطيعوا إلا أن يرووها ويدونوها. وبالفعل إن أقدم من روى لنا هذه القصيدة هو الوليد بن مسلم، المتوفى سنة 195 هـ، وهو صاحب الأوزاعي، وله مصنفات في السيرة والمغازي والتاريخ، وأيضًا في الحديث.

هذا الكلام كله يدل على أمرين: أولاً، مدى ثبات هذه القصيدة في نسبتها إلى أبي طالب عليه السلام، وروعتها وبهائها. ثانيًا، أنه حتى الذين رووا هذه القصيدة ودونوها كانوا من أبعد الناس عن التشيع أو الميل العاطفي لأبي طالب عليه السلام. فهؤلاء من الأمويين، ومن تلامذة ابن تيمية، ومن

النواصب أصلاً، ومع ذلك رووها وشهدوا بأنها أفحل من المعلقات السبع وأبلغ منها.

وكما ذكرنا، هذه القصيدة يمكن اعتبارها أقدم مصدر ثابت لسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولما جرى في بدايات الدعوة الإسلامية في مكة. إنها وثيقة تاريخية بحد ذاتها. أين تجد هذه القصيدة اليوم بكاملها؟ موجودة في الكتب، مثل "السيرة النبوية" لابن كثير، لكنها لا توجد كاملة إلا في ديوان أبي طالب بن عبد المطلب. واللطيف في هذا الديوان أنه ليس مجموعة معاصرة، كما هو الحال مع كثير من الدواوين الأخرى التي تجُمع فيها الأشعار المنسوبة إلى القدماء، وتُطلق عليها ديوان فلان.

هذا الديوان في الحقيقة أُلِّف منذ زمن قديم، قبل أكثر من ألف ومائة عام، وكان مؤلفه رجلاً من القرن الثالث الهجري، وهو أبو هفان المهزم البصري النحوي.

كان أبو هفان البصري نحويًا معروفًا، وله ترجمة في كتاب "رجال النجاشي" رحمه الله. يقول النجاشي:[1] **"عبد الله بن أحمد بن حرب بن مهزم بن خالد بن الفزر العبدي أبو هفان "** .

[1] رجال النجاشي- الصفحة ٢١٨

والعبدي يعني نسبة إلى قبيلة عبد القيس، القبيلة المعروفة بميولها الشيعية منذ القدم، ومنهم حكيم بن جبلة العبدي رضوان الله عليه، ومسلم العبدي رضوان الله عليه، ذلك الشاب القتيل الشهيد في معركة الجمل، بعدما أهدرت عائشة دمه لأنه احتج عليهم بالقرآن بأمر أمير المؤمنين عليه السلام. كما أن حكيم بن جبلة كان أيضًا شهيدًا، وهو وأصحابه، الذين عرفوا بأصحاب الثفنات لكثرة عبادتهم، كلهم قتلتهم عائشة في معركة الجمل الأصغر. هؤلاء كانوا متمسكين بشرعية أمير المؤمنين عليه السلام أمام الاجتياح العائشي للبصرة. وأبو هفان ينتمي إلى ذلك البيت الكريم من قبيلة عبد القيس، التي كانت من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام.

يتابع: "**مشهور في أصحابنا**"

أي في أصحابنا نحن الشيعة "**وله شعر في المذهب**"..

حيث أن أبا هفان كان شاعرًا وأديبًا، وله أشعار في التشيع "**وبنو مهزم بيت كبير بالبصرة في عبد القيس**" أي بيت من معروف ومرموق من بيوت قبيلة عبد القيس "**شيعةٌ**" أي كانوا من الشيعة "**لعبدلله**" أي لهذا الرجل، أبو هفان " كتاب "**شعر أبي طالب بن عبد المطلب وأخباره.**"" أي ديوان أبي طالب "وكتاب "**طبقات الشعراء**" وكتاب "**أشعار عبد القيس وأخبارها**"".

في هذا الديوان المطبوع اليوم تجدون قصيدة أبي طالب عليه السلام "اللامية" الخالدة، بألفاظها الفصيحة البليغة من لغة العرب القدماء، والتي ارتأيت أن أذكرها دون أن أتوقف كثيرًا لشرح مفرداتها المبهمة، لأن ذلك سيطول، خاصة مع الاختلاف في ضبط تلك الألفاظ ومعانيها.

والسبب في ذلك أننا جميعًا، حتى أعلم علمائنا في اللغة والأدب، متطفلون على ساحة بلاغة أبي طالب عليه السلام.

صدقًا، عندما نقرأ مثل هذه القصائد، والتي أقر ابن كثير بأنها بالفعل أبلغ من المعلقات، نشعر بأنفسنا تتضاءل جدًا. ولا أظن أن عالمًا، حتى لو كان بمستوى الشدياق، الذي اجتهد في اللغة، إلا وسيعترف بتواضعه أمام فصاحة وبلاغة أبي طالب عليه السلام. إنها قصيدة رائعة حقًا، تزلزل الإنسان.

ففي قوله عليه السلام:

خَليلَيَّ ما أُذني لأَوَّلِ عاذِلٍ... بصَغْواءَ في حَقٍّ، ولا عندَ باطِلِ

يقول: "يا صاحبيّ، لن أصغي لأول عاذل يدعو إلى الضلال، لا في الحق ولا في الباطل". والمقصود هنا أنهم كانوا يقولون له: "نحن قومك وأحبابك، سلم لنا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم." لكنه يرد عليهم: "لن أصغي لكم."

ثم يقول:

خليليَّ إنَّ الرأيَ ليسَ... ولا نَهْنَهٍ عندَ الأمورِ البَلابلِ

ولمّا رأيتُ القومَ لا وُدَّ عندَهُمْ... وقد قَطَعوا كلَّ العُرى والوَسائلِ

وقد صارحونا بالعداوةِ والأذى... وقد طاوَعوا أمرَ العدوِّ المُزايلِ

وقد حالَفُوا قوما علينا أظِنَّةً... يعضُّون غيظا خَلفَنا بالأناملِ

صَبرتُ لهُمْ نَفسي بسمراءَ سَمحةٍ... وأبيضَ عَضْبٍ من تُراث المقاوِلِ

وأحْضَرتُ عندَ البيتِ رَهْطي وإخوتي... وأمسكتُ من أثوابهِ بالوَصائلِ

وهنا نرى التصوير الفني البديع، حيث يلجأ أبو طالب عليه السلام إلى الله تعالى أمام كل المتآمرين ضده، ويريدون محاربته ومحاربة رهطه، لأنه وهم يحمون محمداً صلى الله عليه وآله.

ويتابع:

قياماً معاً مستقبلين رِتاجَهُ... لدَى حيثُ يَقضي نُسْكَهُ كلُّ نافلِ

ويصور هنا مشهدهم وهم واقفون معًا، مستقبلين باب الكعبة، بثبات وعزم. ففي هذا الموضع، حيث يقضي الناس نسكهم بعد عودتهم من الحج، اجتمع

أبو طالب عليه السلام مع رهطه عند الكعبة، وأمسك برتاج البيت وبأثواب الكعبة.

ويضيف:

وحيثُ يُنيخُ الأشعرونَ ركابَهُم... بمَفْضَى السُّيولِ من أساف ٍونائلِ

مُوسَّمَةَ الأعضادِ أو قَصَراتِها.. مُخيَّسةً بين السَّديس وبازِلِ

تَرى الوَدْعَ فيها والرُّخامَ وزينةً... بأعناقِها معقودةً كالعثاكلِ

أعوذُ بربِّ النَّاسِ من كلِّ طاعنٍ... علينا بسوءٍ أو مُلِحٍّ بباطلِ

ومِن كاشحٍ يَسْعى لنا بمعيبةٍ... ومِن مُلحِقٍ في الدِّين ما لم نُحاولِ

وثَوْرٍ ومَن أرسى ثَبيراً مَكانَه... وعَيْرٍ، وراقٍ في حِراءٍ ونازلِ

وبالبيتِ رُكنِ البيتِ من بطنِ مكَّةٍ... وباللَّهِ إنَّ اللهَ ليس بغافلِ

وبالحَجَرِ المُسْودِّ إذ يمْسَحونَهُ... إذا اكْتَنَفوهُ بالضُّحى والأصائلِ

ومَوطِىء إبراهيمَ في الصَخرِ رَطبَةَ... على قدميهِ حافياً غيرَ ناعلِ

وأَشواطِ بَينَ المَرْوَتَينِ إلى الصَّفا... وما فيهما من صورةٍ وتمَاثِلِ

ومن حجَّ بيتَ اللَّهِ من كلِّ راكبٍ... ومِن كلِّ ذي نَذْرٍ ومِن كلِّ راجلِ

وبالمَشْعَرِ الأقصى إذا عَمدوا لهُ... إلالٍ إلى مَفْضَى الشِّراج القوابلِ

وتَوْقافِهم فوقَ الجبالِ عشيَّةً... يُقيمون بالأيدي صُدورَ الرَّواحلِ

وليلةِ جَمعٍ والمنازلُ مِن منىً... وما فَوقَها من حُرمةٍ ومَنازلِ

وجَمعٍ إذا ما المَقْرُباتُ أجزْنَهُ... سِراعاً كما يَفْزَعْنَ مِن وقعِ وابلِ

وبالجَمْرَةِ الكُبرى إذا صَمدوا لها... يَؤمُّونَ قَذْفاً رأسَها بالجنادلِ

وكِنْدَةُ إذْ هُم بالحِصابِ عَشِيَّةً... تجُيزُ بهمْ حِجاجَ بكرِ بنِ وائلِ

حَليفانِ شَدَّا عِقْدَ ما اجْتَمعا لهُ... ورداًّ عَليهِ عاطفاتِ الوسائلِ

حيث أنه في المكان الذي ينيخ فيه الأشعرون ركابهم، بين السيول القادمة من إساف ونائلة، ترى الصفا والمروة موسومةً بأعضادها أو قصاراتها، وتجد الحصى يتناثر بينها بين السديس وبازلي، وزينتها بالرخام والودع المعلقة كالعثاكيل.

ثم يستعيذ أبو طالب عليه السلام بالله تعالى فيقول: "أعوذ برب الناس"، في تصوير فني بديع يستحضر استعانتهم ببيت الله ورب البيت. ويقول:

"أعوذ برب الناس من كل طاعنٍ ... علينا بسوءٍ أو ملحٍ بباطلٍ،

ومن كاشحٍ يسعى لنا بمعيبةٍ ... ومن عدوٍ مائلٍ عنا"

أي أنه يستعيذ بالله من أولئك الذين يسعون بالشر والكذب، ويحاولون إيذاءهم، ومن الذين يسعون لإلصاق العيوب بهم.

ويذكر ثوراً وثبيراً وعيراً (أسماء الجبال) في قوله:

"وثورٍ ومن أرسى ثبيراً مكانه... وعيراً وراقٍ في حراء ونازل"

. ويتحدث عن البيت الحرام وركن البيت في بطن مكة قائلاً:

"وبالبيت ركن البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل".

ثم يذكر الحجر الأسود ويصف كيف يمسحونه عند الطواف فيقول:

"وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل"

ويذكر مقام إبراهيم عليه السلام في قوله:

"وموطئ إبراهيم في الصخر وطأة ... على قدميه حافياً غير ناعل"

ويصف كيف أن أثر قدمي إبراهيم عليه السلام قد طُبع على الحجر حين كان يقف عليه حافياً.

ويذكر السعي بين الصفا والمروة قائلاً:

"وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل".

ثم يتحدث عن الحجيج الذين يأتون من كل صوب قائلاً:

"ومن حج بيت الله من كل راكبٍ ... ومن كل ذي نذرٍ ومن كل راجل".

ويذكر المشعر الأقصى قائلاً:

"وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له ... إلالٍ إلى مفضى الشراج القوابل"

أي عندما يتوجهون إلى المشعر الحرام. ويصف مشهد الحجاج فوق الجبال عشيةً فيقول:

"وتوقافهم فوق الجبال عشية ... يقيمون بالأيدي صدور الرواحل"

ويذكر ليلة جمع ومنازل منى في قوله:

"وليلة جمعٍ والمنازل من منى ... وما فوقها من حرمة ومنازل".

ثم يصف كيف تنطلق الإبل مسرعة في المزدلفة قائلاً:

"وجمعٌ إذا ما المقربات أجزنه ... سراعا كما يفزعن من وقع وابل".

ويتحدث عن رمي الجمرات في قوله:

"وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها ... يأمون قذفاً رأسها بالجنادل".

ثم يذكر قبيلة كندة قائلاً:

"وكندة إذ هم بالحصاب عشيةً ... قبيلة كندة تجير بهم حجاج بكر بن وائل،

حليفان شدّ عقد مجتمعا له ... وردّ عليه عاطفات الوسائل".

انظروا كيف يستعطفهم أبو طالب عليه السلام، إذ يذكّرهم بالعهود والمواثيق والوقوفات والمناسك والمقامات، محاولاً تحريك مشاعرهم، حتى تتأجج أحاسيسهم.

ثم يدخل في صلب ما يريد، قائلاً:

وحَطْمُهمُ سُمْرَ الرِّماحِ معَ الظُّبا... وإنفاذُهُم ما يَتَّقي كلُّ نابلِ

ومَشْيُهم حولَ البِسالِ وسَرْحُهُ... وشِبْرِقُهُ وَخْدَ النَّعامِ الجَوافلِ

فهل فوقَ هذا مِن مَعاذٍ لعائذٍ... وهَل من مُعيذٍ يَتَّقي اللَّهَ عادِلِ؟

يُطاعُ بنا الأعدا ووداًّ لو أنَّنا... تُسَدُّ بنا أبوابُ تُركٍ وكابُلِ

كذَبْتُمْ وبيتِ اللَّهِ نَتْرُكَ مكَّةً... ونظعَنَ إلاَّ أمرُكُم في بَلابلِ

وحين يتحدث عن السيوف والرماح، يبين أنه حتى في موسم الحج لم يكن يُسمح لأحد أن يكون مسلحًا، وهذه كانت عادة العرب منذ الجاهلية.

ويستذكر كيف كانوا يسيرون حول الكعبة بحزمٍ وشجاعةٍ دون سلاح، فيقول:

"ومشيهم حول البسال وسرحه وشبريقه"

ويصفهم بأنهم كمن يسير بخفةٍ وقوة في عامٍ من الزمن القديم، وكأنهم في جهادٍ أو مهمة صعبة.

ثم يسترسل في تذكيرهم قائلاً:

"فهل فوق هذا من معاذٍ لعائذٍ؟ ... وهل من معيذٍ يتقي الله عادلِ؟."

أي أنه بعد كل هذه المواقف والمشاهد، هل يبقى مجالٌ للاعذار أو لتراجع؟

ويؤكد أن ملاذه هو الله وحده، قائلاً

إنما أعوذ بالله وبكل هذا مما تريدون من البغي علينا لأجل هذا النبي."

ويتساءل باستنكار:

"فهل فوق هذا من معاذٍ لعائذٍ؟ ... وهل من معيذٍ يتقي الله عادلِ ؟."

ثم يعود إلى الحديث عن أولئك الأعداء الذين يطاعون في التآمر ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهله من بني هاشم، فيقول:

"يطاعُ بنا الأعدا."

ويصف كيف أن هؤلاء الأعداء خرجوا من قريش، وذهبوا كوفودٍ إلى سائر العرب، يُحرِّضونهم على بني هاشم ومحمد صلى الله عليه وآله، ويحثونهم على القضاء عليهم، قائلاً" :**لماذا تُطيعون هؤلاء الأعداء؟** ."

انظروا كيف يخاطبهم أبو طالب عليه السلام، مستنكراً ادعاءهم ومحاولاتهم للنيل من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويضيف:

"وددتم لو أنكم تسدون بنا أبواب تركٍ وكابلِ"،

مظهرًا استنكارًا شديدًا لمحاولاتهم إخراج بني هاشم من مكة والتخلص من النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ويتابع أبو طالب مستنكراً ما يطلبونه قائلاً:

"كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونطعن إلا أمركم في البلابل"

أي أنهم يكذبون عندما يظنون أنهم سيغادرون مكة بسبب تهديداتهم.

كَذَبْتُم وبيتِ اللَّهِ نُبْزَى محمدا... ولمّا نُطاعِنُ دونَهُ ونُناضِلِ

ونُسْلِمَه حتى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ... ونَذْهُلَ عن أبنائِنا والحلائلِ

وينهضَ قَومٌ في الحديدِ إليكُمُ... نُهوضَ الرَّوايا تحتَ ذاتِ الصَّلاصِلِ

وحتَّى يُرى ذو الضِّغْنِ يركبُ رَدْعَهُ... منَ الطَّعنِ فِعلَ الأنكَبِ المُتَحامِلِ

وإنّي لعَمرُ اللَّهِ إنْ جدَّ ما أرى... لَتَلْتَبِسَنْ أَسيافُنا بالأماثلِ

بكفِّ امرئٍ مثلِ الشِّهابِ سَمَيْدَعٍ... أخي ثِقَةٍ حامي الحقيقةِ باسلِ

شُهورا وأيّاما وحَولاً مُجرَّما... علَينا وتأتي حِجَّةٌ بعدَ قابلِ

وما تَرْكُ قَومٍ، لا أبالك، سَيِّدا... يَحوطُ الذِّمارَ غَيرَ ذَرْبٍ مُواكلِ؟

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ... ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأراملِ

ثم يؤكد في موقفه الثابت:

"كذبتم وبيت الله نبرى محمداً ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل"

مشيرًا إلى أنهم لن يسلموا النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم ولن يتخلوا عنه، بل سيقاتلون دونه حتى النهاية،

"ونسلمه حتى نصرع حوله."

ثم يصف استعداده للتضحية من أجل النبي، قائلاً:

"ونذهل عن أبنائنا والحلائل"

في إشارة إلى أنهم سيتركون كل شيء، حتى أسرهم، لحماية النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم.

ويضيف:

"وينهض قومٌ في الحديد إليكم"

في تهديدٍ واضح للأعداء بأنهم سيقاتلون بأسلحة حادة

"نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل."

ثم يحلف قائلاً:

"وإني لعمر الله إن جد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالأماثل"

بمعنى أن السيوف ستتشابك بينهم إذا تطورت الأمور إلى حرب. ويؤكد ذلك بقوله:

"بكفّ امرئ مثل الشهاب سميدع ... أخي ثقة، حامٍ الحقيقة باسل"،

في وصف لرجال شجعان يقاتلون بلا خوف.

ثم ينتقل إلى وصف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مدحٍ خالدٍ له، فيقول:

"وأبيضُ يُستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل."

حيث يروي هنا قصة استسقاء الناس بوجه النبي في صباه، مشيرًا إلى حادثة معروفة حينما حمله عبد المطلب إلى الكعبة لطلب المطر. عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم غلامًا صغيرًا، حدث القحط، فأخذ عبد المطلب

بيد النبي وأسند ظهره إلى الكعبة، وطلب منه أن يدعو ربه. الروايات تقول إن النبي رفع يده وأشار بإصبعه إلى السماء، فتجمعت الغيوم وهطل المطر. [1]

ثم يتابع:

يلوذُ به الهُلاّكُ من آلِ هاشمٍ... فهُم عندَهُ في نِعمةٍ وفَواضلِ

لعَمري لقد أجرى أُسَيْدٌ ورهطُهُ... إلى بُغضِنا وجزّآنا لآكل

جزَتْ رحِمٌ عنَّا أُسَيداً وخالداً... جزاءَ مُسيءٍ لا يُؤخَّرُ عاجِل

وعثمانُ لم يَرْبَعْ عَلينا وقُنْفُذٌ... ولكنْ أطاعا أمرَ تلك القبائلِ

أطاعا أُبيّاً وابنَ عبدِ يَغوثِهم... ولم يَرْقُبا فينا مقالَةَ قائلِ

كما قَد لَقِينا من سُبَيعٍ ونَوفَلٍ... وكلٌّ تَوَلّى مُعرضاً لم يُجاملِ

فإن يُلْقَيا أو يمكُنَ اللهُ منهما... نَكِلْ لهُما صاعاً بكَيْلِ المُكايلِ

وذاكَ أبو عمرٍو أبى غيرَ بُغضِنا... لِيَظْعَننا في أهلِ شاءٍ وجاملِ

يُناجَى بنا في كلِّ ممْسىً ومُصْبحٍ... فناجِ أبا عَمْرٍو بنا ثمَّ خاتِلِ

---

[1] كما أخرج ابن عساكر عن جَلْهُمَة بن عُرْفُطَة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهَلُمَّ فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دُجُنَّة، تجلت عنه سحابة قَتْمَاء، حوله أُغَيْلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأضبعه الغلام، وما في السماء قَزَعَة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق واغْدَوْدَق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي

ويُقْسِمُنا باللهِ ما أن يَغُشَّنا... بلى قد نراهُ جَهرةً غيرَ حائلِ

أضاقَ عليهِ بُغْضَنا كلَّ تَلْعةٍ... منَ الأرض بينَ أخشُبٍ فمَجادلِ

وسائلْ أبا الوليدِ: ماذا حَبَوْتَنا... بسَعْيكَ فينا مُعْرِضا كالمخُاتِلِ؟

وكنتَ امرأً ممَّنْ يُعاشُ برأيهِ... ورحمتُه فينا ولستَ بجاهلِ

أَعُتْبةُ، لا تَسمعْ بنا قولَ كاشحٍ... حَسودٍ كذوبٍ مُبغِضٍ ذي دَغاوِلِ

وقد خِفْتُ إنْ لم تَزْجُرَنْهُمْ وتَرْعَووا... تُلاقي ونَلْقَى منك إحْدَى البَلابلِ

ومَرَّ أبو سُفيانَ عنِّيَ مُعْرضا... كما مَرَّ قَيْلٌ مِن عِظامِ المَقاوِلِ

يَفرُّ إلى نجدٍ وبَرْدِ مياههِ... ويَزْعمُ أنِّي لستُ عنكُم بغافلِ

يشير أبو طالب عليه السلام إلى أن بني هاشم يجدون في النبي ملاذًا وأمانًا. حيث يقول:

"يلوذ به الهُلاكُ من آل هاشمٍ"

وبالرغم من معاناتهم من الفقر والحصار، يشعرون بنعمةٍ عظيمة بوجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم، إذ يقول:

"فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ"،

أي أن نعمة رسول الله وفواضله تغمرهم، وهم يشعرون بأنهم في خيرٍ وراحة مادام النبي موجودًا بينهم.

ثم ينتقل أبو طالب للحديث عن المناوئين للنبي وبني هاشم فيقول:

"لعمري لقد أجرى أسيد ورهطه ... إلى بُعضِنا وجزّآنا لآكل "

مشيرًا إلى أن أعداءهم يسعون للنيل منهم.

ثم يتحدث عن تحالف القبائل ضد بني هاشم، فيقول:

" كما قَد لَقِينا من سُبَيعٍ ونَوفَلٍ ... وكلُّ تَوَلَّى مُعرضاً لم يُجاملِ"

مشيرًا إلى أن هذه القبائل تخلّت عنهم ولم تساعدهم.

ويقول:

" فإن يُلْقَيا أو يمكُنَ اللّهُ منهما ... نَكِلْ لهُما صاعاً بكَيْلِ المُكايلِ"

بمعنى أنه إذا التقى بهم فسوف يقاتلهم أو ينتصر عليهم بمعونة اللّه، ويجازيهم بنفس الكيل.

ثم يتوجه أبو طالب إلى عتبة، والد هند بنت عتبة، محذرًا إياه من سماع كلام الكاشحين والحاقدين..

قائلاً:

"أعتبة لا تسمع بنا قول كاشحٍ ... حسودٍ كذوبٍ مبغضٍ ذي دغاولِ"

ثم يذكر أبو سفيان فيقول:

"ومرأبُ سفيان عني معرضا ... كما مرَّ قيلٌ من عظام المقاول"

مشيراً إلى أن أبا سفيان يهرب من المواجهة ويفر إلى نجد.

ثم يضيف:

وأَعلمُ أنْ لا غافلٌ عن مَساءَةٍ... كفاك العدوُّ عندَ حقٍّ وباطلِ

فميلوا علَينا كُلُّكُمْ؛ إنَّ مَيْلَكُمْ... سَواءٌ علينا والرياحُ بهاطلِ

يخبِّرُنا فِعلَ المُناصحِ أنَّهُ... شَفيقٌ ويُخفي عارماتِ الدَّواخلِ

أمُطعِمُ لم أخذُلْكَ في يومِ نجدةٍ... ولا عندَ تلك المُعْظماتِ الجلائلِ

ولا يومِ خَصمٍ إذْ أتَوْكَ ألدَّةٍ... أُولي جَدَلٍ من الخُصومِ المُساجِلِ

أمطعمُ إنَّ القومَ ساموك خَطَّةً... وإنِّي متى أُوكَلْ فلستُ بوائلِ

جَزى اللهُ عنّا عبدَ شَمسٍ ونَوفلاً... عُقوبةَ شَرٍّ عاجلاً غيرَ آجلِ

بميزانِ قِسْطٍ لا يَغيضُ شَعيرةً... له شاهدٌ مِن نفسهِ حقٌّ عادلِ

لقد سَفَهتْ أحلامُ قَومٍ تبدَّلوا... بَني خَلَفٍ قَيضا بنا والغَياطلِ

ونحنُ الصَّميمُ مِن ذُؤابةِ هاشمٍ... وآلِ قُصَيٍّ في الخُطوبِ الأوائلِ

وكانَ لنا حوضُ السِّقايةِ فيهمِ... ونحنُ الذُّرى منُهمْ وفوقَ الكواهلِ

فما أدركوا ذَحْلاً ولا سَفكوا دَماً... ولا حَالفوا إلاَّ شِرارَ القبائلِ

بَني أمَّةٍ مجنونةٍ هِنْدَكيَّةٍ... بَني جُمَحٍ عُبَيدَ قَيسِ بنِ عاقلِ

وسهمٌ ومخزومٌ تمَالَوا وألَّبُوا... عَلينا العِدا من كلِّ طِمْلٍ وخاملِ

وشائظُ كانت في لؤيِّ بنِ غالبٍ... نفاهُمْ إلينا كلُّ صَقْرٍ حُلاحِلِ

ورَهْطُ نُفَيلٍ شرُّ مَن وَطىءَ الحصى... وألأَمُ حافٍ من معدٍّ وناعلِ

أعبدَ منافٍ أنْتُمو خيرُ قَومِكُمْ... فلا تُشْرِكوا في أمرِكم كلَّ واغلِ

فقد خِفتُ إنْ لم يُصْلحِ اللهُ أمْرَكُمْ... تكونوا كما كانَتْ أحاديثُ وائلِ

لَعَمري لقَدْ أُوْهِنْتُمو وعَجزتمُوْ... وجِئتُمْ بأمرٍ مُخطىءٍ للمَفاصلِ

وكُنْتُمْ قَديماً حَطْبَ قِدْرٍ فأنتمو... ألانَ حِطابُ أقدُرٍ ومَراجِلِ

لِيهْنئْ بَني عبدِ منافٍ عُقوقُها... وخَذْلانُها، وتَرْكُنا في المعاقل

وفي تحدٍّ واضح لكل من يريد أن يحاربهم يقول:

"فميلوا علينا كلكم"

ويستهين بهم، حيث يخبرهم أنه مهما اجتمعوا لن يضرّوهم، فهم ثابتون كالصخر، والرياح مهما اشتدت لن تؤثر فيهم.

ثم يتحدث عن الخداع والمنافقين فيقول:

" يخبِّرُنا فِعلَ المُناصحِ أنَّهُ ... شَفيقٌ ويُخفي عارماتِ الدَّواخلِ"

، أي أن المنافق يظهر نصحًا وشفقة، ولكنه يخفي دواخله المليئة بالخبث والمكر.

ثم يفتخر بنسبه الطاهر فيقول:

" ونحنُ الصَّميمُ مِن ذُؤابةِ هاشمٍ... وآلِ قُصَيٍّ في الخُطوبِ الأوائلِ"

أي أن أنسابهم نقية وصافية، وهم طاهرون من أي دنس.

ثم يقول:

" فما أدركوا ذَحْلاً ولا سَفكوا دَماً ... ولا حَالفوا إلاَّ شِرارَ القبائلِ"

مشيرًا إلى أن أعداءهم لم يكن لهم عليهم ثأرٌ حقيقي، وتحالفاتهم كانت مع أسوأ القبائل.

ثم ينتقد بني عبد مناف لعقوقهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله، ويقول" :

لِيهْنئْ بَني عبدِ منافٍ عُقوقُها ... وخَذْلانُها، وتَرْكُنا في المعاقل"

مشيرًا إلى أنهم سيلقون جزاء عقوقهم لرسول الله.

ثم يتابع:

فإنْ يكُ قَومٌ سرَّهُمْ ما صَنَعْتُمُ... ستحتلبوها لاقحاً غيرَ باهلِ

فبلِّغْ قُصَيّاً أنْ سَيُنْشَرُ أمرُنا... وبَشِّرْ قُصياً بعدَنا بالتَّخاذُلِ

ولو طَرقتْ ليلاً قُصيّاً عَظيمةٌ... إذا ما لجأنا دونَهُم في المداخلِ

ولو صُدقوا ضَرباً خلالَ بُيوتِهم... لكنَّا أُسىً عندَ النِّساءِ المَطافلِ

فإنْ تكُ كعبٌ من لؤيٍّ تجمَّعتْ... فلا بُدَّ يوما مرَّةً مِنْ تَزايُلِ

وإنْ تَكُ كعبٌ من كعوبٍ كثيرةٍ... فلا بدَّ يوما أنَّها في مَجاهِلِ

وكنا بخيرٍ قبلَ تسويدِ معشرٍ... همُ ذَبحونا بالمُدى والمَغاوِلِ

وكلٌّ صديقٍ وابنُ أختٍ نَعُدُّهُ... وجدْنا لعَمري غِبَّهُ غيرَ طائلِ

سِوى أنَّ رَهْطاً مِن كلابِ بنِ مُرَّةٍ... بَراءٌ إلينا من معقَّةِ خاذلِ

بَني أسَدٍ لا تُطرِفُنَّ على القَذى... إذا لم يقلْ بالحقِّ مِقْوَلُ قائلِ

فنعْمَ ابنُ أختِ القومِ غيرَ مُكذَّبٍ... زُهيرٌ حُساما مُفردا مِن حَمائلِ

أَشَمُّ منَ الشُّمِّ البهاليلِ يَنْتَمي... إلى حَسَبٍ في حَوْمةِ المجْدِ فاضلِ

لعَمري لقد كَلِفْتُ وَجْدا بأحمدٍ... وإخوتهِ دأبَ المحبِّ المُواصِلِ

أقيمُ على نصرِ النبيِّ محمدٍ... أقاتلُ عنهُ بالقَنا والقنابلِ

فلا زالَ في الدُّنيا جَمالاً لأهلِها... وزَينا لم ولاَّهُ رَبُّ المشاكِلِ

فمَنْ مثلُهُ في النَّاسِ أيُّ مؤمَّلٍ... إذا قاسَه الحكَّامُ عندَ التَّفاضُلِ

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ... يُوالي إلها ليسَ عنهُ بغافلِ

فأيَّدَه ربُّ العبّادِ بنصرهِ... وأظهرَ دَينا حقُّه غيرُ ناصلِ

فو اللهِ لولا أن أَجيءَ بسُبَّةٍ... تجُرُّ على أشياخنا في المحَافلِ

لكنَّا اتَّبعْناهُ على كلِّ حالةٍ... منَ الدَّهرِ جِدا غيرَ قَولِ التَّهازُلِ

لقد علِموا أنَّ ابْنَنا لا مُكذَّبٌ... لَدَيهم ولا يُعْنَى بقَوْلِ الأباطلِ

رجالٌ كِرامٌ غيرُ مِيلٍ نمَاهُمو... إلى الغُرِّ آباءٌ كرامُ المخَاصلِ

دَفَعناهُمو حتَّى تَبدَّدَ جَمعُهُمْ... وحسَّرَ عنّا كلُّ باغٍ وجاهلِ

شَبابٌ منَ المُطَيَّبين وهاشمٍ... كبيضِ السُّيوفِ بينَ أيدي الصَّياقلِ

بِضَربٍ تَرى الفتيانَ فيهِ كأنَّهُم... ضَواري أسودٍ فوقَ لحمٍ خَرادلِ

ولكنَّنا نسلٌ كرامٌ لسادةٍ... بهم نَعتَلي الأقوامَ عندَ التَّطاوُلِ

سَيَعْلَمُ أهلُ الضِّغْنِ أيِّي وأيُّهُمْ... يفوزُ ويعلو في ليالٍ قلائلِ

وأيُّهُمو منِّي ومنْهُم بسيفهِ... يُلاقي إذا ما حانَ وقتُ التَّنازُلِ

ومَنْ ذا يملُّ الحربَ مني ومِنْهمو... ويحمدُ في الآرفاقِ مِن قَولِ قائلِ؟

فأصبحَ فينا أحمدٌ في أُرومةٍ... تُقصِّرُ عنها سَورةُ المُتَطاوِلِ

كأنِّي به فوقَ الجيادِ يقودُها... إلى معشرٍ زاغوا إلى كلِّ باطلِ

وجُدْتُ نفسي دونَهُ وحَمَيتُهُ... ودافَعْتُ عنه بالطُّلى والكلاكلِ

ولا شكَّ أنَّ اللهَ رافعُ أمرِهِ... ومُعليهِ في الدُّنيا ويومَ التَّجادُلِ

كمَا قد أُري فِي الْيَوْم والأمس جده... ووالده رؤياهما غير آفل

"وكلُّ صديقٍ وابنُ أختٍ نَعُدُّهُ ... وجدْنا لعَمري غِبَّهُ غيرَ طائلِ"

هنا يشير إلى أن بعض الأصدقاء والأحلاف الذين توقعوا منهم الدعم والنصرة لم يكن وراءهم طائل أو فائدة تُذكر.

ثم يستثني بعض القبائل قائلاً:

" سِوى أنَّ رَهْطاً مِن كلابِ بنِ مُرَّةٍ ... بَراءٌ إلينا من معقَّةِ خاذلِ."

أي أن بعض القبائل، مثل بني كلاب ابن مرة، براء من خذلانهم..

ثم يقول:

" لعَمري لقد كَلِفْتُ وَجْدا بأحمدٍ ... وإخوتهِ دأبَ المحبِّ المُواصِلِ"

معترفًا بحبه الشديد للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإخوته.

ثم يؤكد:

"لقد علموا أنَّ ابْنَنا لا مُكذَّبٌ ... لَدَيهم ولا يُعْنَى بقَوْلِ الأباطلِ".

فهو معروف بالصدق والأمانة، وكل الناس يعرفونه جيدًا.

ويشير إلى نبوءة مستقبلية للنبي فيقول:

" **كأنَّي به فوقَ الجيادِ يقودُها ... إلى معشرٍ زاغوا إلى كلِّ باطلِ**" .

فهو يرى المستقبل بوضوح ويؤكد أن اللّه سيرفع شأن النبي رغمًا عن الأعداء.

ويختتم بذكر رؤيا جده عبد المطلب ووالده عبد اللّه قائلاً:

" **كَمَا قد أُري فِي الْيَوْم والأمس جده ... ووالده رؤياهم غير آفل**"

حيث أن تلك النبوءة ما هي إلا رؤية رآها جده عبد المطلب، ورأيناها، فنعلم بمستقبله..

الفصل الثّامن

الشهادات الأربع.. رؤيا عبد المطلب

تشرفنا في الباب السابق بإيراد لامية أبي طالب الخالدة، تلك اللامية التي شهد من شهد بأنها في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة..

حتى قيل إنها تفوق المعلقات السبع!

وهذه الشهادات كانت صادرة من أناس لا يُحتمل أنهم لأجل ميولهم للتشيع شهدوا بذلك، بل إنها صدرت من أناس بعيدين تمامًا عن الميول الشيعية كابن كثير مثلاً.

هذه اللامية، في أبياتها الختامية، امتدح فيها أبو طالب عليه السلام رسولنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ووعدناكم بأن نتوقف عند هذه الأبيات وما تضمنته؛ يقول عليه السلام:

ومَنْ ذا يملُّ الحربَ مني ومِنْهمُ ... ويحمدُ في الآفاقِ مِن قَولِ قائلِ؟

فأصبحَ فينا أحمدٌ في أُرومةٍ... تُقصِّرُ عنها سَورةُ المُتَطاوِلِ

والأرومة بمعنى الأصل الشريف، كما يقال فلان طيب الأرومة، يعني من بيت أصله شريف وكريم.

وأخذ هذا التعبير من أرومة الشجرة، وهي عندما تُقطع فأصلها الذي يبقى هو الذي يسمى الأرومة. والسورة هنا بمعنى قمة المجد، أي مرتفع المجد، قمة المجد..

يقول: شرف محمد صلى الله عليه وآله في أصله وفي أرومته، تقصر عنها السورة المتطاول.. أي الذي يرتفع مهما ارتفع، ويُذكر أن من يزعم أن له أصلاً خيراً من أصل محمد صلى الله عليه وآله، فإنه يقصر عن ذلك.

ثم يقول:

وجُدْتُ نفسي دونَهُ وحَمَيتُهُ... ودافَعْتُ عنه بالطُّلى والكلاكلِ

أما "الطلى" فهي جمع "طلاة"، وهي العنق أو صفحة العنق، وأما "الكلاكل" فهي جمع "كلكل"، وهو الصدر أو مقدم الصدر.

فمعنى كلام أبي طالب عليه السلام في هذا البيت، عندما يقول: "**وجدت بنفسي**"، أي جُدّت بها من الجود وبذلتها دونه وحميته. ودافعت عنه بالطلى، أي بالرقاب، والكلاكل، أي بالصدور.

أي كما نقول: "أرواحنا فداء لك"، أي أننا جعلنا أعناقنا وأرواحنا وصدورنا وكل ما نملك فداءً له.

ثم يتحدث أبو طالب عليه السلام عن مستقبل هذا النبي الموعود، فيقول:

كأنّي به فوقَ الجيادِ يقودُها... إلى معشرٍ زاغوا إلى كلِّ باطلِ

انتبهوا إلى أن نبوءة أبي طالب هنا صدرت في ظروف الحصار والضعف، حيث كان المسلمون في أضعف حالاتهم، وكذلك بنو هاشم، سواء كانوا

مسلمين أو غير مسلمين، كلهم محاصرون، والنبي صلى الله عليه وآله في وسطهم، والعرب كانت تتألب عليهم وتستعر ضغائنها وأحقادها. ولذلك بدأت الوفود تتحرك هنا وهناك لإعلان ساعة الحرب على بني هاشم. في مثل هذه اللحظة، يتحدث أبو طالب عليه السلام بلهجة الواثق والمطمئن بأن المستقبل سيكون نصراً لهذا النبي، وأنه سيغلب كل هؤلاء العرب. فيقول:

ولا شَكَّ أنَّ اللهَ رافعُ أمرِهِ... ومُعليهِ في الدُّنيا ويومَ التَّجادُلِ

لاحظوا مدى إيمان أبي طالب، فهو واثق بالنصر، يقول: "**لا شك**"، أي ليس لديه أي شك أو تردد بأن الله سيرفع أمر محمد صلى الله عليه وآله "**في الدنيا ويوم التجادل**" أي يوم التخاصم. ثم يتابع:

كَمَا قد أُري في الْيَوْم والأمس جده... ووالده رؤياهما غير آفل

قال أبو طالب: "**أُري**"، فعل بصيغة المجهول، أي رأى. فمن الذي أُري؟

هما جده عبد المطلب عليه السلام، ووالده عبد الله بن عبد المطلب عليه السلام، "**رؤياهما غير آفل**" أي أن هذه النبوءات التي أتنبأ بها، وهذه التوقعات المستقبلية التي أقولها لكم..

سترونه على الجياد يقودها ويحاربكم، ولا شك أن الله رافع أمره ومعليه في الدنيا ويوم التجادل، هذه النبوءات قد رُؤيت من قبل جده عبد المطلب ووالده عبد الله، وقد رأوا في مناماتهم ما رأوا.

وتوارثنا هذه النبوءة نحن معاشر بني هاشم كابراً عن كابر. رؤيا الأنبياء والأوصياء والأولياء حقٌ. وعبد المطلب وأبو طالب وعبد الله بن عبد المطلب هم زرع إسماعيل وذرية إبراهيم، فيهم النبوة والوصية والولاية، فما يرونه يكون حقاً.

هنا أيها الإخوة، لا بأس أن نتوقف قليلاً مع تعليق مفيد من الشيخ المفيد رحمه الله عليه، فإنه ذكر شيئاً من أبيات لامية أبي طالب الخالدة في كتابه إيمان أبي طالب[1] وعلق عليها.

لو فتحنا هذا الكتاب على الصفحة عشرين، نجد للمفيد تعليقاً بعد استشهاده بهذين البيتين لأبي طالب عليه السلام، حيث يقول:

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائشٍ...يوالي إلهاً ليس عنهُ بغافلِ

فأيدهُ ربُّ العبادِ بنصرهِ...وأظهر ديناً حقهُ غيرُ ناصلِ

"غير ناصل" يعني غير زائل، مثلما ينصل السهم عندما يخرج نصله أو يفقده. يقول المفيد تعليقاً على هذين البيتين: "**وما بعد هذا القول المعلوم من أبي طالب رضي الله تعالى عنه المتيقن من قبله، طريقٌ إلى التأويل في كفره، إلا وهو طريقٌ إلى التأويل على حمزة وجعفر وغيرهما من وجوه المسلمين**".

أي بعد ثبوت هذين البيتين اللذين نطق بهما أبو طالب عليه السلام، لا يوجد

[1] في كتابه ؛ إيمان أبي طالب " ص٢٠

طريق للمتأولين إلى تكفيره. هذا الطريق ينقطع عليهم، لأن هذين البيتين صريحان في إيمانه، حيث يقول إن هذا الدين هو الحق. فما هو الإيمان إذاً؟ إنه أن يشهد المرء بحقانية هذا الدين، وقد شهد أبو طالب بحقانية هذا الدين بأصرح عبارة وأبلغها في لاميته المشهورة التي سارت بها الركبان، فلا ينكرها ولا ينكر نسبتها إليه أحد ممن يُعتد به. ثم يشير إلى أنه إذا قبلنا هذا التأويل لتكفير أبي طالب عليه السلام مع ما صدر منه من صراحة العبارات والألفاظ الدالة على إيمانه، فإننا نلتزم أيضاً بقبول أن يتأول متأول على أقوال وأفعال مثل حمزة وجعفر الطيار عليهما السلام، فيقول إنهما لم يؤمنا ويذهب إلى تكفيرهما عياذاً بالله، وكذلك غيرهما من وجوه المسلمين.

يقول: "**إلا وهو طريق إلى التأويل على حمزة وجعفر وغيرهما من وجوه المسلمين، حتى لا يصح إيمان أحدهم، وإن أظهر الإقرار بالشهادتين وبذل جهده في نصرة الرسول صلى الله عليه وآله**".

فإذا فتحتم هذا الباب على أبي طالب عليه السلام، فإنه يفتح بالضرورة على غيره أيضاً، فلا يبقى أحد ممن نطق بالشهادتين وعرف منه الإيمان في أقواله وأفعاله، وبذل جهده في نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا ويمكن التشكيك في إيمانه والزعم بأنه كافرٌ، عياذاً بالله.

فما بالكم تقسون على أبي طالب عليه السلام، يا معشر الناصبة، وتذهبون إلى تكفيره؟

وحين تصدمون بهذه الأبيات التي نطق بها ونظمها، وهي دالة على إيمانه العميق والأكيد، تؤولونها أو تردونها أو تشككون في دلالاتها.

لماذا فقط أبي طالب يُظلَم منكم؟

لماذا تتبعون طريقة التأويل مع أبي طالب ولا تتبعونها مع غيره؟ ثم يعطف المفيد فيقدح في معشر الناصبة، ويرد الكلام عليهم، ذاكراً أبا بكر وعمر وعثمان عليهم لعائن من الله. وما ذلك إلا لأن المفيد متشرب للرفض المقدس، فيقول في التفاتة نابهة منه: "**وهو في أمر أبي بكر وعمر وعثمان أقرب**".

هذا التأويل الذي ينتهي إلى تكفير أحد، إذا قبلتموه في أبي طالب، فهو أقرب في أبي بكر وعمر وعثمان، فيلزمكم تكفيرهم أيضاً.

لماذا؟ كيف أصبح أقرب تكفيرهم؟

يقول: "**لأنه إن لم يثبت الإيمان لأبي طالب، وهو مُقّر في نثره ونظمه، الذي يسير عنه الركبان، ويطبق على رواياته نقلة الأخبار، ورواة السير والآثار، مع ظهور نصرته للنبي صلى الله عليه وآله، وبذل نفسه وولده وأهله وماله دونه، ورفع الصوت بتصديقه، والحث على اتباعه.**"

حيث كان يرفع صوته بتصديق النبي صلى الله عليه وآله "**فإذا مع كل هذا لم يثبت إيمان أبي طالب، كان أولى ألا يثبت للذين ذكرناهم إيمان**"، أي: لأبي

بكر وعمر وعثمان **"وليس ظهور إقرارهم وشهرته يقارب ظهور إقرار أبي طالب رضي الله تعالى عنه ويداني في الوضوح اعترافه بصدقه ونبوته، ولهم مع ذلك من التأخر عن نصرته ومن خذلانه والفرار عنه، ما لا يخفى على ذي حجى ممن سمع الأخبار وتصفح الآثار وهذا لازم لا فصل منه"**

ألزمناكم به، لا يمكنكم أن تنفصلوا عنه، ولا مهرب لكم منه. المفيد يقارن هنا بين أبي طالب وأقواله في تصديق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله، والحث على نصرته منذ بداية الإسلام، انتشرت هذه الأقوال وشاعت، وسارت بها الركبان، حتى أصبحت أشهر بأضعاف مضاعفة مما أثير عن أبي بكر وعمر وعثمان في بداية الإسلام.

فالأقوال هنا أكثر ذيوعًا وانتشارًا، ويضاف إليها أفعال أبي طالب عليه السلام. هذا معلوم بالضرورة، لا يشك فيه أحد، ولا يختلف عليه اثنان، حتى الذين بهتوه بالكفر لا ينكرون أنه كان يجاهد في سبيل نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويبذل نفسه وولده وأهله وماله دونه. كيف لا، وهو الذي يقول:

"جدت بنفسي دونه وحميته   ودافعت عنه بالطلى والكلاكل".

أما الآخرون - أبو بكر وعمر وعثمان - فلهم تاريخ من التأخر عن نصر النبي صلى الله عليه وآله، ولطالما خذلوه وفروا عنه.

وهذا لا يخفى على من سمع الأخبار وتصفح الآثار.

أما أبو طالب عليه السلام لم ينهزم قط عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يتخلَّ عنه، ولم يخذله أبدًا، في حين أن أولئك قد فعلوا.

فإذا كان الفرار والانهزام والتخلي دليلاً على عدم ثبوت الإيمان واستقراره في النفس، فهو حجة أقوى على تكفير هؤلاء، وهذا ما أشار إليه المفيد، حيث بينّ أن تكفير أبي بكر وعمر وعثمان أقرب وأولى إذا طبقنا عليهم نفس المعايير. وهذا من ذكاء المفيد، حيث لا يستطيع أحد أن يفحمه بشيء، فهو مسدد من صاحب الأمر عليه الصلاة والسلام.

انظروا كيف قلب عليهم الحجة، فأصبحوا هم من يدورون حول أنفسهم، بينما كان المفيد يفحمهم بحججه الدامغة.

إن الذين يتطاولون على أبي طالب عليه السلام، ويزعمون ظلمًا وعدوانًا أنه كافر، عياذًا بالله، قد وقعوا في فخ حُججهم، لأنهم بهذا المنهج يلزمهم أن يذهبوا إلى تكفير أبي بكر وعمر وعثمان، ولا يستطيعون الفرار من ذلك.

ولعلني نقلت سابقًا في محاضراتي إحدى مناظرات المفيد رحمه الله مع أحد علماء أهل الخلاف، والتي ألزمه فيها بكفر عمر بن الخطاب، فقال ذلك العالم:

"**ما كنت أظن أن أحداً يناظر في كفر عمر**". لكن المفيد قد فعل!!!!! هؤلاء هم

أسلافنا..[1]

الذين نرفع بهم الرأس.

يقول أيضًا رحمه الله: "**ثم إن أبا طالب رضي الله تعالى عنه يصرح في هذه العقيدة بتصديق النبي صلى الله عليه وآله، أو في هذه القصيدة، بأخص ألفاظ التصديق، وينادي بالقسم في نصرته صلى الله عليه وآله، وبذل المهجة والأهل دونه**".

انتهى تعليق المفيد الذي أردنا ذكره.

نعود الآن إلى آخر بيت رُوي من هذه اللامية العصماء، أعني قوله عليه السلام:"**كما قد أري في اليوم والأمس جده ، ووالده رؤياهما غير آفل**"

ما هي هذه الرؤية؟

وما الذي عندنا عنها؟

إنها الرؤية القديمة التي رآها عبد المطلب عليه السلام في واقعة من الوقائع الاستثنائية، والتي تطابقت مع ما رآه في عالم الواقع، لا في عالم الرؤى.

[1] القصة السابقة قد نقلها الشيخ في محاضرته المسماة بنحن كالمفيد، نجاهر بالرفض وسط الدماء، نقلًا عن الفصول المختارة و هو كتاب للشريف المرتضى عليه الرحمة، وهو تلميذ المفيد، اختار فيه فصولاً مما أفاده المفيد رضوان الله عليه وحررها في كتابه، في هذا الكتاب ص27 ضمّن مناظرة الشيخ المفيد لأحد علماء اهل الخلاف وهو الشيخ ابا عمر الشطوي.. التي قال في نهايتها هذا العالِم: **ماكنت اظن ان احدا يدعي الاجماع على كفر عمر بن الخطاب حتى الان!** و محاضرة الشيخ هذه قد تم تقريرها و إدراجها ككتيّب و هي موجودة في قناة اللجنة.

قد كشف لنا عن هذه الرؤيا وما يتصل بها إمامنا أبو إبراهيم الكاظم عليه الصلاة والسلام، وتلك رواية في "الكافي الشريف"[1].. و هي مروية عن الحسن بن راشد.

وبما أن الشيء بالشيء يُذكر، فإن الحسن بن راشد كان وزيرًا في الدولة العباسية، وكانت حاله كحال علي بن يقطين عليه الرحمة، حيث كان مواليًا للإمام عليه السلام وله قصص وأخبار في دفع الظلم عن بعض شيعة أهل البيت عليهم السلام.

يقول الحسن بن راشد: **سمعت أبا إبراهيم عليه السلام يقول: "لما احتفر عبد المطلب زمزم، وانتهى إلى قعرها، خرجت عليه من إحدى جوانب البئر رائحة منتنة أفظعته، ولكنه أبى أن ينثني أو يتراجع. خرج عنه ابنه الحارث"**

وقد مر معنا في الأبواب الماضية أن أكبر أبناء عبد المطلب هو الحارث، وأن ابن الحارث هذا هو أبو سفيان بن الحارث، الذي كان من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وآله، مع أنه كان أخاه من الرضاعة. وبعد عشرين سنة من العداء والمحاربة، أسلم.

فهذا الحارث، وهو أكبر أبناء عبد المطلب عليه السلام، لم يتحمل تلك الرائحة المنتنة التي خرجت أثناء حفره بئر زمزم، فخرج ... أما عبد المطلب ،

---

[1] [731/ 1] فروع الكافي

فقد بقي.

وفي هذا درس لنا أيضًا: أنك في البداية قد تواجه صعوبة، ولكن بمجرد أن تتجاوزها تصل إلى حيث السعادة.

لاحظوا ما الذي جرى، خرج الحارث ولم يتحمل، ولكن عبد المطلب استمر. تقول الرواية: "**ثم حفر حتى تعمق، فوجد في قعرها عينًا تخرج عليه برائحة المسك**" فلو صبر الحارث قليلاً، لكان قد تجاوز تلك الرائحة المنتنة وجاءته رائحة المسك.

"**ثم احتفر فلم يحفر إلا ذراعًا، حتى تجله النوم**" من كثرة التعب فغفى ونام. فماذا رأى في رؤياه؟ "**رأى رجلاً طويل الباع، حسن الشعر، جميل الوجه، جيد الثوب، طيب الرائحة، وهو يقول: "احفر تغنم، وجِدَّ تسلم، ولا تدخرها للمقسم**".

أي: "لا تدخر ما ستجده للميراث ليُقسم "

الأسياف لغيرك، والبئر لك. أنت أعظم العرب قدراً"

فالبئر لك، و أنت المتولي الشرعي لبئر زمزم، أما الأسياف فهي لغيرك. وأنت الآن أعظم العرب مكانة.. ثم قال: "**ومنك يخرج نبيها ووليها.**" أي أن عبد المطلب، عليه السلام، سيكون من نسله نبي العرب وولي العرب.

وقال أيضًا: "**ومنك يخرج الأسباط النجباء، الحكماء، العلماء، البصراء**".

هذه نبوءة من عبد المطلب عليه السلام، هذه السيوف التي ستجدها بجانبك عندما تحفر بئر زمزم، ستكون لهم، لنبي العرب وولي العرب وللأسباط من عبد المطلب. الأسياف ليست لك اليوم، ولكنها لهم.

هنا قد حصل شيء من الاضطراب في نسخ الرواية، حيث يقصد أن هذه السيوف ليست لعبد المطلب الآن، ولا منه في ذلك الوقت، بل هي لغيره.

فهذه السيوف ليست له في الوقت الحاضر، والذين نُبئ أنهم سيخرجون من نسله، لن يخرجوا الآن، بل في القرن الثاني.

ويتابع: "**بهم ينير الله الأرض، ويخرج الشياطين من أقطارها، ويذلها في عزها.**"

بهؤلاء تُذل الشياطين في عزها "**ويهلكها بعد قوتها**" فمهما استقوت الشياطين، نبي العرب وولي العرب والأسباط من العرب آتون، وسيذلون الشياطين ويهلكونها بعد قوتها

"**يذل الأوثان ويقتل عُبّادها حيث كانوا، ثم يبقى بعده نسل من نسلك**"

أي بعد نبي العرب، هنالك نسلٌ آخر هو أيضًا من نسلك.

لكن من هو هذا ولي العرب بالنسبة إلى نبي العرب؟ "

إنه أخوه ووزيره، وهو دونه في السن. وقد كان القادر على الأوثان"

سواء كانت أوثانًا حجرية أو أوثانًا بشرية.. كما مرت الروايات، هذا النبي كان مقتدرًا على هزيمتها، وكذلك الولي كان مقتدرًا عليها.

"لا يعصيه حرفاً، ولا يكتمه شيئاً، ويشاوره في كل أمر هجم عليه."

أي الولي لا يعصي النبي في شيء، وهو دائم الارتباط والالتصاق بالنبي.

يقول الإمام الكاظم عليه السلام مسترسلاً في بيان ما جرى لعبد المطلب عليه السلام: **"استعيا عنها عبد المطلب"**

يمكن تفسير هذه العبارة بطريقتين: إما أن يكون قد تعب (استعيا، من الإعياء) نتيجة الحفر وما شاهده في المنام، فحدث نفسه بالرجوع، وهذا احتمال.

أو يمكن تفسيره بالمعاياة، أي أنه تحير فيما سمعه، فكلامه صار مضطربًا ومليئًا بالتحير والتشوش، وهذا يدل على تحير عبد المطلب في تلك النبوءات التي سمعها في منامه.

ثم استيقظ عبد المطلب عليه السلام، فماذا وجد؟

وجد ثلاثة عشر سيفًا إلى جانبه.

لماذا ثلاثة عشر؟

لأنه إذا عددنا النبي والولي والأسباط، سنجد أن عددهم ثلاثة عشر.

الأئمة الأسباط مع الإمام علي عليه السلام هم اثنا عشر، ومع النبي يصبح العدد ثلاثة عشر بالضبط.

وتسترسل الرواية في ذكر من أعطى عبد المطلب عليه السلام هذه السيوف كعهدة، فقد أعطاها لبعض أبنائه.

أصل هذا الخبر أن عبد المطلب كان قد تزوج في قبيلة النوفليين، وأعطى للزبير وأبي طالب وعبد الله من أبنائه، وكانوا جميعهم من أم واحدة، أربعة أسياف.

ثم أعطى آخرين أربعة أسياف أيضًا، ووصلت تلك الأسياف إلى جعفر الطيار عليه السلام وغيره من أبنائه.

وفي النهاية، ورث رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام هذه الأسياف كلها، وتوارثها الأئمة الأطهار عليهم السلام.

إلا أن سيفًا واحدًا ضاع عندما فقده عبد المطلب، وقد سقط هذا السيف في موضع لم يستدل عليه!

ويوضح الإمام أبو إبراهيم موسى الكاظم عليه السلام حيث يقول أن هذا السيف الذي سقط من عبد المطلب عليه السلام، أنا أعرف مكانه، لكن لا يحق لي أخذه ولا لأحد غيري، حيث لن يأخذه إلا مهدينا عجل الله تعالى فرجه.

هذه دفائن كنوز الأقدمين من أولياء الله، والتاريخ يعيد نفسه، فمن الذي حفر بئر زمزم وأظهرها؟ عبد المطلب عليه السلام! حيث كانت دفينة منذ زمن إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، لكنه هو من يكتشفها فيثبت حقه.

كذلك هذا السيف، الآن هو مدفون في مكان ما في شعاب مكة، فمن الذي سنراه يتوجه إلى هذا الموضع بالتحديد ويخرج هذا السيف القديم الذي مضى عليه حوالي 1600 عام؟

هو المهدي صلوات الله عليه وعجل الله تعالى فرجه الشريف..

حيث سيأتي ويستخرج سيفه المدخور له منذ زمن جده الأكبر عبد المطلب بن هاشم عليهم السلام.

وتستمر الرواية في قول الإمام الكاظم عليه السلام: **"فوجد عبد المطلب ثلاثة عشر سيفاً مسندة إلى جنبه، فأخذها، وأراد أن يتوقف، لكنه قال: كيف أتوقف ولم أبلغ الماء بعد؟ يجب أن أحفر أكثر حتى أصل إلى الماء، ماء زمزم. ثم حفر قليلاً، فلم يحفر إلا شبراً حتى ظهر له قرن غزال مدفون في هذا الموضع. فاستخرجه، وكان في هذا القرن شهادات أربع مذخورة ومدخرة منذ زمن قديم في هذا الموضع، على ألا يكتشفها إلا عبد المطلب عليه السلام، ومنه تشيع."**

إن هذه الشهادات الأربع هي مدار الدين وأساسه، فالدين يدور حولها منذ آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله.

فكل الأنبياء وكل الأوصياء كانوا يؤمنون بهذه الشهادات الأربع، وهي قوام الدين. فما هي؟ و ما المطبوع على قرن الغزال؟

يقول الإمام الكاظم عليه السلام: "**لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله، فلان خليفة الله.**"

ثم يسأل الحسن بن راشد الإمام الكاظم عليه السلام:"**فلان، متى كان؟ قبله أو بعده؟**"

فيجيبه الإمام: "**فلان لم يأتِ بعد، ولا جاء شيء من أشراطه، إنه المهدي الموعود**".

ويحًا لهؤلاء الذين حذفوا من أذانهم وإقامتهم شهادة "**علي ولي الله**"! ألا يعلمون أن هذه الشهادة كانت منقوشة على قرن الغزال منذ زمن عبد المطلب عليه السلام!؟

"**لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله، المهدي خليفة الله.**"

لدينا أربع شهادات، وهؤلاء الذين حرموا أنفسهم من ذكرها في أذانهم وإقامتهم وتشهدهم، سيندمون يومًا.

هذه شهادة الأنبياء والأوصياء جميعًا، فقد كانوا يقرنون مع الشهادة بالتوحيد ونبوة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، ولاية علي أمير المؤمنين، بل وكانوا يقرنون مع هذه الشهادات الثلاث هذه شهادة رابعة، وهي الشهادة بالإيمان بخلافة المهدي المنتظر عليه الصلاة والسلام.

هذا هو وريث الأنبياء والأوصياء جميعًا، وبه يتحقق أمر لم يتحقق لأي نبي ولا لأي وصي وهو "**ملء الأرض**". إن هذه العبارة "**يملأ الأرض قسطًا وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً**" ذات أهمية عظيمة، فهي تشير إلى حدث عظيم لا مثيل له في تاريخ البشرية.

لم يأتِ زمان نبي أو وصي مهما كانت عظمته عليه السلام، وقد ملأ الأرض كلها بالقسط والعدل واختفى الظلم والجور تمامًا.

حتى في زمن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، على عظمته، وبالرغم من انعدام الظلم والجور على مستوى الرقعة الجغرافية التي كان يحكمها في زمانه، كان الظلم والجور موجودين في بقاع أخرى من الأرض التي كانت خارج سلطانه، فلم ينتهي فيها الظلم ولم تمتلئ الأرض قسطاً وعدلاً.

ولكن هذا الوعد الإلهي سيتحقق فقط في زمن المهدي الموعود، الذي سيملأ الأرض قسطًا وعدلاً بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا، وسيختفي الظلم والجور كليًا من الأرض...

لذا، فإن جميع الأنبياء والأوصياء عليهم السلام يترقبون ظهوره ويعقدون آمالهم عليه. فالعبارة "**المهدي خليفة الله**" وهذه الشهادات الأربع هي رؤيا عبد المطلب بن هاشم التي وجدها منقوشة على قرن الغزال في بئر زمزم من مدخرات الأنبياء والأولياء، علينا أن ننقش هذه الشهادات الأربع في قلوبنا، وحيثما استطعنا

"لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، علي ولي الله، المهدي خليفة الله."

الفصل التّاسع

الرقّة المحمّديّة الإكسيريّة

لعلَّ كثيراً من الإخوة والأخوات تفاجؤوا ببعض المعلومات التي ذكرناها في الأبواب الماضية، ومنها أنَّ رجلاً يُدعى أبا سفيان ابنِ الحارث ابنِ عبد المطلب، كان من ألدّ أعداء رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وممن حاربه لمدّة عشرين سنةً باللسان وبالسِّنان، فلم يتخلّف عن معركة قط حوربَ بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، كما أنّه كان يهجوه ويهجو أصحابَه، ويسُبُّه ويشتِمه هذا مع أنه كان أخَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله من الرضاعة، وكان صديقاً له قبل بعثته، يلازمه دائماً، كان ابنَ عمِّه الذي يُشَبَّه به لأنه قريبٌ منه في صفته وشباهَته، كان من أشبهِ الناسِ به!

لعلَّ هذا الأمرَ كان مفاجئاً لبعض الناس، ولعلّ من المناسب في هذا الباب أن نتوسع أكثر في أمر هذا الرجل، ونطرحُ هاهنا أولى الأسئلة التي يمكن أن تقفز في هذا الإطار، السؤال هو:

أنّ لماذا عادى هذا الرجل رسولنا الأكرم صلى اللّه عليه وآله كل هذا العداء؟ و ما الذي يدفعه إلى هذا؟

دعوةُ النبي صلى اللّه عليه وآله دعوةُ خير، تقبَلها الفطرةُ السليمة، من جانبٍ آخر إنه ابنُ عمِّه، وأخوه، وكان له رفيقاً، وكان به رفيقاً -من الرفق-، فإذا آمنَ به ونصرَه كان في ذلك عزَّه وعزَّ بني هاشم وبني عبد المطلب، و لم يذكر التاريخ أن النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله أساءَ -حاشاه- إلى أخيه

من الرضاعة هذا بشيء، حتى يُقال أنّه عادى النبيَّ لأجلِ ذلك... فما كان النبيُّ الأعظم صلى الله عليه وآله يبادرُ بالإساءةِ إلى أحد، كما لم يذكر لنا التاريخ ولا ذكرَت لنا السيرة أن أبا سُفيان هذا كان من الطامحين لمنصبٍ دينيٍّ أو سياسيٍّ ما، حتى يُقالَ أنّه حسد رسول الله صلى الله عليه وآله على نبوّته.

و لم يذكر لنا التاريخ أنّه طلب من النبي شيئاً فلم يعطِه ولذا حقد عليه مثلاً، وهكذا.. فلا توجد أسباب موضوعية لكل هذا العداء الذي بلغَ حدَّ أن يهجو هذا الرجلُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله، ويشتُمَه بأقذعِ الشتائم، بل ويحاربه بالسيف طوال عشرين سنة!

فأيُّ سببٍ موضوعيٍّ يمكن أن يُنظَرَ إليه بعين الاعتبار في هذا المقام؟

الحقيقةُ أنَّ السبب ذكَره أبو سفيان بنفسه وبلسانه، في أثَرٍ يُروى عنه، ويدُلُّك هذا الأثر على عِظَمِ مصيبةِ البشر في فكرِهم و إدراكهم، فكثيراً ما يؤخَذُ البشرُ بما يُصطلَح عليه "العقل الجمعيّ" وهو أن يرى الإنسان نفسَه غريباً شاذاً عن من يعتبرهم عُقَلاَء الناس، وإذ رآهُم بكثرتهِم يتّبعون شيئاً ما، ويمضون على شيئٍ ما، فإنه وإن استهجنت نفسه ذلك الشي فإنه يتابعهم وينساقُ معَهم إليه بضغطِ وتأثير هذا العقل الجمعي..

تسعةٌ وتسعون بالمئة من الناس لعلهم يقعون في هذا المطبّ، فيفشَلون ويتيهون ويضلّون، إنه التسليم للكُبراء ممن يُظَنُّ أنّهم على رجاحة من العقل وحصافة، هذه كانت خطيئةَ أبي سفيان ابن الحارث، التي كلّفَته عشرين سنةً من عمره في مناصبةِ العَداء لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وهي خطيئةٌ لا تزال تتكرر مع كثيرٍ من أمثاله، وإلى يومنا هذا، وساعتنا هذه!

يروي الواقديّ في مغازيه أن أبا سفيان ابن الحارث قبيلَ فتح مكة وقدوم النبي الأكرم صلى اللّه عليه وآله، حيث لاحت في الأفق تباشيرُ نصرهِ وفتحهِ، وأنّه لا محالة سيسيطر على جزيرة العرب كلها بفتحه للعاصمة الدينية لتلك الجزيرة -أي مكة المكرمة-..

في تلك الأثناء قُبَيلَ فتحِ مكة، خشيَ أبو سفيان من انتقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وَاضطَّرَبَتْ حَالُهُ وَتمَلَّكَهُ الخَوفُ، فَصَمَّمَ عَلَى الْهُرُوب!

إِلَى أَيْنَ يَفرّ؟ هو يعلم من الإرهاصات الآن ومن المقدمات الواضحة؛ أنّ سلطان النبي صلى اللّه عليه وآله سيعُمُّ العرب أجمع في جزيرتهم، فلا يستطيع أن يذهب إلى أي جيب من جيوب العرب؛ لأنه عاجلاً أم آجلاً سيسقط ذلك الجيب في قبضة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله..

فذهبَ هارباً إلى الروم، على أساسِ أنّهم بعيدون عن سُلطان النبي صلى اللّه عليه وآله، وهم امبراطورية أخرى قائمة بذاتها، هذا أمرٌ لافتٌ للنظر،

الذي ينقُله لنا الواقدي في مغازيه[1]، يقول: "**إنه** -أي أبو سفيان هذا- **هربَ وقدِمَ على قيصرَ ملكِ الروم، فقالَ: ممن أنت؟ فانتسبَ له، وقالَ أبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب، قال قيصر: أنت ابنُ عمٍّ محمدٍ إن كنت صادقاً**..."وهذا يدلك على مدى شهرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكيف كانت تتحدث به الملوك والأكاسرة، ".

يقول أبو سفيان، قلتُ: نعم أنا ابنُ عمِّه، فقلتُ -أي في نفسِه- لا أراني عندَ ملكِ الرومِ وقد هربتُ من الإسلام لا أُعرَفُ إلا بمحمد (صلى الله عليه وآله)...

" كأنه شعر هنا بالذل، قال أنا هربتُ من الإسلام حتى لا أذل ولا أقتل، فذهبتُ إلى قيصر ملك الروم أريد أن أصبح من رعاياه وأعيش هناك عزيزاً، وإذا بقيصر لا يعرفني إلا بنسبة من محمد صلى الله عليه وآله، فكيف بشعبه كلهم، لأن النجم المتألقَ في السماء هو نجم محمد صلى الله عليه وآله لا سواه، "

"**يقول: فدَخَلَني الإسلام...!**"

كأن نفسي كُسرت من تلك اللحظة، و انكسر هذا الكبرياءُ المصطنع الذي

[1] ج٢ ص٨١١

جعلني أستكبرُ على الإسلام وعلى نبيّ الإسلام، لأنه حتى يدخلَ الإسلامُ قلبَك لا بد أن يكسر أموراً في قلبك ونفسك..

و الكبرياء المصطنع من تلك الأمور والذي كان آفةَ قريش، قريشٌ بكبريائِها وأنَفتِها وشموخِها واستطالتِها على الناس، كان أمراً صعباً عليهم أن يتخلّوا عن كل ذلك، ويُقال لكلِّ فردٍ منهم أسلِم تسلَم، ما معنى أسلِم؟ هذه الكلمة كانت تستفزهم، لأن معناها سلّم نفسك للّه ولرسوله صلى اللّه عليه وآله، فأنت من هذه اللحظة عبدٌ للّه، وسوقةٌ تُساق من قِبَل رسوله صلى اللّه عليه وآله.

القُرَشيّ الممتلئ فخراً وأنفةً وعزةً وشموخاً كان يعتبر ذلك جارحاً لكبريائِه، "كيف يسوقني غيري" فكان هذا أمراً صعباً عليه، لذا استكبَروا وكفَروا وحارَبوا إلى أن أذلّهم اللّه جلّ وعَلا..

القضية نفسية في كثير من الأحيان.

انكسرت نفسيةُ أبي سفيان التي لم تنكسر طوال 20 سنة، مع ما كان يلاحظه من معاجز رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، ومن علوِّ أمرِه يوماً بعد يوم..

وأنه ما حاربَته قريشٌ قطُّ في موقفٍ إلا وأظهره اللّه عليهِم ونصره، ومع

ظهور دلائِله وبراهينِه، كل هذه الأمور لم تحدِث تلك الانكسارة النفسية في نفس أبي سفيان، إنما الذي أحدث الانكسارة النفسية يوم دخلَ على قيصَر فما عرفه ولا شخّصه إلا بمحمد صلى اللّه عليه وآله فأحس حينئذٍ بوضاعته..

بأنه قزم أمام رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، فإذ تحطَّم هذا الكبرياءُ المصطنع، دخلَ الإسلامُ في نفسِه حينئذٍ،

هو يقول "**يقول: فدَخَلَني الإسلام؛ وعرفتُ أنَّ ما كنتُ فيه باطلٌ من الشِّرك، ولكنّا كنّا مع قومٍ أهلِ عقولٍ باسقة** -أي مرتفعة وعالية، هنا بيت القصيد الذي يفسر لنا السبب الموضوعي الذي جعل هذا الرجل يعادي أخاه طوال عشرين سنة ويحاربه..

حيث يعتبر قومَه من صفوة المجتمع والعقلاء في المجتمع

"**وأرى فاضلَ الناسِ يعيشُ في عقولِهم ورأيِهم** "

و فاضِلَ الناس تعني البقية، حيثُ سلّموهم القياد وقالوا لهم نحن نعيش في عقولكم ورأيكم أنتم قادتنا..

أليست هذه الظاهرة المقيتة ماثلة وشاخصة أمام نواظرنا إلى اليوم؟

ألا توجد إلى اليوم قطعانٌ من "الغنم"! **عفواً**.. "البشر" ..

قد سلّموا أنفسهم لقادةٍ لهم يتّبعونهم بلا تفكير ولا تأمّل، بل ويكابرون ويبالغون حتى تسمع من بعضِهم كلماتٍ لا توقفُك منه إلاّ على مدى سخافةِ رأيه وجهلِه وتخلّفه؟

هذه الآفة التي كانت في أبي سفيان ابن الحارث، فحارب بسببها أخاه رسول الله صلى الله عليه وآله

"**.. ولكنّا كنّا مع قومٍ أهلِ عقولٍ باسقة، وأرى فاضِلَ الناسِ يعيشُ في عقولِهم ورأيِهم فسلَكوا فجّاً فسلكناه، ولمّا جعلَ أهلُ الشرفِ والسِّن..**"[١] يعني أولئك الناس المعروفون في بيوتهم وأصولهم، ويُعتبرون من الشرفاء و من الكبار في أعمارِهم ومن شيوخ قومهم..

ولمّا جعل أهلُ الشرف والسنّ يقتحمون عن محمد صلى الله عليه وآله وينصرون آلهتهم، ويغضبون لآبائهم اتبعناهم، لأننا قلنا في أنفسنا ليس من المعقول أن هؤلاء وهم صفوة المجتمع وعلية المجتمع وكبارُ القوم في سنّهم، في شيبتهم، في عقلهم، في شرفهم، أنهم يجتمعون جميعاً على محاربة هذا الرجل والانتصار لآلهتهم وهم على باطل!

لا بد أن نتبعهم ونسلك الفجَّ الذي سلكوه، هذه هي الأزمة!

---

[١] مغازي الواقدي

وما لم تتحرّر أيّها المسلم المؤمن من هذه القيود الاجتماعية الضاغطة، من هذا العقل الجمعي، من تأثير الكُبَراء ومن من الانسياق للكبراء، فلن تتقدّم ولن تنجو، وإلا فليس لك مستقبل أخروي، بل ولا حتى دنيوي، فما اتّبع أحدٌ أحداً عن جهالة، وعن هوى، إلا وزلت قدمه في الدنيا قبل الآخرة!

إنما الاتباع حقٌّ الاتباع ينبغي أن يكون بعد إعمال النظر، وبعد برهان وسلطانٍ مبين، حينئذ إن ظهرت لك عدالةُ وحقّانية وحصافةُ من تتّبعه فحينئذ سلّم له القياد، لأنك وصلت إلى هذه النتيجة عن برهانٍ وإعمال نظرٍ وعقل، أما أن تسلّف عقلك لغيرك فهو من يفكّر عنك، ويقول لك هذا صوابٌ وهذا خطأ، هذا حقٌّ وهذا باطل، فهذا هو التقليد الأعمى.. وهو الذي يرجعك إلى الوراء، فلا تخطئنَّ خطأ أبي سفيان ابن الحارث، فإنك لا تدري ما مستقبلك!

أبو سفيان هذا تداركَتْه رحمة الله ورحمة رسوله صلى الله عليه وآله، فتاب ودخلَ الإسلام بعد ما حدث..

أنت لا تدري لعلَّ الله يقبضُ روحَك بعد ساعة، و تكونُ فرصتُك قد انقضت، فلم تتُب و مضيتَ إلى دارِ الحقّ محملاً بتلالٍ من الآثام، كل ذلك الاتباع كالأعمى لقومٍ اعتبرتَهم من العلماء والحكماء والعُقلاء، هلاّ تأنيت؟ هلاّ نظرْتَ؟ هلاّ بحثتَ؟ هلاّ تحققتَ؟

نحن قد مر معنا أن أبا سفيان أخيراً رقّ له رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، و نعيد على مسامعكم ما جاء في بحار الأنوار في هذا الشأن[1]، يقول: "**و قد كان أبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب، و عبد الله ابن أبي أمية ابن المُغيرة** -الأول ابنُ عمٍّ رسول اللّه و أخوه من الرضاعة، والثاني صهرُه فهو أخو أمّ سلمة عليها الرضوان- **كانا قد لقيا رسول اللّه صلى الله عليه وآله بنيقِ العُقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه فلم يأذن لهما، فكلّمتْهُ أمّ سلمة فيهما، فقالت يا رسول اللّه ابنُ عمّك و ابن عمّتك و صهرك الآخر، قال لا حاجة لي بهما، أما ابنُ عمّي فهو الذي هتك عرضي** بهجائه وقصائده وسبابه وشتائمه، **وأما ابنُ عمّتي وصهري فهو الذي قال لي بمكّةَ ما قال**، الذي حكاه القرآن الحكيم:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا [2]﴾ (93)

---

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢١ - الصفحة ١٠٢

[2] الإسراء: ٩٠-٩٣

أحياناً قد يُطلق الإنسان كلمةً تشكّل حاجباً عن الهدى إلى أبدِ الدهر، قد يطلبُ طلباً تعجيزياً تعنُّتياً، أو لنسميه طلبا بهلوانياً، كأنه يريد من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله أن ينتقل إلى البهلوانية..

المشكلة هي في من يلتقط من البشر، يلتقطون ذلك فيتّخذونه حجة ويبدؤون بالسخرية وتوالي السخرية، وهذا الذي حصل، كلمةٌ أطلقَها عبد اللّه ابن أبي أمية هذا فسرَت في قريشٍ وصاروا يسخَرون من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، يرَون معاجزه من جهةٍ أخرى، وأعظمها القرآن، يرَون شقَّه للقمر، يرَون أنّه كلّم الموتى وأحياهم لهم، قالوا إن هذا إلا سحرٌ يُؤثَر!

وقالوا أيضاً: وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا !

هذه كانت طلباتهم الساخرة، ولكن المشكلة أن البعض تمسّك بهذه الكلمات، وكانت عائقًا أمام قبول الهداية والدعوة الإصلاحية.. هذا يُعد من الخطايا الكبرى ومن الآثام العظيمة.

ولهذا كان النبي صلى اللّه عليه وآله متألماً، وكان يقول لأم سلمة: "**و أما ابن عمتي وصهري هو الذي قال لي في مكة ما قال**". ألا تذكرين ما الذي قاله، مما حكاه القرآن الحكيم، طوال هذه العشرين سنة كم شخصاً مات على ملة الكفر والشرك والجاهلية بسبب التقاطه لهذه الكلمة وتكرارها؟ من يتحمل مسؤولية ذلك كله؟

تقول الرواية "**فلمّا خرجَ الخبر إلى أبي سفيان وابنه بأن رسول الله صلى الله عليه وآله يرفض استقبالهما، قال أبو سفيان: "والله ليأذننَّ لي بالدخول عليه، أو لآخذنَّ بيد ابني هذا، ثم لنذهبنَّ في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً"، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، رقّ لهما وأذن لهما بالدخول، فأسلما**".

كان وضع أبي سفيان خطيراً جداً، فلولا أن النبي صلى اللّه عليه وآله قَبِلَ إسلامه وتوبته، لربما قُتل، يروي أبو سفيان كما في مغازي الواقدي عن الأجواء التي أحاطت به أثناء انتظاره الإذن بالدخول على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكيف كان يحاول أن يظهر أمام عينيه لعلّه يعفو عنه. يقول: "**فلما طلعَ مركَبَه، تصديتُ له أمام وجهه، فلما ملأتْ عينَيه منّي، أعرضَ عنّي بوجهِه إلى الناحية الأخرى، فتحولتُ إلى ناحيةِ وجهِه الأخرى؛ وأعرضَ عني مراراً، فأخذَني ما قَرُبَ وما بَعُد** - الخوف والاضطراب الشديد -

وقلتُ أنا مقتولٌ قبلَ أن أصلِ إليه، وأتذكَّرُ بِرَّهُ ورحمَتَهُ وقرابَتي فيمسكُ ذلك مني.."

ولكن كنت أيضاً أتذكر برّ النبي صلى اللّه عليه وآله أبو القاسم ورحمته وقرابتي منه، فكان ذلك يهدئ من خوفي، "**وقد كنت لا أشك أن رسول الله**

صلى الله عليه وآله وأصحابَه سيفرَحون بإسلامي فرحاً شديداً لقرابتي منه"..

فأنا ابن عمه وأخوه من الرضاعة، وأشبه الناس به في قريش في الشكل، ولكن خابَ أملُه!

"فلمّا رأى المسلمون إعراضَ النبي صلى الله عليه وآله عنه، أعرضوا عني جميعاً، فلَقيَني ابنُ أبي قُحافةَ مُعرضاً -أبو بكر- **ونظرتُ إلى عمرَ يغري بي رجلاً من الأنصار، فألزَّ** -التَصَقَ- **بي رجلٌ يقول 'يا عدوَّ الله، أنتَ الذي كنتَ تؤذي رسول الله وتؤذي أصحابَه، قد بلغْتَ مشارقَ الأرض ومغاربَها في عداوتِك' فرددْتُ بعضَ الردِّ عن نفسي، فاستطالَ عليّ، ورفَعَ صوتَهُ، حتّى جعلَني في مثل الحَرَجةِ** -الشجر الملتفّ- **من الناس، يُسَرّونَ بما يُفعلُ بي"!**

كان وضع أبي سفيان مقلقًا للغاية!

فهو بين الحياة والموت في تلك اللحظات ... وقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وآله رقّ له في النهاية، وقبل أن يدخل عليه..

وأخيرًا قبلِ إسلامه.. بعدما تناهى إلى مسامعه الشريفة أن أبا سفيان قال: **"لأذهبنّ أنا وابني هذا حتى نموت عطشاً وجوعاً."**

فرأف به النبي صلى الله عليه وآله في تلك اللحظة، لكنَّ السؤال: من الذي علّم أبا سفيان ما يقول حتى يصفَح عنه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إنه أمير المؤمنين علي عليه السلام، الذي عُرف بعفوه ورحمته، هذا مذكور في عدد من المصادر مثل "الدرجات الرفيعة" للسيد ابن معصوم، و"سمط النجوم" للعصامي، و"الاستيعاب"[1] لابن عبد البرّ، وغيرها من المصادر..

تروي الروايات أن الإمام علي عليه السلام قال لأبي سفيان: "ائتِ **رسول الله صلى الله عليه وآله من قبَل وجهه، وقُل له ما قالَ إخوةُ يوسُف ليوسُف عليه السلام:** (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ[2]) . **فإنّهُ لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ قولاً منه، وسيُجيبه بما أجاب به يوسُف عليه السلام إخوته**، وبالفعل يقول أبو سفيان فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .[3])

وقد مر معنا أنه صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام بعد ذلك: "**بصّرِ ابنَ عمّك الوضوء والسنة**"..

هذا هو الفرق بين المنهج المحمديّ العلويّ ومنهج عمر.

---

[1] الاستيعاب، ج 4، ص 1674

[2] يوسف ٩١

[3] يوسف ٩٢

بين منهج العفو والرحمة ومنهج القسوة والشدّة، فقد كان عمر يحرّض رجلاً أنصارياً على قتل أبي سفيان بن الحارث، وهنا يطرح سؤال:

لماذا كان عمر يحرض ذلك الرجل على قتل أبي سفيان؟

إن كان عمر شجاعاً، فلماذا لم يتقدم هو وينفذ هذه المهمة؟ لم يتقدم لأنه كان جباناً، ودوره كان الإغراء والتحريض!

متى يرفع عمر السيف؟ إذا وجد نفسه محاطاً بالناس..!

كما حدث حين هجم على الزهراء عليها السلام!

كان معه كتيبة كاملة من 300 مسلح! هنا يظهر قوته أو شجاعته المزعومة. أما إذا ترك لوحده، فهو لا يستطيع فعل شيء.

مثل الشخص الذي يتحدى في وسط الناس، ولكنه إذا بقي وحده، يظهر خوفه وجبنه، و يمكننا أن نرى هذا في مواقف كثيرة.

ذات مرة، حدث أن أحد الشباب المؤيدين لأبي بكر رآني وأنا أنزل من الحسينية القديمة، وكان معه شخص آخر. بدأ هذا الشاب بالتطاول عليّ، فقال لي: "هل تجرؤ أن تقول ما تقوله عن أبي بكر وعمر أمامي؟"

فنزلتُ من السيارة وقلت: "قلها في وجهي، ماذا ستفعل؟"

لم يستطع الشاب فعل شيء! هذه قضية نفسية؛ الجبان يُعرف من تصرفاته.

عمر كان جباناً. إذا كان غضبك على أبي سفيان نابعاً من غيرتك على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، فلماذا لم تتقدم أنت وتضرب عنقه؟ لماذا تحرّض رجلاً آخر على ذلك؟ أولاً، لأنه جبان. وثانيًا، لأنه يعلم أن هذا مخالف لأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله. فرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله إذا جاءه أحد مستسلمًا تائبًا، ولم يأذن النبي صلى اللّه عليه وآله بشيء تجاهه، فلا يحق لأحد أن يتصرف من تلقاء نفسه.

لو قتل هذا الرجل، لكانت الفتنة اشتعلت من جديد، كان المسلمون على وشك فتح مكة، وكان لابد من إخماد الفتن، لا إشعالها. ولو قُتل أبو سفيان، لوقعت الفتنة بين بني هاشم أنفسهم. أبناؤه سيطلبون الثأر، وقد يتحركون ضد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله.

هذه الفتنة كانت ستزيد الأمور تعقيداً، عمر أدرك هذا، ولذلك لم يفعل شيئاً سوى تحريض ذلك الرجل الأنصاري.. ولو فعل الأنصاري ذلك، لم يكن عمر ليحاسب، بل الرجل هو الذي سيتحمل المسؤولية، وسيخرج عمر من الأمر كالشعرة من العجين، ويقول: "أنا لم أفعل شيئاً"!

دور عمر كان التحريض والتحريش بين الناس. لماذا لم يتحرش بعبد اللّه بن أبي سلول أو غيره؟ هذا موضوع آخر.

فقد كان عمر يغض الطرف عن عيوب من يحبهم، ولكنه يعظم عيوب من يكرههم، عمر كان يكره بعض الناس، ويحب بعضهم. كان يكره خالد بن الوليد في بعض الأحيان، وكان يحرض أبا بكر على قتله بعد رجوعه من حروب الردة.

ولكنه في المقابل، كان يحب معاوية... و يقال إن عمر غرّم كل عمّاله إلا قنفذاً الذي ضرب فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد أحبه لذلك..

هذه المواقف توضح مدى جبن عمر ومدى حبه للتحريض وإشعال الفتن.

على النقيض، منهج النبي صلى اللّه عليه وآله كان قائماً على العفو والرحمة. عندما رقّ لأبي سفيان، قبل إسلامه وعفا عنه.

وكان دور علي عليه السلام متسقاً مع هذا المنهج النبوي؛ علّم أبا سفيان ما يقول لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله حتى يعفو عنه، وهكذا، تحول أبو سفيان من عنصر معادٍ للإسلام إلى عنصر نافع في خدمة الدعوة الإسلامية، بفضل الرقة المحمدية الإكسيرية التي تحوّلُ عنصراً إلى عنصرٍ آخر.

نعود إلى "مغازي الواقدي" لنستمع إلى ما قاله أبو سفيان بعدما رقّ له النبي صلى اللّه عليه وآله وقَبِل إسلامه..

كان من الواضح أن النبي صلى الله عليه وآله مع هذا متألما من أخيه هذا، ولطالما كان النبيُّ يقبل إسلام أناسٍ لمعنى أنه قد رفعَ عنهم العقاب، ولكنّه داخلياً في مشاعره كان لا يتحملُ قربَهم أو دنوهم منه.

أحدهم مثلاً "وحشيّ" قاتِلُ حمزة عليه السلام.. فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله مستعفياً، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقَبِل إسلامه، لكنه قال له: "غَيِّب وجهك عني" لا ترني نفسَك، أنا قد رضيت بإسلامك، ولكن كلما أراك أتذكر ما فعلتَ بعمي حمزة عليه السلام!

فقد مثل بجثمان حمزة، قطع أعضاءه، إلى هذه الدرجة! من يتحمل هذا؟ قطع أوصاله وأخرج كبده وأعطاها لهند لعنها الله، فلاكتها.

شيء كهذا صعب جداً على النفس. فكل ما طلبه النبي صلى الله عليه وآله منه هو أن يغيّب وجهَه عنه..

أبو سفيان بن الحارث أحسّ أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله، رغم أنه عفا عنه، إلا أنه لا يطيق قربه كثيراً. ومع ذلك، كان يحاول أن يدنو أكثر من النبي، لعل النبي يتغير ويذهب ما في نفسه تجاهه. يقول: "**وهذا جرى بعد فتح مكة**"..

الموقف الأول كان قبل فتح مكة، والآن جرى فتح مكة والنبي انتصر صلى الله عليه وآله، وبالمناسبة، بعد الفتح، لم يسكن النبي صلى الله عليه وآله في مكة. حتى قيل له: "ألا ترجع إلى دارك؟" فقال: "**وهل تركَ عقيلٌ لنا داراً؟**"[1]!

فقد باع عقيل بن أبي طالب الوغد، دار رسول الله صلى الله عليه وآله ودار بني هاشم، وانتفع من وراء ذلك. فكان النبي صلى الله عليه وآله يضرب له قبة في شعاب مكة، يعيش في بيت مؤقت من الشعر أو ما شابه.

فيقول أبو سفيان بن الحارث: "**فدنوتُ من بابِ قبّته، فنظرَ إليَّ -النبي صلى الله عليه وآله- نظراً هو ألينُ ذلكَ النظرِ الأوّل**" شعرتُ أن قلبَ النبيّ بدأ يلين تجاهي أكثر، "**قد رجوتُ أن يتبسّم ولكن ما تبسّم**"، ويقول: "**ودخلَ عليه نساءُ بني عبد المطلب، ودخلتْ معهنَّ زوجتي، فرقّقته عليّ أكثر فأكثر، وخرج إلى المسجد، وأنا بين يديه لا أفارقه على حال**"، ألازمه لعلّه يرضى عني ويتبسم لي!

لأن رضاه صلى الله عليه و آله هو رضى الله عز وجل، وتفتح لك أبواب الجنة ببسمة واحدة من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقول: "**حتى خرجَ إلى هوازن**" في معركة حنين، التي وقعت بعد فتح مكة.

---

[1] صحيح ابن حبان 5149 و علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج ١ - الصفحة ١٥٥

"مقدمة بسيطة عن هذه الحرب"؛

النبي صلى الله عليه وآله فتحَ مكّة، وسقطت العاصمة الدينية للعرب، و طهّرها من الشرك والوثنية، وكسّر الأصنام، و انكسرَت قريش وسلّمَت وأسلَمت.. و تناهى الخبرُ إلى سائرِ العرب.

هناك بالأطراف ما بين مكة والطائف يوجد قبيلةٌ عظيمة من العرب هي **قبيلة هوازن** وما والاها قبيلةُ ثقيف في الطائف، هاتان القبيلتان من أعظم قبائل العرب و أكثرها عناداً و شدةً وبأساً في الحروب..

هاتان القبيلتان مع ما تحالفت معه من حالفها من قبائل العرب صمّموا على أن يثأروا فتجمّعوا جميعاً وقالوا و أعلنوا النفير لكي يحاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله ويقضوا عليه بعد هذه الفاجعة، وهي دخوله مكّة، فجيّشوا جيشاً عظيماً، وكان يتجه إلى مكّة، لكن من حصافة النبي و ذكائه العسكري أنه خرج بأصحابه العشرة آلاف لمواجهة هذا الجيش خارج مكّة، لأنه إن قَبِلَ أن يأتوه إلى مكة فيحاربوه هناك، حيث أن أهل مكة طلقاء حديثو الإسلام فإذا جاء هؤلاء وهم تخالطوا مع المسلمين الآن، فقد ينتهزوا الفرصة و ينقلبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله فتكون هناك جبهتان مفتوحتان عليه خارجية وداخلية، فاستبقَ الأمر وخرج بأصحابه إلى حُنين ووقعت هناك غزوة حنين الشهيرة..

يذكرُ أبو سفيان بن الحارث انه خرج مع النبي إلى حنين لكي يكفر عما مضى، فيقول[1]: " **وأنا بين يديه لا أفارقه على حال، حتى خرجَ إلى هوازن، فخرجتُ معهُ، وقد جمعتِ العربُ جمعاً لم يُجمَع مثلُه قَط، وخرجوا بالنساءِ والذرّيّة والماشية**"

وأخرجوا نساءهم وذرياتهم وماشيتهم معهم، حيث كانوا يستبسلون في القتال ليحاموا عن أعراضهم وذرياتهم وأموالهم..

ويقول: "**فلمّا لقيتُهم قلتُ في نفسي: اليوم يُرى أثري إن شاء الله، ولمّا لقيتُهم حملوا الحملةَ التي ذكرَ الله، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** "..

ما ثبت مع النبي صلى الله عليه وآله في حُنَين إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقلّةٌ من بني هاشم لا يتجاوز عددهُم تسعة أشخاص متقلقلين، أحدهم العباس وعتبةُ وعتيبةُ ابنَي أبي لهب، وأيمن ابنُ أمِّ أيمن رحمها الله، وقد مضى شهيداً في حُنَين... لكن الوحيدَ الذي لم تتحوّل قدمُه عن رسول الله صلى الله عليه وآله خطوة واحدة هو أبو الحسنِ عليّ، قد كان الوضع خطيراً جداً، إلا أن النبي صلى الله عليه وآله ثبت، وأبو سفيان كان أحد الذين ثبتوا معه، ويقول أبو سفيان: "**وثَبتَ رسول الله صلى الله عليه وآله على بغلَتِه الشهباء، وجرّدَ سيفَهُ، فأقتحمُ عن فرسي، وبيدي السيفُ صلتاً،**

[1] مغازي الواقدي

قد كسرتُ جَفنَهُ، واللهُ أعلَمُ أنّي أريدُ الموتَ دونَه في تلك اللحظة، فأخذَ العباسُ بنُ عبد المطّلب بلجامِ البغلة، فأخذتُ بالجانبِ الآخَر، فقالَ مَن هذا؟ فذهبْتُ أكشفُ المِغفَر، فقال العباس: يا رسولَ الله، أخوكَ وابنُ عمّك أبو سفيان بن الحارث، فارضَ عنه أي رسول الله، عندها قال النبي صلى الله عليه وآله: 'قد فعلتُ، فغفرَ اللهُ له كلَّ عداوةٍ عادانيها'"..

فأبو سفيان بن الحارث لم يتمالك نفسه في تلك اللحظة!

يقول: "**فأقبّلُ رِجلَهُ في الرِّكاب**".

لقد رضى عني النبي صلى الله عليه وآله، وهذه كانت غايتي، وكما قلنا، فإن الرقة المحمدية كانت إكسيراً يبدل القلوب والرجال، انظروا كيف تحول هذا الإنسان من عدو لدود يهجو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يتخلّفُ عن محاربته في كلّ معركة إلى شخص يدافعُ عن رسول الله وينافحُ عنه، حتى استفادَ منه الإسلام في صالح الدعوة الإسلامية..

بل إنّ الرّقّة المحمّدية، التي يمكن أن نصفها بالإكسير، بلغت حداً جعلها تحول مشركاً من صناديد المشركين الأعداء الألدّاء إلى داعم عسكريّ للمسلمين، بل ومحاربٍ معهم، مع بقائه على شركه، هل سمع أحد بهذا من قبل؟

هذا الرجل هو صفوانُ بنُ أميّة!

كان هذا الرجل في فتح مكة من القلّة الذين حاربوا، كان هذا يُظهر مدى عناده وإصراره على محاربة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم.

و تعلمون أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عندما توجّه إلى مكة، وخرج أبو سفيانُ بنِ حرب ورأى جيش رسول اللّه العرمرم العظيم، فعلم أنه لا مجال للمقاومة وأنه لا محالة من انتصار محمد، فأقبل إلى قومه رافعاً الراية البيضاء، معلناً الاستسلام، وقال لهم: "أقصى ما استطعت أن أحصل لكم عليه من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم هو أنه قد أمّنَكم، فمن دخل المسجدَ فهو آمن، ومن أغلقَ عليه دارَه فهو آمن، ومن دخلَ دار أبي سفيان فهو آمن؛ فلا تحاربوا"

فلا مجال إذن للمقاومة، فقد فُتحت مكة ودخلها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم سلمياً، لكن كان هناك جيبٌ من المشركين لم يقبَلوا بأوامر أبي سفيان، وسبّوه، وقالوا: "لا، لا يدخلنها ولا تتحدث العرب أن محمداً دخل مكّة عنوة، سنقاتل"، فجهَّزوا أنفُسهم، و شحذوا أسلحتهم وتهيؤوا للقتال، أحدُ هؤلاء كان صفوان بن أمية.

يذكرُ الواقدي في "المغازي" أن صفوان بنُ أمية وعكرمةَ بنُ أبي جهل وسهيلُ بنُ عمرو، دعَوا إلى قتال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وضوى إليهم بعض من قريش ومن بني بكر وهُذَيل، ولبسوا السلاح وهم يقسمون باللّه لا

يدخلها محمدٌ عنوةً أبداً، إلى أن يقول: "فلمّا دخلَ خالدُ بنُ الوليد وجدَ جَمعاً من قريش وأحابيشها (العبيد) قد جمعوا له، وكان فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فمنعوا الدخول وشهروا السلاح ورمَوا بالنَّبل وقالوا: "لا تدخُلُها عنوةً أبداً"..

فصاح خالد بنُ الوليد في أصحابِه وقاتَلهم، فقتلَ منهم أربعةً وعشرين رجلاً من قريش وأربعةً من هُذَيل، وانهزموا أقبحَ الانهزام، حتى قتلوا بالحَزوَرَة (سوق مكة)، وتفرقوا في كل اتجاه، وصعدَ بعضُهم إلى رؤوس الجبال، واتّبَعهم المسلمون، فجعَلَ أبو سفيان بن حرب وحُكَيم بن حزام يصيحان: "يا معشرَ قريش، علامَ تقتلون أنفسكم؟ من دخلَ دارَه فهو آمن، ومن وضع السلاحَ فهو آمن، فجعلَ الناسُ يقتحمون الدور ويغلّقون عليهم الأبواب ويطرحون السلاح في الطرق، حتى يأخذها المسلمون، ولمّا ظهرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ثنيّة أذاخرِ (مكان مرتفع في مكة) ونظرَ إلى بارقةِ السيوفِ تحتَ أشعّة الشمس..

وقال: "**ما هذه البارقة؟ ألم أنهَ عن القتال؟**" قيل له: "**يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتِلَ، ولو لم يُقاتَل ما قاتَل**"، **فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "قضى الله خيراً"**.

وأما صفوان بنُ أميّة، فهو أحدُ الذين صمّموا على القتال ولم يستسلموا، كان من صناديد المشركين..

هرب صفوان حتى وصل إلى "الشَّعَيْبَة" (مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز (البحر الأحمر)، قبل أن تصبح جدّة هو المرفأ الرئيس).

هناك، كانت سفنه ترسو، وجعلَ يقولُ لغُلامه يَسَار أن ينظر إن كان أحدٌ يلحق بهم، وكان بالفعل هناك شخص يتبعهم: عُمَير بنُ وَهب، قال صفوان: "ما أصنعُ بعُمَير؟ واللّه ما جاء إلا يريدُ قتلي. قد ظاهرَ محمداً عليّ". فلحقهُ وقال: "يا عُمَير، ما كفاكَ ما صنعتَ بي، حمّلتني دينَكَ وعيالَك، ثمّ جئتَ تريدُ قتلي"، فقال عُمير: "أبا وهب (كنية صفوان)، جُعلتُ فداك.

جئتُك من عند أبرّ الناس وأوصلِهم.. رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فلتستغل الفرصة وتدخل إلى قلب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم من باب رقّته ورأفته وحيائه فيعفو عنك، وقد كان عُمَيرٌ قال لرسول اللّه: "يا رسول اللّه، سيدُ قومي خرجَ هارباً ليقذف نفسَه في البحر، وخاف ألا تؤمّنَه، فأمِّنْهُ فداكَ أبي وأمّي"، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: "**قد أمّنتُه**"!

فخرج عمير في أثر صفوان وقال له: "إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قد أمّنك"، فقال صفوان: "لا واللّه لا أرجعُ معَك حتّى تأتيَني بعلامةٍ أعرفُها"، فرجع عمير إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأخبره بما قال صفوان،..

ماذا تتصورون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل؟

قالَ له: "**خذ عِمامَتي**"!

أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمامته لعُمَير ليدلّ صفوان على أنّه قد أمّنه، مشرك من كبار المشركين، حارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشرين عاماً، وحتى بعد دخول مكة، لم يستسلم وظل يحارب حتى اللحظة الأخيرة. ومع ذلك، النبي صلى الله عليه وآله وسلم، برأفته، أعطاه عمامته ليؤمنه.

أين تجد قائداً في الدنيا مثل شمائل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسجاياه وصفاته ورأفتِه ورقّته وحكمته؟

من حكمتِه كيف تحوّل هذا الرجل وكيف تغيّر بعد أن منحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمامته، اليوم، لو نال الناس مجرد خيط واحد من هذه العمامة، لاقتتلوا عليه.

في زماننا، لو أتى شخص بخيط واحد من عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما مسسناه بشيء مهما كان، حتى لو كان ظالماً كصدام حسين. فلو احتمى صدام بخيط من عمامة رسول الله، أو لو دخل الحرم المكي، هل كنا نستطيع أن نمسه؟ كلا.

لأنه استأمن بحرم اللّه، فلا يجوز أن يمُسَّ حتى يخرج.

ربما نضيّق عليه في الشراب والطعام حتى يخرج، ولكن طالما هو في الحرم، لا يمكننا مسه..

لو جاءنا أحد اليوم بخيط واحد من عمامة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، أو بشسع نعله، أو حتى بذرة من تراب وطأت عليه قدماه الطاهرتان، فما أعظم ذلك! إن تقديس المؤمنين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم نابع من إدراكهم لعظمة هذا الإنسان، الذي هو أعظم ما خلق اللّه، قال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمير: "**خذ عِمامتي**".

فرجعَ عُمير إلى صفوانَ بها، وهو البُردُ الذي دخلَ فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يومئذٍ معتجراً به، بُردَ حِبَرى (أي من ثياب اليمن)، فلفّهُ على رأسِه، واعتجرَ به..

رجع عُمير إلى صفوان الذي كان قد هرب إلى الشَّعَيبَة، وأخبره بأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قد أمنه، فقال له: "**جئتُكَ من عندِ خير الناس، وأوصلِ الناس، وأبرِّ الناس، وأحلَمِ الناس، مجدُه مجدُك، وعزُّ عزُّك، وملكُه مُلكُك، ابنُ أمّكَ وأبيك، أذكّرُكَ اللهَ في نفسِك**" فقالَ صفوان: "**أخافُ أن أُقتَل**"، فقال عُمير: "**قد دعاك رسول الله إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيْتَ، وإلا سيّرَكَ شهرَين، فهوَ أوفى الناسِ وأبَرّهُم، وقد بعثَ إليكَ ببُردِهِ الذي دخلَ**

به معتجراً، تعرفِهُ؟"، فلمّا رأى صفوانُ البُردة وعرَفها، قال: "**نعم، هوَ هوْ**". **فأطمأنَّ وعاد مع عُمَير حتى وصلَ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،** الذي كان يصلّي العصر بالمسلمين في المسجد الحرام.

وقف صفوان وقال: "**كم تصلون في اليوم والليلة؟**" فأجابه عُمير: "**خمسُ صلوات**". فسأل صفوان: "**أيقيمُ محمد الصلاة معهم؟**" قال: "نعم"..

فلمّا سلّمَ، صاح صفوان: "**يا محمد، عُمير بنُ وهبَ جاءَني ببُردِك، وزعمَ أنّك دعَوتَني إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمراً، وإلا سيّرتَني شهرين**" فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**انزلْ أبا وهب**"..

لكنه رفض أن ينزل من على دابته وقال: "**لا والله، حتى تبينّ لي الأمر**"..

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**بل تسيرُ أربعةَ أشهر**"!

فنزل صفوان بعد أن اطمأن، وخرجَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم قِبَلَ هوازن، إلى معركة حنين، وخرجَ معه صفوان وهو كافر..

كان ما يزال على شركهِ!

وقد أعارَ النبيَّ مائة درعٍ بأدواتِها، رغمَ أنّه لم يكُن قد أسلم بعد.

سأل صفوان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "طوعاً أم كرهاً؟"

فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: "بل هي عارية مؤداة"! شَهِدَ صفوان معركةَ حُنين ومعركةَ الطائف، وعندما عادَ النبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الجِعِرّانة، وكان ينظرُ في الغنائم، رأى صفوانَ شِعباً مُلأً نَعَماً وشاءً ورِعاءً من الغنائم، أطالَ صفوان النظر إليه، فسألَه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو يرمُقُه: "أيُعجبك هذا الشِّعب يا أبا وهب؟" فأجابه صفوان: "نعم". فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: "هو لك وما فيه"، عندئذ قال صفوان: "ما طابَت نفسُ أحدٍ بمثلِ هذا إلا نفسُ نبيّ"، وأعلنَ إسلامَه قائلاً: "أشهدُ أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمّداً عبدُه ورسولُه"!

هكذا كانَ النبيُّ صلى اللّه عليه وآله وسلم يحوّل الناسَ من طورٍ إلى طور، فمن كان عدوّاً لدوداً أصبح صديقاً وفيّاً ومدافعاً عن الإسلام، تخيّل أنّ أبا سفيان بن حرب، الذي كان من أعداء الإسلام في البداية، قد تحول إلى داعية للإسلام! هذا التغيير حدث بفضل حكمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم. في بعض رواياتنا التفسيرية عن أئمتنا عليهم السلام، نجد تفسير قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ"[1] أن المعنى هو: "يا أيها النبي، جاهدِ الكفّار باستخدام المنافقين"..[2]

[1] التحريم: ٩

[2] كما في التفسير الصافي للفيض الكاشاني ج ٥ - الصفحة ١٩٧، عن الصادق عليه السلام أنه قرأ (جاهد الكفار بالمنافقين)..

أي أن يستخدمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الجانب من الجهاد، ولهذا، أرى أنّ ما فعلَه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الأمر مع أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية، أي مع أخيه من الرضاعة وابن عمته وصهره، عندما رفض قبول إسلامهما في البداية أو الإذن لهما بالدخول عليه، كان لحكمة.

فالنبي يعلم أنه في النهاية سيقبل أيّ شخص يأتيه تائباً مستغفراً ومُعلناً إسلامَه، لكنه أرادَ أن يشعرَهما بعِظَم ما اقترفاه من ذنوب في السابق، حتى يزداد تأنيب ضميرهما ويكفرا عن ذلك بما سيقدمانه لاحقًا، أما لو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قَبِلَهُما مباشرةً دون أن يُظهِر لهما شيئاً من الرفض أو الصدّ، لما أحسّا بعِظَم ما ارتكباه.

بعضُ الناس إذا ارتكبوا جريمةً وسرعان ما تمّت مسامحتُهم، قد لا يَشعرون بفداحة ما فعلوا، وقد يكرّرون الأمر، ولكن عندما تُشعِرَهم بعدم الرّضا في البداية، وتجعلهم يتوسلون ويحاولون مرة بعد أخرى، فإن ذلك يجعلهم يراجعون أنفسهم ويشعرون بتأنيب الضمير، ثم يصمّمون على التكفير عن خطاياهم، هذا ما فعله أبو سفيان، حيث شعر بعِظَم ما ارتكبه، وكان ذلك من أدوات المعالجة المحمدية للنفوس.

ولهذا، في سياق التربية المجتمعية، بدأنا نحن أيضاً بتغيير سياستنا تجاه بعض الطلبات التي تأتينا من الإخوة والأخوات، فيما يتعلق باستبراء الذمة، كنا في السابق نُبرئُ ذممَهم فوراً، ولكنّنا وجدنا أن البعض بدأ يستهين بالأمر. لذلك، قرّرنا أن ننظر في كل حالة على حدة، وقد نطلبُ من الشخص المستغفِر أن يقوم ببعض الأعمال كالاستغفار أو صلاة الليل، لتعليم المجتمع فداحة الغيبة والبهتان والقذف، على أي فرد من المجتمع أن يتمهل قبل أن يحكم على الأمور، ففي ذلك خيرٌ عظيمٌ وعميمٌ إن شاء الله.

و كمِثال إضافي.. هناك روايةٌ تشير إلى ما حدثَ عند الهجوم على بيت الزهراء عليها السلام. تقول الرواية[١]: {"**فوثبَ عليٌّ عليه السلام فأخذ بتلابيبِه فصرَعَه، ووجأَ أنفَه ورقبَته وهمَّ بقتلِه، فذكرَ قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما أوصاه به فقال: والذي كرّمَ محمداً صلى الله عليه وآله بالنبوّة يا بنَ صُهاك، لولا كتابٌ من الله سبق، وعهدٌ عهدَ إليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، لَعَلِمتَ أنك لا تدخلُ بيتي"، فأرسلَ عمرُ يستغيث "تعالوا أنقذوني"، فأقبلَ الناسُ حتى دخلوا الدار، وثارَ عليٌّ إلى سيفِه، فرجعَ قنفذُ إلى أبكي بكر وهو يتخوّف أن يخرجَ عليٌّ عليه السلام بسيفِه، لما قد عرُفَ من بأسِه وشدّته، فقال أبو بكرٍ لقنفذ: "ارجِع، فإن خرجَ فاقتحم عليه بيتَه، فإن**

---

[١] كما ورد في "بحار الأنوار" (المجلد 28، الصفحة 268)

امتنعَ فأضرِم عليهِم بيتَهم النار" فانطلقَ قنفذُ الملعون، فاقتحم هو وأصحابه بغير إذن، وثار عليٌّ عليه السلام إلى سيفِه، فسبقوه إليه وكاثروه....إلخ}..

فلماذا لم يعلن علي عليه السلام الحرب بعد ذلك؟ يُجيب عن هذا السؤال حفيدُ عليٍّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وهو أدرى الناس بسيرة جده أمير المؤمنين. في "علل الشرائع"[1]، سُئل الإمام الصادق عليه السلام: لماذا كفَّ علي عليه السلام عن القوم؟ فأجاب: "**مخافةَ أن يرجعوا كُفّاراً**".

لقد ضحى علي عليه السلام بنفسه من أجل الحفاظ على الدين، ولمنع اندلاعِ حربٍ أهلية داخل المدينة المنورة، التي كانت عاصمة المسلمين آنذاك. كان الوضع في الجزيرة العربية متوتراً للغاية بعد شهادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت هناك قلاقل وردّات. لذلك، لم يكن بإمكان علي عليه السلام أن يشعل حرباً أهلية في تلك الظروف فهو يقدّم مصلحة الدين على كلّ شيءٍ آخر، خاصةً وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصاه بالصبر.

وفي كتاب "كمال الدين" للشيخ الصدوق[2]، ورد نص تلك الوصية أن النبي صلى الله عليه وآله قال: "**يا أخي، أنتَ ستبقى بعدي، وستلقى من قريشٍ**

[1] علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج ١ - الصفحة ١٥٠

[2] الصفحة 264

شدةً من تظاهرهم عليك، وظلمِهم لك، فإن وجدت عليهِم أعواناً فجاهِدهُم، وقاتِلْ من خالفَك بمن وافَقك، وإن لم تجد أعواناً فاصبرْ، وكُفَّ يدَك، ولا تلقِ بها إلى التهلكة فإنّك منّي بمنزلة هارونَ من موسى، ولك بهارونَ أسوةٌ حسنة، إذِ استضعَفَه قومُه وكادوا يقتلونه، فاصبرْ لظلمِ قريشٍ إياك، وتظاهرِهم عليك، فإنك بمنزلة هارونَ ومن تبِعَه، وهم بمنزلةِ العجلِ ومن تبِعه" ...

الفصل العاشر

رقّةُ خديجة ورعونةُ عائشة

إن مناسبة رحيل خديجة عليها السلام كما يعلم القاصي و الداني، كانت سبباً لحزن عميق من رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى أنه سمّى العام الذي توفيت فيه خديجة، وتوفي فيه أبو طالب عليهما السلام بـ "**عام الحزن**".

فالمؤمنون الذين يحزنون في ذكرى رحيلها إنما يحزنون لحزن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف لا وهم يستذكرون مآثر هذه السيدة العظيمة، التي لا مثيل لها بين أمهات المؤمنين وأزواج رسول الله صلى الله عليه وآله، بل لا نظير لها بين أزواج جميع الأنبياء.

فالحديث الشريف يذكر أن سيدات نساء العالمين أربع، وليس بينهن من زوجات الأنبياء إلا خديجة عليها السلام، وهؤلاء الأربع هن: مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلوات الله عليهن أجمعين.[١]

وبهذا، نقول إنه من بين أزواج الأنبياء جميعاً، لم تُفضّل امرأة على خديجة عليها السلام.

كانت صلوات الله عليها نعم السند لرسول الله صلى الله عليه وآله في مُقتبل دعوته، في تلك الأيام التي عاداه فيها رجال قريش ونساؤها، وكذبوه وحاربوه.

---

[١] (حسبُكَ مِن نساءِ العالَمينَ مَريمُ بِنتُ عِمرانَ ، وخَديجةُ بِنتُ خوَيْلدٍ ، وفاطمةُ بِنتُ محمَّدٍ ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ أخرجه الترمذي (3878)، وأحمد (12414) باختلاف يسير، وابن حبان (7003).)

في تلك الأيام التي لم يكن له فيها معين ولا ناصر، كانت خديجة عليها السلام نعم المعين ونعم الناصر. تلك المرحلة كانت كما نعلم الأصعب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وهذا طبيعي، فكل حركة إصلاحية تكون أصعب مراحلها هي مرحلة التأسيس والمقدمات.

كما نعلم أن نبينا الأعظم صلى اللّه عليه وآله، كان قد دعا في بداية الأمر سراً في مكة لعدة سنوات، ولم يكن يظهر دعوته إلا لمن يثق بهم. ثم جاهر بها يوم أمره اللّه عز وجل بذلك. فقد ورد في تفسير العياشي[1] عن إمامنا أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام، قال فيها: "**اكتتم رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة سنين، ليس يظهر، وعلي معه وخديجة عليهم السلام**" حيث لم يكن أحد مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله إلا هذان "**ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر**" قال اللّه تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)(الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).[2] لاحظوا أيضاً أن من آيات

---

[1] تفسير العياشي - محمد بن مسعود العياشي - ج ٢ - الصفحة ٢٥٣

[2] [الحِجر 94-99]

صدق نبوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، أن الكتاب الذي أُنزل عليه لم يتنبأ بشيء إلا ووقع، خاصة في هذه النقطة الحساسة. فكل ما أوعدهم بشيء تحقق، في وقت كان فيه المسلمون في أضعف حالتهم. كما في هذا الوقت، كان عدد المسلمين ثلاثة: رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وعلي، وخديجة عليهم السلام. أما أبو طالب عليه السلام، فقد توفي صلوات اللّه عليه، ولم يكن بعد يجاهر بإسلامه، وكان يكتم إيمانه. فالجماعة الإسلامية، الأمة الإسلامية كلها،

كانت تتكون من ثلاثة أفراد فقط. ومع ذلك، كان القرآن الكريم ينزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله متحدّثاً بلهجة الواثق، أن المستقبل سيشهد كسر شوكة قريش وأتباعها، ورفع شأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، فتتغير الموازين كلياً، ويصبح المغلوب غالباً، والغالب مغلوباً، حيث يعد اللّه نبيه الكريم بأن يكفيه أمر هؤلاء المستهزئين، وقد كفاه صلى اللّه عليه وآله أمرهم، كما أن اللّه عز وجل يطمئنه بأنهم سوف يعلمون قريباً عاقبة تكذيبهم.

بماذا كان يضيق صدره الشريف بأبي هو وأمي؟

كان ذلك جراء تكذيبهم وجحودهم، كما أوضحت هذه الرواية التي ترسم لنا صورة دقيقة عن كآبة تلك المرحلة وكآبة تلك الأجواء. يقول الإمام الصادق

عليه السلام: "**اكتتم رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة سنين ليس يظهر، وعلي معه وخديجة عليهما السلام. ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر، فظهر رسول الله صلى الله عليه وآله، فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب، فإذا أتاهم قالوا: كذاب!**" أي ضيق صدر كان ينتاب رسول الله صلى الله عليه وآله جراء ذلك!

كان يأتيهم بدعوة الهدى والخير، ولكنهم يردّون عليه بالرفض والصدّ، ويقولون عياذاً بالله: "كذاب، امضِ عنه".

أينما ذهب، كان يسمع هذه الكلمة. كانوا يطردونه صلى الله عليه وآله، يهزأون به ويسخرون منه. ولكن الله تعالى قال: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ [1]).

في تلك الأجواء، حيث لم يكن هناك أحد يقف مع رسول الله صلى الله عليه وآله، كانت السيدة خديجة عليها السلام ملاذًا له. كانت تمنحه من رقتها وعطفها ما يخفف عنه ويزيح عن كاهله تلك الهموم.

كان صدره الشريف يمتلئ جراء هذا التكذيب والجحود، والعداء، والسباب، والشتائم والهجاء. أينما ذهب، كانوا يجتمعون حوله ويقولون عنه، عياذاً بالله، إنه كذاب. كانوا يطردونه، ولكنّه كان يعود إلى السيدة خديجة عليها السلام، فتواسيه وتخفف عنه همومه. ومن القضايا اللافتة التي وقعت في

---

[1] الحِجر: 95

بداية الوحي، يقول ابن عباس، كما ورد في تفسير البرهان للبحراني[1]: "**أن النبي صلى الله عليه وآله في بدء النبوة غُشي عليه من ثقل النبوة ومن وحي الله عز وجل ومن كلام جبرائيل عليه السلام، فحمله مشركو قريش إلى خديجة وقالوا: "يا خديجة، تزوجتِ بمجنون"**. عياذًا بالله، فقد فسّروا هذه الظاهرة، إذ يغشى على النبي صلى الله عليه وآله من أثر الوحي، بأنها ضرب من ضروب الجنون! لاحظوا الرواية ماذا تقول:

"**فوثبت خديجة من السرير وضمته إلى صدرها، ووضعت رأسه في حجرها، وقبّلت بين عينيه وقالت: 'تزوجتُ نبيًا مرسلاً**" !

أنتم تقولون إنه مجنون؟ تقولون لي تزوجتِ مجنونًا؟

جوابي لكم: **بل تزوجتُ نبيًا مرسلاً!**

كانت السيدة خديجة، صلوات الله عليها، قمة في التفاني والإيمان وآية في الرقة. بعدما أخذته وضمت رأسه إلى صدرها ووضعت رأسه في حجرها وقبّلته بين عينيه، قالت له: "تزوجت نبيًا مرسلاً"، أفاق رسول الله صلى الله عليه وآله من قبلة خديجة عليها السلام،

بادرته قائلة: "**بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما الذي أصابك؟**"

[1] البرهان في تفسير القرآن ج٥ ص٦٩٦

فأجابها: "**ما أصابني غير الخير.**"

ثم تقول الرواية: "**فخرج صلى الله عليه وآله، وإذا هو بجبرائيل عليه السلام في أحسن صورة وأطيب رائحة، فقال: "يا محمد، ربك يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام، ويقول لك: أنت رسولي إلى الثقلين، فادعهم إلى عبادتي، وليقولوا: 'لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله.'**" هكذا كانت ركائز الإسلام منذ اليوم الأول للدعوة اللإسلامية: اللّه، محمد، وعلي. لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، علي ولي اللّه. لم يكن علي، عليه السلام، مجهولاً ولا متأخرًا أو مؤخرًا، بل كان مقرونًا برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله منذ اليوم الأول وحتى اليوم الأخير. وعندما أمر اللّه عز وجل نبيه أن يُنذر عشيرته الأقربين، كانت رسالة النبي صلى اللّه عليه وآله تجمع بين النبوة وولاية علي عليه السلام، تنفيذًا لأمر اللّه عز وجل.

وكان هذا الأمر واضحًا من اليوم الأول، حيث كان الإسلام قائماً على شهادة "لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، علي ولي اللّه." فالتوحيد لا يتحقق إلا بالإقرار بنبوة محمد صلى اللّه عليه وآله، ولا يتم الإقرار بنبوة محمد صلى اللّه عليه واله الا بالإقرار بولاية علي صلوات اللّه عليه. لذلك، من المؤسف أن هناك من ينكر ذكر ولاية علي عليه السلام في الأذان والإقامة. فويح لأولئك بل وويلهم إن استمروا على ذلك، فيجب أن يعوا أن نداء اللّه لنبيه

المصطفى منذ اليوم الأول كان: "**أنت رسولي إلى الثقلين، فدعهم إلى عبادتي وأن يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله.**"

هكذا كانت السيدة خديجة عليها السلام ملاذًا لرسول الله صلى الله عليه وآله، تمنحه من رقتها وحنانها ما يخفف عنه ويُفرج همومه. وكانوا يصفونه بالمجنون، ويعيرون السيدة خديجة بذلك، قائلين: "يا خديجة، تزوجتِ مجنونًا." لكنها كانت تثب وترد عليهم: "بل تزوجتُ نبيًا مرسلاً." والقرآن الكريم كان يردّ على المشركين في سورة القلم، حيث قال الله تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)(مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ)(بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ[١].

القرآن هنا يتحدث بلهجة الواثق أن المستقبل سيكشف الحقائق، ومن هو المجنون حقًا، ومن الذي ضلَّ طريقه، وسيتبين لهم من الذي كان مفتونًا: هل هو النبي الذي اتهموه بالجنون، أم أنتم الذين تلاعبت بكم الشياطين؟

سلامٌ على خديجةَ الغراء.. هي التي أقرأها الله عز وجل السلام في ليلة الإسراء، وهي الوحيدة التي ذُكرت من بين زوجات الأنبياء في تلك الليلة....

[١] القلم: ١-٦

فقد أُسري بنبينا صلى اللّه عليه وآله وجرى ما جرى من الأمور العظيمة التي فصلتها الروايات الشريفة ما بينه وبين ربه، حيث بلغ مقامًا لم يبلغه أحد، لا نبي مرسل ولا مَلَك مقرب، مقامًا عظيمًا، قاب قوسين أو أدنى. وعندما عاد النبي صلى اللّه عليه وآله من تلك الرحلة المباركة، كان جبرئيل عليه السلام معه لم يتركه وكأن له حاجة. فسأله النبي صلى اللّه عليه وآله: **"ما حاجتك؟"**.

هذا ما كشفته لنا الرواية الشريفة التي رواها أعاظم الثقات عندنا، زرارة، وحمران بن أعين، ومحمد بن مسلم، وهم من أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام. هؤلاء الثلاثة نقلوا لنا هذه الرواية، كما وردت في تفسير العياشي الشريف[1] عن الإمام محمد الباقر عليه السلام. يقول: **"حدثنا أبو سعيد الخدري أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله قال: "إن جبرائيل أتاني ليلة أُسري بي، وحين رجعت، فقلت: يا جبرائيل، هل لك من حاجة؟ فقال: حاجتي أن تقرأ على خديجة من الله ومني السلام."**

من الذي يخصه اللّه بالسلام؟

القرآن يحدثنا أن اللّه تعالى يسلم على الأنبياء العظام، لكن هنا، يخصّ السيدة خديجة بهذا السلام. فهي من صفوة الخلق، فقد كانت السيدة

[1] تفسير العياشي ج٢ ص٢٧٩

خديجة عليها السلام من هؤلاء العظماء..

ولم يترك جبرئيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله في طريق عودته، لأنه كان مكلفًا من الله بهذه الرسالة العظيمة: "**يا خديجة، الله يقرأكِ السلام، وجبرائيل كذلك.**" وتقول الرواية: "**وحدثنا الإمام الباقر عليه السلام، أن السيدة خديجة عليها السلام عندما أخبرها النبي صلى الله عليه وآله بما قاله جبرائيل، أجابت بهذه الكلمات العظيمة: "إن الله هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام، وعلى جبرائيل السلام.**"

ولقد تكررت هذه الصياغة نفسها مع ابنتها السيدة فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام. وهكذا كان الرد على السلام، لأن السلام من الله، ولا يقال لله "عليك السلام"، بل يقال: "إن الرب هو السلام، ومنه السلام، وإليه السلام." أما جبرائيل عليه السلام، فكونه مخلوقًا، يُقال له: "وعليه السلام". وأما سيدتنا خديجة عليها السلام، فعليها سلام الله وملائكته وهي في أعلى عليين في الجنة، في حظيرة القدس.

يقول ربنا تبارك وتعالى: (إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَـعِيمٍ) (عَلَى الْأَرَائِـكِ يَـنظُرُونَ ( ) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ) (خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [١]).

---

[١] المطففين: 22-26

الرحيق المختوم، الذي ورد ذكره في الآيات الكريمة، فُسّر في بعض التفاسير بأنه خمرٌ غير مسكر، بل على العكس، يزيد العقل قوة وتركيزًا. وهذا الرحيق مختومٌ بطيب الرائحة، ورائحة مسكٍ طيبة، بخلاف رائحة الخمر الكريهة.

أما هذا الشراب، فمن أين يأتي؟

قال اللّه تعالى: (وَمِـزَاجُـهُ مِـن تَـسْنِيمٍ) [١]. التسنيم مأخوذ من سنام الجمل، وهو شيء مرتفع.

قال تعالى: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [٢]). هذه العين تكون في الجنة، تنبع

وتأتي من الأعالي وتصب في بيوت أهل الجنة، بما يشبه الشلالات التي تصب في بيوتهم، تأتي من تسنيم، من هذا الرحيق المختوم.

هناك رواية تفسيرية لهذه الآيات الكريمة نجدها في كتاب "**تأويل الآيات**" لشرف الدين الحسين الاسترآبادي. عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام، عن أبيه علي بن الحسين وهو زين العابدين عليه السلام، عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري رضي اللّه عنه، عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، في قوله تعالى: (وَمِـزَاجُـهُ مِـن تَـسْنِيمٍ) ، قال: "**هو أشرف**

---

[١] المطففين: 27

[٢] المطففين: 28

شراب في الجنة يشربه محمد وآل محمد عليهم السلام، وهم المقربون السابقون: رسول الله، وعلي بن أبي طالب، والأئمة، وفاطمة، وخديجة عليهم السلام، وذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان."[١]

إن كنت من الذرية الطاهرة، فهذا شرف عظيم!

ولكن هناك شرط: أن تتبع رسول اللّه والأئمة وفاطمة وخديجة عليهم السلام بإيمان. حينها سيُسقونك من تسنيم، ويعطونك من الرحيق المختوم.

أما إذا ابتعدتَ واتخذت دينًا آخر أو مذهبًا آخر والعياذ باللّه، فستُحرَم من الرحيق المختوم ومن تسنيم، بل تحُرَم من الجنة كلها.

لا بد أن تتبعهم بإيمان، وليس مجرد الانتساب لهم كافيًا. إن كان أحدهم من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يُعفى من الحساب، بل عليه أن يتبعهم بإيمان وإلا فسينال ضعفي العذاب. كما قال الله تعالى:[٢] (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)(وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)(يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ

[١] وكذا نقلها العلامة المجلسي في بحاره ج24 / ص3

[٢] الأحزاب: ٣٠-٣٣

إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)

أما ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان يتسنم عليهم هذا الشراب الذي مزاجه من تسنيم، و يتساقط عليهم من أعالي دورهم.

كل واحد في داره يجري عليه هذا الشراب كما لو كان شلالاً يأتي عليه فيشرب منه، ويضع الكأس ليملأه، ويشرب.

وتذكيرًا بالرواية التي نصت على تفضيل الله عز وجل لأربع من النساء، هن سيدات نساء العالمين، حيث توهم بعض القاصرين أن هذه الرواية عامية وتقتصر روايتها على عكرمة عن ابن عباس، وإذ عكرمة كان خارجيًا فلا يُعتد بهذه الرواية. لكن الحقيقة أن هذه الرواية خاصية أيضاً، أي مروية عند الخاصة بإسنادهم عن أئمتهم الأطهار عليهم الصلاة والسلام. ومن ذلك ما رواه الصدوق في "**الخصال**"[١] عن الإمام أبي الحسن الأول "الكاظم" عليه السلام، قال: "**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله اختار من النساء أربعاً: مريم وآسيا وخديجة وفاطمة عليهنّ السلام**".

فلا أفضل ولا أخير من هؤلاء النساء الأربع. فخديجة عليها السلام مختارة من الله جل وعلا. وما يميزها، كما بيّنا، هو رقتها بالإضافة إلى إيمانها

---

[١] الخصالُ ص225

وصلابتها في الدين وجودها وكرمها وبذلها أموالها في سبيل دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالرقة كانت من أبرز صفاتها، وذلك في وقت كانت فيه بيئة العرب مليئة بالخشونة والقسوة. فبيئة قريش والعرب لم تكن بيئة رقة.. بل كانت بيئة قسوة وصلابة ورعونة.

هل تعلمون أن العرب كان الكثير منهم يستنكف عن تقبيل أهله أو أولاده بسبب قسوة قلوبهم؟ جاء قوم منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما تخبرنا الروايات وكتب السيرة، فرأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من تقبيل الحسن والحسين سبطيه عليهما السلام. فتعجبوا وقال قائلهم: "**إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت أحداً منهم قط.**" فكان رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**مَن لا يَرحَمْ، لا يُرحَمْ**"![1]

العرب في ذلك الوقت كانوا أمة جفاء، ليس عندهم تلك الرقة. وهذا أثر شبه طبيعي من آثار المعيشة في الصحراء، التي كثيرًا ما تقسي القلب من جهة وتلينه من جهة أخرى. صحيح أن في شعرهم شيء من الرقة، لكن في أفعالهم الكثير من القسوة.

---

[1] أخرجه البخاري (5997)، ومسلم (2318) وكذا في وسائل الشيعة ج٢١ ص ٤٨٥

وهذا ما يفسر كثرة حروبهم وغزواتهم. كانوا يدوسون على مشاعرهم إلى حد أنهم يدفنون بناتهم أحياء. من ذا يتحمل ذلك؟ هل تستطيع أن تدفن ابنتك وهي رضيعة أو طفلة صغيرة؟

هذه كانت عادة متفشية عند العرب، انظر إلى القسوة التي كانت لديهم..

في الحقيقة! هناك رواية حقيقة مرعبة جداً عن عمر بن الخطاب، يروي فيها أنه أخذ بيد ابنته الصغيرة حتى دفنها. طفلة بريئة لا تعرف ما الذي يجري. وبينما كان يحفر القبر كانت تلعب إلى جانبه. وعندما وضعها في القبر، ظنت أنه يمازحها ويلعب معها، فاستمرت بملاعبته. وبينما كان يهيل عليها التراب، كانت يدها الصغيرة تنفض التراب عن لحيته الطويلة، وما أخذته الرقة عليها، فدفنها![1]

تخيلوا هذا المشهد المرعب، هذا الجاهلي عمر بن الخطاب يروي كيف دفن ابنته بيديه دون أن يهتز قلبه. أي قلب يتحمل ذلك؟ حتى في اللحظات

---

[1] نص الرواية كما عند المخالفين: وقد جاءَ عن عمرَ رضى الله عنه قولُه: أمرانِ فى الجاهليةِ. أحدُهما: يُبْكِيْنِى والآخرُ يُضْحِكُنِى. أما الذى يبكينى: **فقد ذَهبتُ بابنةٍ لى لِوَأْدِها، فكنتُ أحفَرُ لها الحفرةَ وتَنْفُضُ الترابَ عن لِحْيَتِى وهى لا تدرى ماذا أريدُ لها**، فإذا تَذَكّرتُ ذلك بَكَيْتُ. والأخرى: كنت أَصْنَعُ إلهًا من التمرِ أَضَعُهُ عند رأسى يَحْرُسُنِى لَيلاً، فإذا أَصْبَحْتُ مُعَافًى أكلتُه، فإذا تَذَكرت ذلك ضَحِكْتُ من نَفْسِى. (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج9 ص63. ط دار عالم الفوائد)

الأخيرة، كانت الطفلة تظهر حنانها، وتنفض التراب عن لحيته! هذا مثال على القسوة التي كانت في تلك القلوب. يُظهر لك أن قلوبهم كانت أشد قسوة من الحجر.

في وسط هذه البيئة القاسية، البيئة التي ملأتها الجلافة والخشونة، تميزت السيدة خديجة عليها السلام برقتها. لم يُؤثر عنها قط أنها سبّت أحدًا، ولم تُغضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، بل كانت تطيعه في كل أمر. كان يشهد لها ويقول: "**ما رأيت منها إلا خيراً**"[١].

لم تعصه قط في أي أمر. كانت تأخذ النبي صلى اللّه عليه وآله بمنتهى الحنان والرقّة عندما يُأتى به إليها وقد غشي عليه، فتقبله، فيفيق من أثر قبلتها.

هذه الرقة اللامتناهية تدل على أن أخلاق السيدة خديجة عليها السلام، سواء قبل البعثة أو بعدها، كانت أخلاقًا إسلامية وليست جاهلية. السيدة خديجة كانت معتقةً من أجواء وبيئة الجاهلية المحيطة بها، سواء كانت اجتماعية أو ثقافية. كان لها خلق خاص، على عكس أخريات اقترنّ برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وعاشوا معه سنين طويلة. وحتى بعدما انتشر الإسلام وقضى على مظاهر الجاهلية، لم يستطعن التخلص من تلك الأخلاق

---

[١] شجرة طوبى: 2 / 234

الجاهلية. وأبرز مثال على ذلك.. **الحميراء عائشة!** التي لم تستطع حتى بعد الإسلام أن تتخلص من أخلاق الجاهلية، وما فيها من قسوة وطيش وسوء أدب. و رعونتها ثابتة في مصادر الفريقين، في كتب السيرة والحديث، وسيرتها طافحة بمدى قسوتها وسوء أدبها.

لم تنفك عن تلك الأخلاق الجاهلية. أهل الجاهلية كانوا يستخدمون ألسنتهم وأيديهم في التعامل، فكانوا يسبون ويشتمون، وإن تصاعد الأمر كانوا يشهرون السيوف ويبدأ القتل، لم يكن لديهم تفاهم، كانت قلوبهم قاسية وجافة. وعائشة كانت كذلك!

وهذا يفسر لماذا ركبت رأسها وحاربت مولى الموحدين عليه السلام.

الأخلاق الجاهلية لا تزال موجودة حتى الآن في نفسها، ولا تفاهم معها. جاءها مسلم العبدي رحمه الله، هذا الشاب الطاهر المؤمن، وهو في العشرين من عمره، الذي كلفه أمير المؤمنين عليه السلام بأن يحتج على عائشة ويعظها بالقرآن. فجاء يدعوها إلى كتاب الله عز وجل، ووقف بين الصفين في معركة الجمل وقال: "**هذا كتاب الله، وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه**". كان أعزل، غير مسلح، يرفع كتاب الله عز وجل.

انظر إلى مدى القسوة والرعونة في قلب عائشة!

بدلاً من أن تستقبله وتقول له: "تعال يا بني، دعني أكلمك"، وتأخذ المصحف من يده وتقبله، وتتفاوض معه، أمرت جندها الملعون وقالت لهم: "**اشجروه بالرماح قبحه الله**"[1]!!!!

فقتلوه! وسفكوا دمه على كتاب اللّه الذي كان يحمله. وجاءت أمه، أوفى العبدية من قبيلة عبد قيس، تهرع إليه، تبكي مفجوعة، وقالت بيتين من الشعر:

يارب إن مسلماً دعاهم ... إلى كتاب الله لا يخشاهم...

وأمهم قائمة تراهم ... تأمرهم بالبغي لا تنهاهم[2]

أم قلبها كالحجر، هكذا كانت!

والمخالفون أنفسهم يرون في صحاحهم بعض القصص عن قسوة عائشة ورعونتها، ويذكرون أنها لم تهاب حتى الجنيّ الذي ظهر لها، فقتلته.

هذا ما يرويه بعضهم، وهذه قصص شبيهة بقصص "ألف ليلة وليلة". و على كل حال، نحن لا نعلم بصحة هذه القصص، لكنها موجودة في صحاحهم.

---

[1] الجمل - الشيخ المفيد - الصفحة ١٨١

[2] لجمل - الشيخ المفيد - الصفحة ١٨٢

فهل يمكن لامرأة رقيقة أن تواجه جنيًّا وتقتله؟[1] هذا يعكس طبيعة القسوة والرعونة التي اتسمت بها... هذه حادثة شهيرة، وقد نفصل في الكلام حولها فيما بعد. فنحن نهتم كثيرًا بأن نُطلِع أبناء الأمة الإسلامية على محاولات كهنة الفكر البكري عبر العصور إخفاء الحقائق والآثار المحرجة لهم. يحاولون إما طمسها أو التلاعب بها لإخفاء أسماء الشخصيات المتورطة. إحدى هذه الحوادث هي أن عائشة، بزعمهم، غارت، فجاءت متحزمة، تحمل "جفنة" أو "صحفة"، وبيدها حجر. فضربت الخادم الذي كان يحمل الطعام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنثرت الطعام في كل مكان![2]

كانت أشبه بالثور الهائج في غضبها، وبلغت بها قلة الأدب والرعونة منتهاها. هذه الحوادث الكثيرة تدل على أنها – لعنها الله – كانت امرأة رعناء، طائشة، وقاسية..

ومن أخلاق عائشة الجاهلية أنها كانت سليطة اللسان، تسب وتتهجم، حتى

---

[1] كما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة عائشة: عن عائشة بنت طلحة، قالت: كان جان يطلع على عائشة، فحرجت عليه مرة بعد مرة بعد مرة، فأبى إلا أن يظهر، فعدت عليه بحديدة، فقتلته!

[2] عن أنس:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند بعض نسائه، قال: أظنها عائشة، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم لها بقصعة فيها طعام، قال: فضربت الأخرى بيد الخادم فكسرت القصعة نصفين، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: غارت أمكم، مسند احمد ج١٩ ص٨٤

على السيدة خديجة عليها السلام!

وأنتِ تعلمين ما فضل خديجة في الإسلام، تعلمين أنها اختيرت من الله عز وجل لتكون واحدة من سيدات نساء العالمين الأربع، وأنها إحدى سيدات الجنة.

كيف تجرؤ عائشة على سبّها؟!

لم يكن هذا سوى نتيجة لأخلاقها الجاهلية الرعناء. لاحظوا هذه الرواية التي يرويها الصدوق في "الخصال"[1] عن عمر بن أبي المقدام، عن أبيه، عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال: **"دخل رسول الله صلى الله عليه وآله منزله، فإذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها"**. كانت تصيح على فاطمة عليها السلام و تتشاجر معها!

كان بيت النبي صلى اللّه عليه وآله يشهد مثل هذه المشاجرات بسبب عائشة. بيت النبي كان مليئًا بالنكد بفضلها. هذه المرأة كان دورها في البيت أن تسبب الأذى، تتشاجر وتصيح وتزعج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم.

دخل أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرة، فقال له النبي صلى اللّه عليه وآله: **"هاهنا يا أبا الحسن، هاهنا إلى جانبي"**.

[1] الخصال - الشيخ الصدوق - الصفحة ٤٠٥

فجلس أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانب النبي. فتراجعت عائشة إلى الوراء.. وقالت كلمة وقحة، تدل على سوء أدبها وسفاهة لسانها..

قالت: "**يا علي، ما وجدت لاستك موضعاً إلا فخذي؟**"[1]

كيف لامرأة أن تتفوه بهذه الكلمات البذيئة، وبهذا الأسلوب الوقح؟

رجل عاقل لا يقول هذا الكلام، فكيف بامرأة؟!

وكان النبي صلى اللّه عليه وآله غاضباً بشدة. فقال لها النبي صلى اللّه عليه وآله: "**ما لك يا عائشة!**"، و خاطبها : "**بيا حمراء الساقين**"مستنكراً ما قالت، وأخبرها أنها في المستقبل ستنبحها كلاب الحوأب عندما تخرج لقتال أمير المؤمنين عليه السلام وهي ظالمة...[2] هذه المرأة كانت مصدر نكد دائم في بيت النبي صلى اللّه عليه وآله، تؤذي سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام، وتؤذي أمير المؤمنين عليه السلام. لماذا؟

لأنها كانت تريد أن تكون هي المفضلة عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، رغم أنها كانت تعلم أن رسول اللّه يفضل عليها وعلى أبيها أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء عليهما السلام. ولكن ما الذي كانت تنتظر؟ رسول اللّه صلى

[1] تقريب المعارف - أبو الصلاح الحلبي - الصفحة ١٩٨

[2] ذكرها الطبرسي في الاحتجاج ج1 ص243.

الله عليه وآله كان يقيس الأمور بميزان التقوى، وفق قول الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [1].

هذا هو الميزان الحقيقي. فأنتِ وأبوكِ بلا تقوى! تريدين أن يفضلكما رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يفعل ذلك. ولذلك قال لها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: "**لقد خبثتِ أنتِ وأبوكِ**" [2].

في موقف آخر من تلك المواقف[3]، دخل رسول الله صلى الله عليه وآله منزله، فإذا بعائشة مقبلة على فاطمة عليها السلام تصايحها، وهي تقول: "**والله يا بنت خديجة، ما ترين إلا أن لأمكِ علينا فضلاً، وأي فضل كان لها علينا؟! ما هي إلا كبعضنا.**" فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله مقالتها لفاطمة عليها السلام، بكت فاطمة لما رأت النبي صلى الله عليه وآله فقال: "**ما يبكيكِ يا بنت محمد؟**" قالت فاطمة عليها السلام: "**ذكرتُ أمي فتنقصتها، فبكيت.**" فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: "**مه يا حميراء، فإن الله تبارك وتعالى بارك في الودود الولود. وإن خديجة رحمها الله ولدت مني**

[1] سورة الحجرات: 13

[2] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٣١ - الصفحة ٣١٨ نقلًا عن الخصال ص٥٥٦ باختلاف يسير

[3] رواه الصدوق في الخصال ،الصفحة ٤٠٥

طاهراً، وهو عبد الله، وهو المطهر، وولدت مني القاسم، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وزينب. وأنتِ ممن أعقم الله رحمه فلم تلدي شيئًا."

أين أنتِ من خديجة؟ وأين خديجة منك؟! الله يبارك في الودود الولود، وأنتِ عاقر، أعقم الله رحمك حتى لا تتشرفي بأن تنجبي مني أحدًا. كما أنكِ لا تحملين صفة الودّ الذي كانت خديجة الغراء عليها السلام تملكه، فقد كانت ودودة، بينما أنتِ في منتهى الرعونة والقسوة.

إخواني، أعلم أن بعض المخالفين الذين يقرأون هذه السطور يكذبون هذه الرواية، ويقولون: "هذه روايتكم، رواها الصدوق عن أئمتكم، وهي من مصادركم، فلا حجة فيها."

نعظ هؤلاء ونقول لهم: استغفروا ربكم، ولا تردوا روايات عترة نبيكم صلى الله عليه وآله. فهذه روايات عترة نبيكم، فما ذنبنا إذا كنتم قد أعرضتم عنهم؟!

ما ذنبنا إذا كان البخاري ومسلم وأحمد ومن أشبههم قد أعرضوا عن أئمة العترة الطاهرة عليهم السلام فتحاشوا الرواية عنهم أو رووا عنهم القليل الذي لا تقوم به حجة؟! ثم إنكم لو أخضعتم هذه الروايات للمقاييس العلمية في مضامينها، لوجدتم أنها ليست مستبعدة، بل لزمكم أن تستقربوها أو تقرّبوها.

فما مضمون هذه الرواية؟

مضمونها أن عائشة كانت سيئة الأدب إلى درجة أنها تسب خديجة عليها السلام، وأن هذا الفعل أغضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله. هذا هو مضمون الرواية.

هذه الرواية تقدم لك شخصية عائشة بهذا الشكل كما يقول الإمام الصادق عليه السلام.. فعائشة كانت سيئة الخلق، رعناء، سليطة اللسان، سبابة، تصايح فاطمة عليها السلام، تذكر أمها خديجة عليها السلام، وتتنقصها..

وأدى ذلك إلى غضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، كما ورد في الرواية.

هذا المضمون صحيح، حتى لو تخليتُ الآن عن انتمائي المذهبي، وبحثتُ في إطار البحث العلمي الصرف عن مدى صحة هذه المضامين وفقًا لمقاييس علم الحديث عند أهل السنة، سأجد أن هذا المضمون صحيح.

لماذا؟

لأن هذا المضمون يتكرر في رواياتهم، ويأتي بأسانيد صحيحة في مصادرهم المعتمدة. فكيف يمكن أن أستبعد هذه الرواية؟ وبأي وجه أستبعدها؟

فمثلاً، لاحظوا ما جاء في الصحيحين، البخاري[1] ومسلم[2].. يرويان عن عائشة أنها قالت: "**استأذنت هالة بنت خويلد، أخت السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية، على رسول الله صلى الله عليه وآله، فعرف استئذان خديجة.**"

كما نعلم، في كثير من الأحيان، تكون أصوات الأخوات متقاربة، حناجرهنّ متشابهة. فحين تتكلم الأخت، يكون صوتها قريبًا من صوت أختها في أغلب الأحيان.

فهالة دخلت، وذكّرت النبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله بصوت خديجة، ذلك الصوت الرقيق الذي كان يعشقه. و ليس فقط الصوت، بل حتى أسلوب الاستئذان كان مشابهًا، لأن خديجة كانت في قمة الأدب والاحترام.

حتى عندما كانت تدخل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وهو زوجها، كانت تستأذن على عكس عائشة وتقول: "**السلام عليك يا رسول الله، أتأذن لي بالدخول؟**" فسمع النبي نفس أسلوب الاستئذان، ونفس الرنّة والنغمة، إن جاز التعبير، التي كان يسمعها من خديجة. فتقول عائشة: "**فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك.**" وفي لفظ مسلم: "**فارتاح لذلك.**" أما "ارتاع" في هذه الرواية، فقد يكون لها معنى آخر قريب من الارتياح، لأن السياق لا يدل على

---

[1] رقم الحديث (3821)

[2] رقم الحديث (2437)

الخوف، بل على شعور إيجابي، وهو الشعور بالروعة. فهناك تصحيف في البخاري، حيث تحولت الحاء إلى عين، لأن الحاء والعين في الكتابة القديمة متشابهتان.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: "**اللهم هالة.**" أي أن التي استأذنت هي هالة، أخت خديجة، فأثارت في نفسه ذكريات خديجة.

تقول عائشة: "**فغرت.**"

أي اشتعلت الغيرة في نفسها. ولم تكتفِ بالغيرة، بل تطاولت على خديجة بقولها: "**ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر؟ قد أبدلك الله خيراً منها.**"!

هذا السباب لخديجة عليها السلام ورد في البخاري ومسلم، وهو من أوثق مصادر أهل السنة.

الآن، ما معنى هذه العبارة؟ ربما يستمر بعض المخالفين بالمكابرة ويقولون: "هذا تفسيركم وليس فيه سباب!" ولكن لا، لا مجال للإنكار هنا.

إذا كنتم تقولون إنه ليس هناك سب، دعونا نختبر هذا بأنفسنا. ليتصل بي الآن أي شخص بكري وأقول له: "أهلاً بك يا ابن عجوز من العجائز حمراء الشدقين هلكت في الدهر!"

دعونا نرى كيف سيتحمل هذه العبارة.. إذا لم يكن بها سب أو إهانة، فليتحملها دون اعتراض. ولكن هل هذا ممكن؟ بالطبع لا. إذا كان هذا التعبير موافقًا للأخلاق الإسلامية الرفيعة، فهل سيقبل أحدٌ أن أقول عن والدته أو قريبته: "حمراء الشدقين"؟

هناك خياران: إما أن تقول إن عائشة كانت ذات خلق، وفي هذه الحالة سأعاملك بأخلاقها فلا تضطرب ولا تغضب ولا يضيق صدرك حين أقول لك: "يا ابن حمراء الشدقين!" وإذا تأذيت، سنسألك: لماذا تتأذى؟ ستقول إنها إهانة، وقلة أدب.

إذاً، لا بد أن تعترف أن عائشة كانت في ذلك الموقف قليلة الأدب. و لا يمكن أن ترد هذا القول الوارد في البخاري ومسلم إلا بأن تكفر بالبخاري ومسلم وتلقيهما في سلة المهملات. صحيح؟

أما أن تستمروا في الضحك على الناس وتوهمون بنات هذه الأمة المسكينات بأن عائشة قدوة لهن، وتصفونها بأنها امرأة فاضلة، ذات خلق رفيع، سيدة تقية، بارة، حصان، رزان، فهذا تضليل.

لماذا تضحكون على الناس وتكذبون على عباد الله؟ كيف تستحلون أن تقدموا امرأة سبابة، فاحشة اللسان، قليلة أدب، كانت تسيء للسيدة خديجة عليها السلام، سيدة نساء أهل الجنة بمثل هذه الإساءات؟

إذا قلتم إن هذا ليس إساءة، وتقولون إن تحاملنا نحن هو السبب في هذا الفهم، حسنًا، فلتقبلوا إذًا أن نعاملكم بنفس الأسلوب. ولكن لا أحد منكم يقبل ذلك. دعونا نترك تفسيرنا الآن، ولنرَ ماذا قال علماؤكم في تفسير هذه الجملة. عندما شرحوا رواية البخاري ومسلم، ماذا قالوا؟ فالنووي، في شرحه لصحيح مسلم[1]، يقول عندما وصل إلى هذا الحديث: ""**حمراء الشدقين" تعني عجوزاً كبيرة جداً حتى قد سقطت أسنانها من الكِبَر، ولم يبقَ لشدقيها بياض شيء من الأسنان، إنما بقي فيهما حمرة لثاتها**."

أي أن عائشة كانت تسب السيدة خديجة بذلك، تقول إنها عجوز سقطت أسنانها، ولم يبقَ سوى لثتها. إذاً، هذه كانت سبابًا وشتمًا لا ريب فيه.

هناك كتاب لشخص معاصر منهم، اسمه محمد الأمين الهرري، وله كتاب في شرح صحيح مسلم بعنوان "**الكوكب الوهاج: شرح صحيح مسلم**". عندما وصل إلى هذه الرواية، قال[2]: "**وعائشة إنما ذكرت هذا الكلام تقبيحاً لمحاسن خديجة وتزهيداً فيها**."

فما هو السب؟ حقيقة السب هو التقبيح، فعندما أسبّك يعني أنني أقبحك. هذا كلام واضح أن عائشة قد سبّت خديجة وقبّحتها.

---

١ ج١٥ ص٥٧١

٢ ج٢٣ ص٥٣٩

وهم قد صُدموا بهذا السب ولم يعرفوا كيف يتعاملون معه، فحملوه على تفسيرات أخرى كالغيرة وغيرها .. لكن من أطرف ما قيل في هذا السياق ما قيل في كتاب آخر وهو كتاب "**إكمال المعلم بفوائد مسلم**"، وهو كتاب للقاضي عياض. في هذا الكتاب، قدّم لنا تفسيرًا عجيبًا لما صدر من عائشة حتى يخفف من وطأة هذا السب القبيح، فقال[1] : "**وذلك عندي من عائشة أيضًا مع صغر سنها وأول حالها وسورة تشبيهها، ولعلها كانت حينئذ لم تبلغ، والله أعلم**".

أي لعل أن عائشة كانت طفلة مسكينة في ذلك الوقت ولم تكن قد بلغت سن الرشد عندما سبّت خديجة، ولذلك لا يؤخذ الأطفال بما يرتكبون. ولكن إن كانت طفلة بهذا الشكل تتكلم بمثل هذا الكلام غير اللائق، فكيف سيكون حالها عندما تكبر؟

ومن أين جاء هذا التفسير العجيب؟ ما هو دليلكم على أنها كانت صغيرة في السن؟ وإذا كانت صغيرة في السن عند هذا الموقف، فما هو تفسيركم لبقية الأفعال؟

---

[1] ج٧ ص٤٤٤

مثلاً عندما كسرت الأطباق، أو أهانت رسول الله صلى الله عليه وآله، أو عندما سبّت صفية، أو عندما قالت عن أم سلمة: "**انظري كأن لها ذيلاً!**"[1]

وكل هذه الأفعال. هل كانت صغيرة في السن طوال حياتها؟ هل لم تبلغ قط؟ هذا التبرير السخيف ليس إلا في خداع الناس.

ويجب أن تعترفوا بأن عائشة كانت امرأة قليلة الأدب، رعناء، متأثرة بأخلاق الجاهلية. لا يمكن استغلالها كقدوة للنساء المؤمنات.

لهذا السبب، تجدون أنكم تعانون، لأنكم جعلتم عائشة قدوة لنسائكم. فما هو حال النساء الآن؟ نساءكم عائشيات في السلوك. قلة أدب وسوء أخلاق وجاهلية وفسق وفجور، هذه نتائج اتخاذكم هذه المرأة قدوة.

أما كان يكفيكم أن تتخذوا خديجة قدوة؟ أما كان يكفيكم أن تتخذوا فاطمة قدوة عليها السلام؟

إخواني، لدي وقفة مع هذا الحديث فسأعيده عليكم، حيث يكشف لنا عن التلاعبات المعهودة في مصادر البكرية ومحاولاتهم التغطية على بعض الجوانب المحرجة من الحقائق. الحديث في صحيح البخاري وصحيح مسلم

---

[1] وهي ما ذكره الثعلبي في "تفسيره" (٩/ ٨١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص: ٣٩٣)، من أنَّ أُمَّ سلَمةَ ربَطَتْ حَقْوَيْها بسَبِيبَةٍ وهي ثوبُ أبيضُ، وسدَلَتْ طرفَها خَلْفَها، وكانت تجُرُّه، فقالت عائشةُ لِحَفْصَةَ رضي اللهَّ عنهما: انظُري ما تجُرُّ خَلْفَها، **كأنَّها لسانُ كلبٍ**، فكان هذا سُخْرِيَتَهما .

يقول عن عائشة، أنها قالت: "**استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على رسول الله صلى الله عليه وآله، فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك، فقال: اللهم هالة. قالت: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها.**" لكن، هذا الحديث له تتمة محذوفة.

هذه التتمة تجدها في مصادر أخرى، منها مسند إسحاق بن راهويه[1]، وصحيح ابن حبان[2]. وقد نصّ الألباني على صحة هذا الحديث!

عن عائشة، قالت: "**كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكثر ذكر خديجة، فقلت: يا رسول الله، ما تكثر ذكر عجوز حمراء الشدقين، وقد أعقبك الله منها.**"

وهنا تأتي التتمة المهمة جدًا!

تقول: "**فتمعر تمعراً لم أره يصيبه إلا عند نزول الوحي أو عند مخيلة حتى يعلم أرحمة هي أم عذاب.**"

ما معنى هذه العبارة؟

---

[1] رقم 1163

[2] رقم 7008

الشرح موجود في هامش صحيح ابن حبان. يقول: "**وقولها: فتمعر وجهه يُقال غضب فلان فتمعر وجهه، وهذه آية الغضب الشديد إذا تغيّر وعلاه صفرة.**" يعني بسبب كلمة عائشة، اصفرّ وجه رسول الله صلى الله عليه وآله من بذاءة هذه الكلمة ووقاحتها. والحديث صحيح!

أفلا تستحون على أنفسكم يا من لا تزالون تمجدون عائشة وتثنون عليها؟

ويحكم!

امرأة غيّرت لون وجه نبيكم من قلة أدبها وسلاطة لسانها، اصفرّ وجه نبيكم بسببها. والحديث يقول: "**غضب فلان فتمعر وجهه إذا تغيّر وعلاه صفرة، وأصله قلة النظارة وعدم إشراق اللون، من قولهم مكان أمعر وهو الجدب الذي لا خصب فيه.**"

وأما المخيلة، فلما ذكرت المخيلة بفتح الميم، تعني السحابة. فعندما قالت: "فتمعر وجه رسول الله تمعراً لم أره إلا في حالتين." وهاتين الحالتين هما: عند نزول الوحي، وهي حالة من جلال الله عز وجل إذ يخاطب النبي صلى الله عليه وآله، فيصفرّ وجهه الشريف. أو عندما يرى مخيلة (سحابة مقبلة) حتى يعلم أهي رحمة أم عذاب!

ولكن هنا نجد أن الحالة الثالثة، التي أحدثتها عائشة، هي إساءتها لخديجة عليها السلام. فلماذا هذه التتمة المهمة مفقودة في البخاري ومسلم؟

لأنّها محرجة جدًا لهم!

إذا علم المسلمون أن هذه المرأة السوقية سبّت خديجة عليها السلام وأدى ذلك إلى غضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله حتى تمعّر وجهه الشريف واصفرّ، فماذا سيكون موقفهم؟ هذا الأمر يجعل المسلم يتفكر ويعيد النظر في موقفه تجاه مثل هذه المرأة، ويتساءل: كيف يمكنني أن أتبنى موقف الولاء لها؟

ما هو جزاء الذين يغضبون رسول اللّه في القرآن الكريم؟ يقول اللّه تعالى في سورة التوبة: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[1]) ، وفي سورة الأحزاب: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا)[2]

خديجة عليها السلام مكرمة من اللّه، وعائشة مهانة من اللّه..

فإذا أهانت خديجة وآذت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بذلك، آذت اللّه بذلك.

[1] التوبة:٦١

[2] الأحزاب:٥٧

الله سبحانه وتعالى اختار خديجة مع أربع نساء وجعلهن خير نساء الجنة، فكيف تأتي امرأة خبيثة كهذه وتسيء إلى إحدى هؤلاء السيدات؟ أليس هذا يؤذي الله ورسوله؟ قال الله تعالى في سورة الأحزاب: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا).

إذاً عائشة الآن في عذاب مهين.. مهانة من الله تعالى وفي عذاب أليم. لقد تغير لون وجه النبي صلى الله عليه وآله من الأذى الذي سبّبته له عائشة، فهذا هو حكم الله في كتابه على عائشة بمقتضى الأحاديث الصحيحة لديكم يا أبناء عائشة.

فلماذا تستنكرون روايات العترة الطاهرة وأحاديثهم؟ المضامين الموجودة عندكم هي ذاتها الموجودة عندنا! والنتائج واحدة عند كل منصف يبحث بتجرد عن الحقيقة.

يصل إلى هذه النتيجة: أن عائشة ملعونة في كتاب الله.

وإذا أردت لفظاً صريحًا على إغضاب عائشة لرسول الله صلى الله عليه وآله حين سبّت خديجة عليها السلام، فلنعد إلى صحيح مسلم[1] عن عائشة قولها: **"ما غرت على نساء النبي صلى الله عليه وآله إلا على خديجة، وإني لم**

---

[1] ورد تحت رقم 2435

أدركها." قالت: **"وكان رسول الله إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة، يذكرها دائماً ويتصدق عنها."** قالت: **"فأغضبته يوماً."!**

هنا تعترف عائشة بأنها أغضبت رسول الله. لكن الرواية هنا لا تفصح عن ماذا قالت. الموجود فقط أنها قالت: **"خديجة"**.

إلا أن التتمة المحذوفة ستتضح لاحقًا.. فترقبوا

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في منتهى الشاعرية: **"إني قد رزقت حبها"**. هذا هو رزق الله للنبي صلى الله عليه وآله، حيث يتشرف بحب خديجة عليها السلام، ويقول هذا رزق الله لي. لاحظوا إخواني شيئًا عجيبًا في مصادر البكرية، حيث يحدث تلاعب كبير في الروايات. يقومون بالتلاعب هنا وهناك، يحذفون ويضيفون بلا حدود، وكأنهم في حالة من الارتباك؛ فهم يعلمون أن بقاء هذه الروايات على حالها سيُسقط مذهبهم.

لذا، كلما رووا رواية، يجتهدون في تغييرها، و يحاولون تحسينها وتعديلها من جهة، وتلميعها من جهة أخرى، حتى لا ينهار مذهبهم. ففي صحيح مسلم، تجد أن ما حُذف هو القول الذي أغضبت به عائشة النبي صلى الله عليه وآله.. ولكن الموجود اللفظ الصريح بالإغضاب بقولها: **"فأغضبته يومًا فقلت: خديجة"**..

ولكن القول الذي أغضب النبي غير موجود. على العكس، في صحيح البخاري، حُذفت عبارة "فأغضبته يومًا"، ولكن ثبت القول الذي قالته عن خديجة عليها السلام والذي أدى لغضب النبي.

مع أن كلتا الروايتين تُرويان عن نفس السند، عن حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. فإذا رجعتم إلى صحيح البخاري[1]، تجدون أن عائشة تقول: **"ما غِرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وآله ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة."** وهنا تلاحظون حذف "فأغضبته يومًا"... ثم استكملت: **"كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة"**!

أما عندك غير خديجة؟ بمعنى أنها كانت تستكثر ذكر النبي لخديجة عليه السلام. هذا هو القول الذي أغضب النبي صلى الله عليه وآله، ولكن عند البخاري تقول الرواية: "فيقول: **"إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد."**!

هنا نجد البخاري يحاول تلافي الموقف بعدم ذكر الغضب، بينما الشيخ مسلم يذكره، ولكنه يحذف قول عائشة. هذا تلاعب واضح في الروايات.

[1] الحديث رقم 3818

والمضمون موجود عندهم، حيث يذكر أن خديجة عليها السلام ولدت للنبي صلى الله عليه وآله الطاهر، وهو عبد الله، والمطهر، والقاسم، وفاطمة، وزينب، وأم كلثوم، ورقية.

أما عائشة، فلم تنجب للنبي شيئًا، كما ورد في كتبهم مع بعض التغييرات والتحريفات. بناءً على هذا، إذا قام أي شخص بجمع هذه الروايات من مصادرهم المختلفة ووضعها بعضها بجانب بعض، سيصل إلى الحقيقة. أي باحث منصف، حتى وإن كان من البكرية، يمكن أن يصل إلى الحقيقة ويقتنع بها ويتشيع.

ومرة أخرى ننصحكم بالعودة إلى السلسلة التي شيّعت العشرات بحمد الله، وهي بعنوان "**أهل السنة أم أهل الخدعة**".

عرضنا فيها نماذج عديدة عن الروايات والأحاديث التي تلاعبوا بها، حيث تم جمعها من كل المصادر، ووضعها جنبًا إلى جنب، لتكتشف الخدعة. "أهل السنة" أم "أهل الخدعة"؟! لم يحفظوا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله كما يزعمون، بل خدعوا الناس بالتلاعب بها. إن تلاعبهم هذا هو دليل على ضعفهم وخوائهم، وعلى علمهم بأنهم على باطل.

وإلا، لماذا يحتاج الشخص إلى التلاعب بأحاديث السنة إذا كان واثقًا من مذهبه؟! لماذا حرّفت اليهود كتابها؟ ولماذا حرّفت النصارى كتابهم؟

أليس لأنهم يعلمون أنهم على ضلال؟ فلا يريدون إثبات ما يدل على حقانية الإسلام ونبوة رسول الله صلى الله عليه واله، وألا تبقى في كتبهم حججًا يستفيد منها الخصم؟

والبكرية على خطى اليهود والنصارى، حيث يتبعون نفس الأسلوب في التلاعب بالكتب. هذا التلاعب يدفع الناس إلى التشيع، وإلى موالاة العترة الطاهرة عليهم السلام، والبراءة من أعدائهم عليهم اللعنة.

ومع ذلك، الغريب أن هناك من لا يزال يدافع عن عائشة، رغم ظهور رعونتها وقلة أدبها وأخلاقها الجاهلية. كيف يمُكن أن يدافع أحد عن هذا؟!

روي عن أئمتنا عليهم السلام: "**الناس كلهم بهائم إلا قليلاً من المؤمنين**".

فقط المؤمنون ليسوا بهائم، أما البقية؟ فهم بهائم، والواقع يُظهر أن البكرية هم من هؤلاء البهائم، كيف يمكن لروايات كهذه.. التي تُظهر غضب النبي صلى الله عليه وآله بسبب ما قالته عائشة، أن تُعتبر مناقب؟

كيف تُعتبر الإساءة للنبي صلى الله عليه وآله مدحًا؟! هذا أمر عجيب! ألا يمتلكون عقلاً؟! أستغرب حقًا من هذا التفكير، وأتساءل كيف يمكن أن تسير عقولهم بهذا الشكل؟ كيف يمكنهم تفسير الأمور بهذه الطريقة؟ قبل سنوات، أعلنا الحرب على عائشة.. باحتفالنا بذكرى هلاكها، أثار هذا الحدث ضجة كبيرة في العالم البكري، ووقعت مشاكل كثيرة وزوابع في فنجان كما نقول.

وقد قاموا بعدة مبادرات للرد علينا، كان أبرزها مسابقة عالمية كبرى لنظم الشعر في مدح "الحميراء" عائشة.

حيث دعوا الناس لنظم الأشعار، ووعدوا بجوائز للمتسابقين. من تبنى هذه المسابقة ودفع لها هو محمد العريفي وبعض الجهات الأخرى. وقد دعوا الناس إلى المشاركة والدفاع عن "أمهم" والرد على ما قام به "الرافضة الأنجاس"، بحسب وصفهم، من احتفال بذكرى هلاكها.

وفعلاً، انطلقوا لتنظيم الأشعار في مدح عائشة.. فاز بالجائزة الأولى شخص يُدعى يحيى الصامولي، الذي ألف كتابًا ضخمًا نظم فيه -بزعمه- ألف بيت في مدح عائشة، وسماه "ألفية أم المؤمنين عائشة" أو "الروض الأنيق في نصرة العفيفة الصديقة".

وعندما طالعت هذا الكتاب، فوجئت بما فيه، حيث يُظهر في مقدمته ما يُشبه محاولة لتقليد ألفية ابن مالك في النحو. المؤلف يقول في مقدمته: "**أما بعد، فهذا متن ألفية أم المؤمنين عائشة، أو الروضة الأنيقة في نصرة العفيفة الصديقة، أو العروة الوثيقة في نصرة العفيفة الصديقة، أو قامع الرافضة في نصرة العفيفة المؤيدة، أي هذه الأسامي شئت أن تسميه فسمه**"، وكأنه يريد أن يجعل منها ألفية تحُفظ كما تحُفظ ألفية ابن مالك. ويضيف: "**هذا الكتاب أُلف للمشاركة في نصرة أم المؤمنين والتقدم به في المسابقة العالمية لأبناء أم**

المؤمنين عائشة رضي الله عنها" (لعنها الله) "والتي أطلقها أستاذنا الشيخ الدكتور محمد العريفي جزاه الله خير الجزاء".

عندما قرأت هذا الكتاب، أول ما لاحظته هو ركاكة الشعر وسخافته وانحداره. ثم تعجبت كيف يمكن لهؤلاء القوم أن يجعلوا المثالب مناقب. كيف يمكن لعقل أن يقبل هذا؟ الملة البكرية غريبة حقًا، والله غريبة. النبي يدعو على معاوية ويقول: "**لا أشبع الله بطنه**"[1]، وهم يجعلونها منقبة لمعاوية. إنها ملة غريبة! بشر ليسوا كباقي البشر، وكأنهم بلا عقول، لا أفهم كيف يفكرون.

انظر إلى الشعر الذي نظموه، يا للعجب! يقول الشاعر في مدح عائشة:

وأعجب الأشياء ذكرا أنها... تغار ممن كان ما تقبلها

وهي خديجة العظيمة التي... حازت مكانا سامقا في الرفعة

يقول خير الخلق عن خديجة... كانت وكانت، فهي خير زيجة

وكان يبعث الهدايا بعدها... والأعطيات في صواحب لها

وعندها تضحى عويش واجمة... غيرا وكانت بالوداد عالمة

قالت أليس في الوجود غيرها... فقال كلا لم يكن وما بها

---

[1] صحيح مسلم: ٢٦٠٤

يتحدث عن غيرة عائشة من السيدة خديجة عليها السلام، ويحاول أن يحول هذه المثالب إلى مناقب! ويستمر في الأبيات الركيكة:

ثم عويش الآن فاق حبها... تغار من من قد يعيش بعدها

حتى كانت تغار ممن سيأتي بعدها، حيث قالت: "أما إذا متِّ، فما الذي سيحدث؟" هذا الحديث المعروف يقول فيه النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم: "**وما ضرَّكِ لو مِتِّ قبْلي فغسَلْتُكِ وكفَّنْتُكِ وصلَّيْتُ عليكِ ثمَّ دفَنْتُكِ** ".[1] فردت عائشة مباشرة: "وا رأساه! أما إنه لو حصل ذلك، لعَرَستَ بإحدى نسائك في نفس الليلة!". ويستمر الشاعر في محاولة تحويل عيوب عائشة إلى مناقب، ويقول:

تقول ورأساه قال المصطفى... ممازحا ولم يكن به جفا

لو كان ذاك الآن فغسلتك... ثمة أستغفر وأدعو لك

هذا الشعر الركيك الذي يحاول الشاعر أن يضعه في إطار مدح لعائشة، إذا قام أحد بفحصه في الأحاديث الصحيحة، سيكتشف العجب العجاب وسيكره هذه الإمرأة.

[1] صحيح ابن حبان ٦٥٨٦

ستتضح الحقيقة ويظهر أن هذه المرأة أغضبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسبّت السيدة خديجة عليها السلام، وأذت النبي بذلك. ومن يؤذي رسول الله فهو ملعون، فأين عقلك؟ سبحان من جعل أعدائنا من الحمقى، أبهذه الطريقة تردون علينا؟

هذا يذكرني بكتاب "**الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة**" لابن حجر الهيثمي المكي.

هذا الكتاب أُلِّف في الأساس للرد علينا، لكنه في الحقيقة نفعنا كثيرًا، حيث نستخرج منه ما يؤكد مذهبنا وليس العكس..

حتى كتب ابن تيمية، مثل "**منهاج السنة**"، كانت مؤلَّفة للرد علينا، لكنها أفادتنا كثيرًا أيضًا.

فسبحان الله، تؤلف شيئًا للرد علينا، ثم ينقلب السحر على الساحر ويصبح ما ألفوه في خدمة الشيعة.

فشكراً جزيلاً على هذه الألفية الرائعة، ونسأل الله ألا يحرمكم من الغباء الذي أنتم فيه.

هل تعتقدون أنكم بهذه الأشعار الركيكة والعبارات الهزيلة تدافعون عن أمكم عائشة؟ هل هذا هو الرد على المد الشيعي؟ هل تتصورون أن هذا الأسلوب

سيوقف انتشار التشيع؟ كل تلك الضجة التي أقمتموها قبل سنوات لم تمنع الناس من التشيع، بل بالعكس، فقد تشيع الناس أفواجًا أفواجًا بعد ذلك.

لو قمتم بإحصائية، لرأيتم ذلك بوضوح.. فهذه الأشعار الركيكة التي تحاولون بها الدفاع عن عائشة، والتي تتضمن في الواقع مثالبها أكثر من مناقبها، لن تحفظ سمعتها، ولن تجمّل صورتها، ولن تغطي عيوبها.

فالشعر، إن لم يكن معناه حقيقيًا وصادقًا، فلن يكون إلا ذا مردود عكسي على صاحبه، ولن يكون إلا كذبًا وافتراء.. تعالوا، تعلموا فن الشعر منا نحن الشيعة.

فالرافضة هم سادة الشعر والشعراء عبر التاريخ. حتى يقال عن الشعر الحسن: "شعر كوفيٌّ شيعيٌّ"، والشعر الذي يتميز بالرقة والجمال في التصوير يُقال عن صاحبه إنه كان يترفّض في شعره.

تريدون معرفة الشعر الأدبي الرفيع؟ اذهبوا إلى أمثال السيد الحميري، رضوان الله تعالى عليه. يمكنك أن تفتح كتاب "**الحيوان**" للجاحظ[1]، لتجد أن السيد بن محمد الحميري شبّه عائشة (لعنها الله) في نصبها الحرب يوم الجمل لقتال بنيها بالهرة التي تأكل أولادها. يقول في شعره:

[1] في الصفحة 129

جاءت مع الأشقين في هودج... تزجي إلى البصرة أجنادها

كأنها في فعلها هرة... تريد أن تأكل أولادها

تعلّموا الشعر! جاءت هذه الأبيات بتصوير رائع وجميل للشعر.

أما ألفية عائشة الركيكة التي كتبتموها، فهي لا تعادل هذين البيتين في القوة والبلاغة.. انظروا إلى روعة الشعر وجماله، وكيف يصوره الأدب الرفيع والتصوير الفني الراقي. هؤلاء هم فحول الشعراء، وما كان فحول الشعراء إلا من الرافضة عبر التاريخ.

وفي نهاية هذا الباب أقول: سلام الله على السيدة خديجة الغرّاء، وضاعف الله عذاب عائشة..

الفصل الحادي عشر

أَجوَدُ المُستَمطَرِينَ دِيمةً

مرّ معنا كيف أسلمَ أحدُ كبار صناديد المشركين، وهو صفوان بنُ أميّة، بعدما رأى هذا السخاء المحمديّ منقطع النظير، وقال: "**ما طابت نفسُ أحدٍ بمثلِ هذا إلاّ نفسُ نبيّ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله**"[1].

أحياناً تكون آيةُ السخاء هي التي تؤدي إلى هداية الناس، أو لا أقلَّ تعطيلَ شرّهم، ونبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله كان أسخى وأجود وأكرم الناس، ولطالما كسبَ أناساً بسخائه وجوده وكرمه..

ولطالما درأ شرَّ أناسٍ بسخائه وجودهِ وكرمه صلى الله عليه وآله، هكذا وصفَه مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه في كلام له يُروى عنه في مصادرِنا ومصادر العدوّ على السواء..

أما من مصادرنا فقد رواه الطبرسي في مكارم الأخلاق[2] وابنُ هشام في سيرته[3]، وابنُ كثير في البداية والنهاية وغيرهم، يقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه في وصف رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله: "**كان أجودَ الناسِ كفّاً، وأجرأَ الناسِ صدراً!** -وفي لفظٍ آخر لعلّه الأصح- **وأرحبَ الناس صدراً** فصدره صلى الله عليه وآله واسعٌ رحب، فهو يعفو ويسامح ويغفر، **كان أجودَ**

---

[1] سير أعلام النبلاء ج٢ ص٥٦٣

[2] ج١ ص١٨

[3] ج١ ص٤٠١

الناس كفّاً، وأرحبَ الناسِ صدراً، فإذا جاء لفظ "**أرحب الناس صدرًا**" .. كان كناية عن سعة صدره وتسامحه ... بينما إذا جاء بلفظ "**أجرأ الناس صدراً**" كان ذلك كناية عن شجاعته وبسالته وثبات قدمه في المواجهة..

كان أجودَ الناس كفّاً، وأرحبَ الناسِ صدراً، وأصدَقَ الناسِ لهجةً، وأوفاهم ذِمّةً؛

فإذا وعد لم يخلف..

وألينَهم عَرِيكةً، وأكرَمَهم عِشرةً، مَن رآهَ بديهةً هابَهُ!

فما إن تقع عين الناظر عليه حتى بديهةً هابَهُ، لكن من يُعاود النظر إليه، ويخالطُه، يتعلّق به ويزدادُ محبةً له..

ومَن خالَطَهُ فعرَفَهُ؛ أحبَّهُ، يقولُ ناعتِه: "لم أرَ قبلهُ ولا بعدَه مثلَه"!

هذه الكلمة كثيراً ما تكررت على ألسنة العدو والصديق على السواء، فهي حقيقة: "**لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه صلى الله عليه وآله**"!

في قوله **كان أجودَ الناس كفّاً** ..

كان جودُه صلى الله عليه وآله متميزاً بصفةِ الديمومة والاستمرار مع السكون والهدوء، فهناك من يجودونَ بكرم، لكنّ جودَهم منقطع، كأن يهبَ أحدَهم مالاً

كثيراً أو يتبرّع بسخاء، ثم لا يكرّر هذا الفعل مرة أخرى، فهذا يعدُّ جوداً، لكنّه غير دائم.

وهناك من يجود، لكن جودَه يأتي بصخبٍ وضوضاء، أو قد يتفاخرُ بما يجودُ به، فيُظهر جودَه بصورةٍ غيرِ هادئة، ولا أقول يمُنّ، فعند المَنِّ يَبطُلُ عملُه، لكنَّ جُودَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لم يكن من هذا النوع؛ فقد كان جُوداً فيه صفةُ الديمومة، ومعَه السكينة بلا صخب..

وأروعُ ما قيل في وصف هذا الجود المحمدي كان من مولانا أميرُ المؤمنين عليّ عليه السلام، إمامُ البلاغةِ والبُلَغاء، حيثُ يقول في إحدى خَطَبِه في "نهج البلاغة"[١]: "**بعثَ اللهُ محمّداً صلى الله عليه وآلِه شهيداً وبشيراً ونذيراً، خيرَ البريّة طِفلاً وأنجَبها كهلاً، أطهرَ المُطَهّرينَ شِيْمةً وأجوَدَ المُستَمطَرينَ دِيمةً**"..

وهنا تجدُر الإشارة إلى أنّ كلمة "**ديمة**" تعني السحابة الماطرة المستمرة بلا انقطاع، والتي تكونُ في سُكون بلا رعدٍ أو بَرق، فهكذا كان جود رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، مستمراً وهادئاً بلا صَخَب، يجودُ بكفّهِ السّمحاء، بعطاءِه الذي لانظير له، بشكلٍ مستمرٍّ ومتوالٍ حتى قالَ فيه أميرُ المؤمنين عليه السلام أنه **أجوَدُ المُستَمطَرينَ دِيمةً**..

---

[١] نهج البلاغة ج ١ - الصفحة ٢٠٠

وكان رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وآله لا يردُّ سائِلاً، حتى لو لم يكن عندَه ما يعطيه، فقد كان يستقرض ليُعطيه، أو يأمُرُه بالاقتراضِ عليه، وقد روى الحِميَريُّ في "قُربِ الإسناد"[1] عن الإمام الباقر عليه السلام **أنّه جاءَ إلى النبي صلى اللّه عليه وآله سائلٌ يسأله، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: "هل من أحدٍ عندَه سَلَف؟" فقامَ رجلٌ من الأنصار من بني الحُبلى**[2]**، وقال: "عندي يا رسولَ اللّه..، فقال النبي صلى اللّه عليه وآله: فأعطِ هذا السائلَ أربعةَ أوساقٍ تمر، فأعطاه**[3]**، ثمَّ جاءَ الأنصاريُّ بعدُ إلى النبيِّ صلى اللّه عليه وآله يتقاضاه بدَيْنه، فقالَ له النبي: "يكونُ إن شاءَ اللّه"،** وعاد إليه مرة ثانية وثالثة، **فقال له النبي: "يكونُ إن شاءَ اللّه"، في المرة الثالثة قال الرجل: "قد أكثَرتَ يا رسولَ اللّه من قول 'يكونُ إن شاءَ اللّه'"!**

فضحكَ رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وآله، وقال: "هل من رجلٍ عندَه سَلَف؟" فقامَ رجل فقال له: "عندي يا رسول اللّه"، قال: "وكَم عندَك؟"، قال: "ما شِئت"، قال: "فأعطِ هذا ثمانيةَ أوسُقٍ من تمر، فقال الأنصاري: "إنما لي أربعةٌ يا رسولَ اللّه"، فقال له النبي صلى اللّه عليه وآله: "وأربعةٌ أيضاً"، هذا الموقف

[1] قرب الإسناد ص 114.

[2] -بطنٌ من الخزرَج، والحُبلى لقبُ لأبيهم شبّهوهُ بالمرأة الحُبلى لعِظَمِ بَطنِه

[3] والأوساق جمع وَسَق وهو مكيالُ قدرُه ستّون صاعاً، أي حوالي 180 كيلوغراماً

يعكس جود النبي صلى الله عليه وآله، الذي لم يكن يخيب سائلاً أو يرده، حتى لو اضطرّ إلى استقراضِ المال، وحتى إذا أثقلَ ذلك على نفسهِ الشريفة.

في موقفٍ آخر، نجد ذات القصة مروية في مصادرِنا ومصادر مخالفي مذهبنا، فقد نقلها الطبرسي في مكارم الأخلاق، كما رواها البزار في مُسنَده[1]، والطبَري في تهذيبِ الآثار في مُسند عُمَر[2] بسنده الصحيح. يقول الحديث: "**جاءَ رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وآلِه فسألَه، فقال: ما عندي شيءٌ أعطيك، ولكن استقرضْ عليَّ حتى يأتيْنا شيءٌ فنُعطيك**"، أي إن النبي صلى الله عليه وآله لم يكُن لدَيه شيءٌ في تلك اللحظة، فطلب من الرجل أن يستقرض الناسَ قرضاً على ذمّته حتى يأتيه مالٌ فيسدده. هذا فعل يسير أن يذهب أحدهم ويقول للناس: "أقرضوني"، ويحمِّل رسول الله صلى الله عليه وآله كل هذا الدَّين، الرواية تقول؛ **فقال عمر، لعنه الله: "ما كلّفَك الله هذا، أعطيتَ ما عندك، فإن لم يكُن عندَك فلا تَكلَّف!"**، **فكَرِهَ رسول الله صلى الله عليه وآله قولَ عُمر، حتى عُرِفَ في وَجهِه**، كان وجه النبي يتغير من تصرفاتِ هؤلاء المنافقين، وقد رأينا من قبل كيف اصفرَّ وجهُه من تصرُّفاتِ عائشة، واليوم نعرفُ كيفَ تَغيّر وجهُه من تصرُّف عمر. السؤالُ هنا: ما شأنُك يا عمر؟ لماذا تتدخّل فيما لا يعنيك؟ وكيف ترى لنفسك حقاً في تصويبِ أفعالِ

---

[1] ج١ ص٣٩٦

[2] ج١ ص٨٨

النبي صلى اللّه عليه وآله، وكأنّك قيِّمٌ عليه، وهو الذي أدّبَه ربُّه سبحانَه، وهو سيّدُ الأنبياء والمرسلين وخيرِهم؟ أتقومُ أنت بتعليمه؟ **وكانَ إذا غضِبَ النبي صلى اللّه عليه وآله عُرِفَ من وَجهِه، فقامَ رجلٌ آخر، وقال: "يا رسولَ اللّه، بأبي وأمّي أنت، أَعْطِ ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً"، فتبَسّم النبي صلى اللّه عليه وآله، وقال: "بهذا أُمِرتُ"**. فهذا هو خُلُق النبوة، وهذه تربيةُ اللّه وتأديبُه لنبيّه الأكرَم صلى اللّه عليه وآله، فقد أمرَه اللّه ألاّ يرد سائلاً، وهكذا فرّج الرجل عن النبي وتبسّم بعدما أغضَبه عمر.

هذا الطاغية، ابنُ صُهاك، دائماً ما كان يحشرُ أنفَهُ، ويرى نفسَه معلماً للنبي صلى اللّه عليه وآله، ويُدخل نفسَه فيما لا يعنيه، فيَنصِبُ نفسَه لهذا الدور، كأنه مرشدٌ للنبي. ولنستعرض موقفاً آخر من *تهذيب الآثار* في مُسنَد عمر للطبري؛ **فقد روى سَلمان بنِ ربيعةَ قال، قال عمر بنُ الخطّاب: "قسَمَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله قَسماً -غنائم-، فقلتُ -أي عُمَر بوقاحةٍ لا يستحيي منها-: "واللّهِ لَغَيرُ هؤلاءِ كانَ أحقَّ منهم"**، فالنبي صلى اللّه عليه وآلِه المُسدَّد من اللّه والمؤيّد من السماء يَقسم، ويأتي عمر ليعترض ويقول إن هناك من يستحق هذا المال أكثر ممن أعطاهم النبي..

وكأنه يعتقد أن النبي صلى اللّه عليه وآله لم يَعدِل في قسمَته، هذا الاعتراض يدل على نفاق هذا الرجل، فالمؤمن الحقيقي لا يعترض على قضاء رسول اللّه

صلى اللّه عليه وآله ولا يرى حرجاً في نفسه مما قضى، وما نفَل، وما أعطى أوما أمسَك، المسلمُ الحقُّ هو من يسلّم لرسول اللّه تسليماً مطلقاً، فلا يعترض عليه في شيء. فإذا وجدتَ أحدهم يدّعي الإسلام، ثم يعترضُ على رسول اللّه ويُخَطّئه في قِسمَته، فكأنّه يشكُّ في عدله، ولا يمكنُ حينَها أن يكون هذا الرجلُ مسلماً صادقاً قد استقرّ الإيمانُ في قلبِه، فكيفَ يزعمُ البعضُ أنَّ عمر كان مؤمناً؟ أما لهم عقول يعقلون بها؟ وكيف يستبعدون فكرةَ أنّ عمر قصد مخالفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في حادثة **رزية الخميس** على سبيل المثال؟

إنّ المؤمنين يطرحون هذه الحادثة دليلاً على إدانة عمر، حيثُ يَرَونَ أنّه تعمّد مخالفةَ النبيّ، إذ عَلِمَ أنّ النبي صلى اللّه عليه وآله أرادَ النص في هذا الكتاب على خلافةِ عليٍّ عليه السلام بعده، فصدَّ عنه، لأنه كان يرى النبيَّ مخطئاً، وأن الأولى توليةُ غيرِ عليّ، وهذا ما اعترفَ به عمرُ نفسُه في روايةٍ أخرى نقلناها في سلسلة -**كيفَ زُيِّفَ الإسلام**-، وممن رواها ابنُ أبي الحديد في شرح النهج عن المصادرِ التي تقدّمت عليه، ويقولُ المخالفون: حاشا وكلا، لا يمكن لعُمَرَ أن يخالف النبي أو يرى أنه جانَب الصواب!

قل لهذا الجاهل: كيفَ إذاً تتعاملُ مع ما روَيتموه في عدّة موارد تدلُّ على أنّ عمر خالفَ النبيَّ عمداً وأخطَأه، ويُقسِم أنّ ما فعَلَه النبيّ ليس هو الصواب؟ مثل هذه الرواية التي بين أيدينا الآن، التي رواها إمامكم الطبري في **تهذيب**

الآثار[1] بإسناد صحيح، قال فيها: " **قسَمَ رسول الله صلى الله عليه وآله قَسماً** "، فقال عمر: "**واللهِ لَغَيرُ هؤلاءِ كانَ أحقَّ منهم** "!

المسلم الحقيقي قول إن قسمة النبي عدل، أما عمر فقد قال أنها غير عادلة وأقسم بذلك!،

كثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُعطي المؤلّفةَ قلوبهم، ويُعطي هؤلاء الذين يعلم أنهم ليسوا بمسلمين حقاً، بل يعرف أنهم منافقون.

وكان يفعل ذلك، كما يُقال، ليُكفى شرُّهم، وقد أجاز القرآن هذا الأمر. ساهم إعطاؤه للمؤلفة قلوبهم في درء الفتنة التي كان يمكن أن تحدث، فقد كانوا إن لم يُعطوا سيُعيدون الناس إلى الجاهلية وستسفك الدماء من جديد. فكان النبي يسكتهم بما يسعون إليه ويرغبون فيه من الدنيا، إذ هم ليسوا طالبين للآخرة بل للدنيا وللمال، وقد كان عمر بن الخطاب يعترض على ذلك، إذ كانوا يأتون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، يسألونه ويدّعون الإيمان، وكان النبي لا يردّهم خائبين، بل يقترض ويعطيهم؛ لأن بغير هذه السياسة الحكيمة سيعودون إلى الجاهلية. فكان يفضل أن يسكتهم بما يطمعون فيه من الدنيا. إلا أن عمر هنا، من وجهة نظر الراوي، قد "أدخل أنفه فيما لا يعنيه" وجعل نفسه وكأنه مُقيّمٌ على رسول الله صلى الله عليه

[1] ج١ ص ٨٧

وآله، وأنه يصحح له أخطاءه، حتى أن هذا كان يغضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، إذ كان يقول له عمر: "هؤلاء لا يستحقون العطاء".

ويعترفُ عمر قائلاً: "**فقلتُ واللّهِ لَغَيرُ هؤلاءِ كانَ أحقَّ منهم**"، فأجابه النبي صلى اللّه عليه وآله قائلاً: "**إنّهم يُخيّروني بينَ أن يسألوني بالفُحش وأن أبخَل، ولستُ بباخِلٍ**"..

وهذه هي النبوّة، فلا يمكن أن يقبل النبي صلى اللّه عليه وآله على نفسه أن يُقال عنه إنه بخيل، إذ قال لهم إنهم يخيّرونه بين أمرين: أن يسألوه بالفحش، أي بالمُبالغة، وتجاوُز الحدّ، ولا بد أن يُعطيهم، أو أن يُبَخّل وليس بباخل.

وحتى إن فرضنا أنهم لا يستحقّون، فإعطاؤهم أَولى من أن تلوَّث سمعة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وتتناقل العرب قولاً مثل "محمد بخيل، نعوذ باللّه، ما أعطانا، سألناه فلم يعطنا".

وهذه العبارة لم تجرِ على لسان عربي قط، حتى أعداء رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ما كانوا ليقولوا إن محمداً بخيل، ولم يُروَ في التاريخ أن أحداً قال: "ذهبت إلى النبي فحرَمَني".

ولهذا كان يتألّق نجمه في سماء المجد، والرفعة، والنُبْل صلى اللّه عليه وآله، وهذه حكمة ورسالة النبوة، وهكذا أمره اللّه عز وجل، إذ قال له: "**بهذا أُمِرتُ، ولستُ بباخِلٍ**" أمّا عمر، فجاء يعترض على تصرفات النبي صلى اللّه عليه

وآله، وكأنه يعلم النبي ما يصنع، كمن يصنّف نفسه مع المنافقين، فلا يقبل أن يُوصم بالبخل مثلهم.. وهذا شأنهم، أما محمد أو آل محمد أو آل عبد المطلب عليهم السلام، فهم كرماء العرب وعظماؤهم، ولا يقبلون على أنفسهم هذا الوصم أبداً، إذ أن الكرم كان من أعظم صفات العرب، حتى في الجاهلية، وكان العربي مستعداً أن يُسبّ بشيءٍ إلا أن يُقال عنه بخيل.

أما عمر، فيوصَف هنا بأنه لا يمتّ للعربي الصميم بصلة، بل وُصف بالجَلف، الذي لا يهتم لهذا، ومع ذلك، النبي صلى الله عليه وآله، كان من أجود الناس كفاً، وأكرمهم، **وأجوَدِ المستَمطَرينَ ديمة**، حتى كثرت ديونه؛ لأنه يعطي الناس ولا يردهم.

وكان يستقرض ليعطيهم، حتى تراكمت ديونه مع الوقت إلى أن جاءَته اللحظات التي يتهيّأ فيها لترك الدنيا، وقد تراكمت عليه الديون والعِدات التي وعد بها بعض الناس، فجمع أقاربه في بيته الشريف، كما يُروى عن ابن شهر آشوب في "مناقب آل أبي طالب"[1]، إذ ورد بالإجماع على هذا الحديث، وهو حديث ابن عباس، يقول: والإجماع في حديث ابنِ عباس في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، **إذ قال النبي صلى الله عليه وآله: "يا عباس، يا عمَّ رسول الله، أتَقبَلُ وصيّتي وتُنجزُ عِدَتي وتَقضي دَيني؟"..**

---

[1] ج٣ ص٤٨

وهنا يظهر من المؤمن حقاً برسول اللّه، ومن المستأكِل برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، فوصف العباس بأنه "**دنيوي خسيس**" يحب الدنيا، وقد أعلن إسلامه بعد فتح مكة، وبقي مع المشركين سنوات، إذ كان يحبّ الدنيا ويرى نفسَه سيداً من سادة قريش، وسبّبَ مشكلة كبيرة للنبي صلى اللّه عليه وآله، عندما سدّ أبواب المسجد إلا باب عليّ عليه السلام، فاعترض العباس[١] وقال للنبي: "أَتُدخلُ ابنَ عمِّك وتُخرجُ عمَّكَ وشيخَ أهلِ بيتِك؟"..

كان النبي صلى اللّه عليه وآله يقول للعباس: "لستُ أنا الذي أدخلكم أو أخرجكم، بل هو اللّه؛[٢] اللّهُ أمَرَني بأن يكونَ هذا البيت، هذا المسجدُ الشريف، لا يوجد فيه إلا الطاهرون المُطَهّرون، وهم: أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم الصلاة والسلام"، وكأن النبي يوضح للعبّاس أن دخولَه للمسجد ليس بيدِه، فاللّه قد أمَرَه بذلك، وأنّ العباس لا يُعتبر طاهراً طهارةً تامة، فقد كان يعمل بالربا.. ومن المعروف أن العباس، كما يروي المؤرخون، كان من كبار المُرابين، وكان يأخذ الأموال بالربا ويُطعم منها أولاده.

---

[١] ومشكلته كمشكلة عمر فكلاهما يعترض على حكمة النبيّ.

[٢] منها ما روي عن أبي سعيد الخدري : وأخرج رسول الله عمه العباس ، وغيره من المسجد ، فقال له العباس : تخرجنا ، ونحن عصبتك ، وعمومتك ، وتسكن علياً ؟!
فقال : ما أنا أخرجتكم وأسكنته ، ولكن الله أخرجكم وأسكنه.. المستدرك على الصحيحين: ٣ / ١٢٦ / ٤٦٠١ وراجع السنة لابن أبي عاصم: ٢ / ٥٩٥ / ١٣٨٤، والمناقب للكوفي: 2 / 401 / 878.

ومن هنا، ينقل الراوي أن ذُرية العباس لم تكن خيراً، بسبب كسبه المال الحرام.

وقد جاء في خطبة النبي صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، حين قال: "كلُّ دمٍ في الجاهلية تحتَ قدميَّ هاتين.. - تتمة إلى أن تصل إلى.. - وكلُّ رِبَاً موضوع، وأول ربا أبدأ به رِبَا عميَ العباسِ بنِ عبدِ المُطّلب"[1]، في إشارة إلى أنه يُسقط قوانين وعادات الجاهلية من الربا والدماء، هذا يدلك على أن العباس كان من كبار المرابين قبل الإسلام، وكأنه قد أسس "بنكاً كاملاً للربا"، يأخذ الأموال يأكلها ويُطعم أولاده منها، فصارت لحومهم تنبُتُ على المال الحرام..

ويُقال إنَّ من ذرّيته عبيدُ الله وعبدُ الله بن عباس، ومِن بعدِهم العبّاسيون، الذين لم يكن فيهم الخير الكثير بسبب آثار الربا، وإن كان العباس من بني هاشم، إلا أن بعض ذرّيته كانت خبيثة مثل ولد نبي الله نوح عليه السلام، الذي لم يتبع هدى أبيه، رغم انتمائه إليه نسباً، وهذا حتى تتعلم ألا تكون لقمتك حراماً فتنبُت في ذريتك، وفي هذا الإطار، جاء النبي صلى الله عليه

[1] بحارالأنوار الجزء٢١ الصفحة٤٠٢

وآله بجمع من أقاربه إلى بيته الشريف قبيل وفاته، وقال للعباس: " **يا عباس، يا عمَّ رسول الله، أتَقبَلُ وصيّتي وتُنجزُ عِدَتي وتَقضي دَيني؟**"[١].

لا يقبل النبي أن يرحل عن هذه الدنيا دون أن يوفّ ديونَه أو يوصي بها أحداً، علماً أن الديون لم تكن له ولأهل بيتٍ، بينما كانت للناس، لأن النبي لا يردُّ سائلاً، وهنا يظهر إيمان من كان يؤمن حقاً برسول الله، ومن لم يكن كذلك.

ووُصف العباس هنا بأنه رجل محب للدنيا، أعلن إسلامه بعد فتح مكة، وكان يعيش بين المشركين، وحين أظهر إسلامه، لم يقبل أن يسير على نهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجود والسخاء، ولذلك، حين سأله النبي عما إذا كان يقبل بالوصية، أجاب العباس: "**يا رسولَ الله، عمُّك شيخٌ كبير ذو عيالٍ كثير، وأنت تُباري الريح سخاءً وكرماً، وعليكَ وعدٌ لا ينهضُ به عمُّك**"!

كأنه يعبر عن عدم استعداده لتحمل الوعود والديون، رغم أنه جمع الكثير من المال فيما بعد وعاش حياة مرفهة، **فأقبلَ النبيّ صلى الله عليه وآله على عليّ عليه السلام، فقال: " أتَقبَلُ وصيّتي وتُنجزُ عِدَتي وتَقضي دَيني؟**"، **فقال علي عليه السلام: "نعم، يا رسول الله**"، **فقال: "ادنُ مني" فدنا منه وضمّه إليه،**

---

١ سبق ذكر مصدره في الصفحة ٣٥٤

ونزعَ خاتمَه من يده، وقال له: "خذ فضعه في يدِك"، ليكون علياً الخليفة بعده وليُثبت بذلك أحقية علي بالخلافة بعد النبي..

بهذا الموقف، يظهر فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ قَبِلَ وصية النبي، رغم عدم امتلاكه مالاً، وعمل بعد ذلك بجد ليقضي ديون النبي، فكان يشتغل بيده، يحفر الآبار، ويغرس النخيل.

أما العباس، ففضّل عدم القيام بهذا العمل؛ لأن قيم الجاهلية كانت تعتبر العمل إهانة، وقد كان بعض العرب يرون أن من يعمل في مهنة ما قد أهان نفسه، ولذلك سُمّيت المهنة بهذا الاسم، وقد علّم النبي صلى الله عليه وآله صحابته وأهل بيته بأن العمل ليس إهانة، بل شرف، فقد رعى الأنبياء قبله الأغنام وزرعوا الأرض، ليكونوا رحماء وصابرين، فالرعي يعلمك الرحمة، والزراعة تعلمك الصبر والمراعاة، وخلال مرض النبي صلى الله عليه وآله، جمع أقاربه وطلب من العباس أن يفي بديونه، لكنّ العباس تراجع، واختار النبي علياً عليه السلام، فوضع خاتم النبوة بيده ليكون هو ولي العهد والخليفة من بعده.

ومع ذلك، خرج العباسيون لاحقاً في ادعاءاتهم بأنهم أولى بالخلافة، قائلين:

"**العم أولى من ابن العم**"، حيث أن هناك فِرَق ظهرت في العصر العباسي تقول ان الخلافة بعد رسول الله للعباس، لأنه وارثُه، كان النبي صلى الله

عليه وآله يعلم بهذه المآلات ولذلك في موارد عديدة يقطع النزاع، ويُتِمُّ الحُجّة بتنصيب عليٍّ عليه السلام، **ونزعَ خاتمَه من يده، وقال له: "خذ فضعه في يدِك".. ودعا بسيفِه ودرعِه، ويُروى أن جبرائيل عليه السلام قد نزل بهذه الأدوات من السماء، فجيءَ بها إلى النبي فدفعهما إلى علي عليه السلام وقال له: "اقبِضْ هذا في حياتي " ودفَعَ إليه بغلَتَه وسرجَها وقال: "امضِ على اسمِ الله إلى منزلك" ثمَّ أُغمي عليه صلى الله عليه وآله**، إلى آخر الرواية...

ومن الطريف أن ابن شهر آشوب بعدما روى هذه القصة أورد روايةً أخرى عزاها إلى "العقد الفريد" لابنِ عبدِ ربّه الأندلسي، لكنّه لم يجدها هناك، ويُحتمل أنها إما سقطت أو حُذفت، والأقرب أنها حُذفت كما اعتادوا التلاعب في المصادر.

إلا أن ابن شهر آشوب يشير إلى أن الأمة بأجمعها قد روت هذه القصة، مشيراً إلى أن هناك روايات عديدة بهذا المعنى من مصادر مختلفة وطرق متنوعة، وتتحدث الرواية التي أوردها ابن شهر آشوب عن منازعة العباس لعلي عليه السلام، إذ نقل عن أبي رافعٍ وغيره **أنّ عليّاً عليه السلام نازعَهُ العبّاس إلى أبي بكرٍ في بُردِ النبي صلى الله عليه وآله وسيفِه وفَرَسِه..**

تعرفون هذه القصة التي ذكرناها كثيراً عن منازعة عليٍّ والعباس، وأنهما جاءا إلى عمر وهو أقرَّ بأنهما رأيا أبابكرٍ آثماً غادراً خائناً كاذباً، ظالماً

فاجراً، وتُعد هذه القصة مشهورة، تدور القصة حول أنّ العباس كان ينازع علياً عليه السلام في ميراث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكان يقول أريدُ سيف النبي ودرعه، بغلة النبي، خاتم النبي، وكل ما يتصل به من صدقاته وفدك وخيبر، وجميع ما ورّثه النبي صلى اللّه عليه وآله لأهل بيته المقربين صلوات اللّه عليه وعليهم، وتُعد هذه الأمانات "**حبوة**" خاصة لا تُقسّم مع بقية الورثة، بل تُعطى للابن الأكبر أو الأقرب مقاماً إلى المتوفى.

وعند العرب، عندما يتوفى الأب تُعطى بعض الأمانات للابن الأكبر مثل الخاتم والرداء والعصا؛ لأن هذا الابن يمثل والده في مقامه. أما بقية الورثة، فإنهم يتقاسمون الممتلكات العامة. في حالة النبي صلى اللّه عليه وآله، كان علي عليه السلام هو الأقرب إليه، والنبي حرص في حياته على أن تكون هذه الأمانات في عهدته، وبعد وفاة النبي، جاء العباس ينازع علياً عليه السلام في هذه الأمانات أمام أبي بكر، ثم تنازعوا أمامَ عمر، وهذا يُظهر أن العباس قد أتى إلى إمام زمانه وحجة اللّه عليه عند الحاكم الظالم في موقفٍ مشابه لما فعله إخوة الإمام الرضا عليه السلام بعد وفاة أبيهم موسى الكاظم عليه السلام، حيث نازعوا الإمام الرضا عليه السلام في الميراث أمام الحاكم العباسي الجائر وكانوا يشتمونه، بينما الإمام الرضا كان يرد عليهم بالصبر ويقول: "قولوا ما شئتُم بالعِرضُ عِرضُكم"، والعباس منهم، لم يحترم انتماءَه إلى آل عبد المطلب، رغم توارثهم النبوّة من إسماعيل عليه السلام بأن النبيّ

هو محمد ووصيُّه عليٌّ عليه السلام، في رؤيا عبد المطلب عليه السلام، ولاميةُ أبي طالب، ويقول أبو رافع، وهو خادم علي عليه السلام، وخادم النبي صلى الله عليه وآله من قبل، يقول: "**إنّ علياً نازعه العباس أمام أبي بكرٍ في بُرد النبي وسيفهِ وفَرَسِه، فسأله أبو بكر قائلاً: "أينَ كنتَ يا عبّاس حينَ جمعَ رسولُ الله بَني عبد المطلب، وأنتَ أحدُهم، وقال "أيُّكم يؤازرني فيكون وصيّي وخليفَتي في أهلي، وينجزُ موعِدي ويقضي دَيني؟** " أنت كنت موجوداً ورفضت، بينما قَبِل علي، فأعطاه النبي هذه الأمانات"، وكان أبو بكر يُرِيد بهذا السؤال أن يُحرج العباس، لكن العباس بمكره رد عليه بطريقة أقوى، **قائلاً: "فما أقعدكَ مجلسكَ هذا، تقدّمتَهُ وتأمّرتَ عليه"**، -أي لمَ أخذتَ مكانَ عليّ بن أبي طالب في الخلافة وخالفت وصية النبي صلى الله عليه وآله-، انتهز العباس هذه الفرصة ليُحرج أبا بكر، **لكن أبا بكر ردّ عليه قائلاً: "أغَدراً يا بَني عبدِ المطّلب؟**".

وهكذا يتضح أن أبا بكر والعباس وغيرهم من المنافقين أهل الدنيا كانوا يتكالبون على الدنيا ويبحثون عن السلطة والجاه، في حين أن النبي وأهل بيته عليهم السلام كانوا أهل السخاء والكرم.

تعلمونَ أنه في ذلك الزمن القريب من عهد الجاهلية، لم يكن الاقتراض بالأمر السهل على النفس... فحتى في هذا العصر، الاقتراض ليس بالأمر السهل ... إذ يعرض الإنسان نفسه للحرج وقد يُواجَهُ بالسخرية والإهانة،

خصوصاً عندما يطالبه الدائنون بالمال ويضغطون عليه. فكيف الحال في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله؟

حيث كان العرب معروفين بخشونتهم وسوء أخلاقهم، وكان الإسلام لم يُهذّب طباعهم بعد، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعرض أحياناً لسوء أدبهم، بسبب اضطراره للاقتراض دون أن يملك المال لسداد ديونه في الوقت الحالي. ففي كتب الحديث والسيرة، ومنها "صحيح البخاري[1]" و"صحيح مسلم[2]" و"ابن حبّان"[3]، ذُكر أن رجلاً أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله، متجاوزاً حدودَ الأدب، وقال له: "**ألا تُنجِزُ لي يا محمّدُ ما وَعَدتَني؟**" فقال له النبي صلى الله عليه وآله: "**أبشِر**"، فردّ الأعرابي بوقاحة قائلاً: "**أكثرتَ عليَّ من أبشِر**"، فأقبلَ رسول الله صلى الله عليه وآله على أبي موسى وبلال، متجهماً وكأنه غاضب، وقال: "**إن هذا قد رد البُشرى**"!

تلك المواقف تُبينّ أن النبي صلى الله عليه وآله كان يتحمل سوء الأدب من الناس ويعرض نفسه للحرج، كلما اضطر للاستدانة من أجل ألا يرد سائلاً أو يُتّهم بالبُخل -وحاشاه من ذلك- ومع كل هذا، لم يغيّره سوءُ الأدب؛ فقد كانت طبيعته سخية، وذلك السخاء بقيَ طبيعَته، فكان يتحمل الديون على عاتقه

[1] برقم ٤٣٢٩

[2] برقم ٢٤٩٧

[3] برقم ٥٥٨

ليُسعِد الناس، وفي خطبةٍ شريفةٍ نادرة، رواها **الكُليني** رحمه الله بسندٍ صحيح[1] عن الإمام الصادق عليه السلام، يصفُ فيها حال النبي والأئمة عليهم السلام وصفاتهم، عن إسحاق بنِ غالب، عن أبي عبدالله عليه السلام في خطبةٍ له خاصّة يذكرُ فيها حال النبي والأئمة عليهم السلام وصِفاتِهم: "**فلَم يمنَع ربُّنا لحلمِه وأناتِه وعطفِه، ما كان من عظيم جُرمهم، وقبيحِ أفعالِهم، أنِ انتجبَ لهم أحبَّ أنبيائِه إليه وأكرمهم عليه**".

ويذكر أن أفعال أهل الجاهلية كانت جريمة عظيمة وقبيحة، لكن ذلك لم يمنع الله سبحانه وتعالى من أن يرسل إليهم أحب أنبيائه وأكرمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

ويضيف الإمام الصادق عليه السلام، مبيناً طهارةَ نسبِ النبي صلى الله عليه وآله، فيقول: "**في حَومَةِ العزِّ مولدُه، وفي دَومَةِ الكرمِ مَحتِدُه، غيرَ مشوبٍ حسَبُه، ولا ممزوجٍ نَسَبُه**".

مشيراً إلى أن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله طاهر، لا يشوبه شيء من أخلاق الجاهلية كالسِّفاح أو الاستلحاق، على خلاف سائر أنساب العرب في ذلك الزمن، ويكمل: "**ولا مجهولٍ عندَ أهلِ العلمِ صفِتُه، بشَّرَت به الأنبياءُ في كتُبِها، ونطَقَت به العلماءُ بنعتِها، وتأمَّلتْهُ الحُكماءُ بوصفِها، مُهذّبٌ لا**

[1] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - الصفحة ٤٤٤

يُدانى، هاشميٌّ لا يُوازى، أبطحيٌّ لا يُسامى؛ شيمَتُه الحياءُ وطبيعَتُه السخاء"!

هذه الطبيعة المحمدية السخيّة بقيت معه، وكان أجودَ الناسِ، في وصف أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: "**أجودُ المستمطَرين ديمةً**"، وهو وصفٌ لطبيعته السخية التي لا تزول عنه ولا تتغير.

الفصل الثاني عشر

النذير الأول.. به اهتدى الأنبياء وصاروا نوابه!

قال الله تعالى في سورة النجم: (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى) [1].

وقد حار المخالفون في تفسير هذه الآية الكريمة، ومما يوضح هذا التحير أو التردد ما ذكره الطبري في تفسيره[2]، حيث قال: "اختلف أهل التأويل في معنى قوله جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وآله: "هَـذَا نَـذِيـرٌ مِـنَ النُّذُرِ الأولَى" ووصفه إياه بأنه من النذر الأولى وهو آخرهم".

فمنشأ الشبهة هنا أو التحير هو أنه كيف يُوصف النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في هذه الآية بأنه "من النذر الأولى" وهو في الواقع آخرهم، آخر النذر وآخر المنذرين، إذ هو خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله.

يقول الطبري: "فقال بعضهم في محاولة حلّ ذلك إن معنى ذلك أنه نذير لقومه، وكانت النذر الذين قبله نذرًا لأقوامهم".

أي إن محمداً صلى الله عليه وآله نذير لقومه من جنس من تقدّم من النذر الأولى لأقوامهم. والمعنى هنا أن الآية تشير إلى أنه نبي من جماعة الأنبياء الذين سبقوه، وأنه على آثارهم وامتداد لهم. وهذا تفسير أورد فيه الطبري قول من قال بذلك: "حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: حدثنا ابن ثور عن معمر

---

[1] النجم: 56

[2] ج٢٢ ص٥

عن قتادة ـ في قوله "هذا نذير من النذر الأولى" قال: أنذر محمد صلى الله عليه وآله كما أنذرت الرسل من قبله".

ورواية أخرى يقول: "حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد عن قتادة في قوله (هَـذَا نَـذِيـرٌ مِـنَ النُّذُرِ الأولَى) إنما بُعث محمد صلى الله عليه وآله بما بُعث به الرسل قبله".. ورواية ثالثة يقول: "حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن يمان عن شريك عن جابر عن أبي جعفر: "هذا نذير من النذر الأولى" قال: هو محمد صلى الله عليه وآله".

وهنا، هذه الرواية الثالثة التي ذكرها الطبري تنتهي إلى الإمام الباقر عليه السلام، حيث وردت عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام. ويقتصر المنقول عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام هنا على تأكيد أن المراد بـ "النذير" هو محمد صلى الله عليه وآله.

أما المعنى الذي قرره الطبري في مفتتح كلامه في تفسير هذه الآية، فلا تحملها الرواية عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام. إذ أن ما قاله الطبري في أن معنى قوله تعالى (هَـذَا نَـذِيـرٌ مِـنَ النُّذُرِ الأولَى) هو: أن هذا نبي من الأنبياء، نذير كالمنذرين الذين سبقوا؛ هذا المعنى غير وارد في حديث الإمام الباقر عليه السلام.

كل ما ورد هو التأكيد على أن المراد بـ "النذير" هو محمد صلى الله عليه وآله.

أما أن يكون المقصود بأنه من أولئك كقولنا "هذا واحد من بني آدم، من الناس، من جنس أولئك"، فهذا غير موجود. هذا هو قول قتادة.

نكمل مع الطبري، إذ يقول: "وقال آخرون، معنى ذلك غير هذا كله" أي هناك معنى آخر.

فما هو ذلك المعنى؟

يقول: "قالوا: "معناه "هذا الذي أنذرتكم به أيها القوم من الوقائع التي ذكرت لكم أني أوقعتها بالأمم قبلكم من النذر التي أنذرتها الأمم قبلكم في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام".

انتبهوا جيداً، البحث في هذا الباب يحتاج إلى تركيز.. **التفسير الأول** يقول: "المراد بـ "النذير" هنا هو رسولنا صلى الله عليه وآله. والزيادة على ذلك، أنه رسول من الرسل، نبي من الأنبياء". وبغض النظر عن الزيادة، المهم أن التفسير ينصب على أن المراد بـ "النذير" هو شخص رسول الله صلى الله عليه وآله..

أما التفسير الثاني فيقول غير ذلك؛ إذ يرى المراد هنا هو "الخبر" الذي ينذر الله به خلقه. بمعنى أن الله يقول: "أحذركم، وهذا التحذير مشابه لتحذير النذر الأولى التي جاءت في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام".

بمعنى أن "هذا الذي أنذرتكم به يا أيها القوم من الوقائع التي ذكرت لكم أني أوقعتها بالأمم قبلكم، من النذر التي أنذرتها الأمم قبلكم في صحف إبراهيم وموسى، هذا الذي أذكره لكم الآن قد ذكرته من قبل"..

أي أنه من النذر الأولى، فالإنذار نفسه، الخبر نفسه هو المقصود.

يقول الطبري: "ذكر من قال ذلك"، وذكر الرواية التالية: "حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مهران عن سفيان، عن إسماعيل، عن أبي مالك في قوله (هَـٰذَا نَـذِيـرٌ مِـنَ النُّذُرِ الأُولَى) ، قال: مما أنذر به قومهم في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام".

إذن، هناك قولان أو تفسيران أو تأويلان؛ إلى أيهما يميل الطبري؟

هل يميل إلى أن المراد بـ "النذير" هو محمد صلى الله عليه وآله، أم أن المراد هو الخبر الذي ينذر الله عز وجل به خلقه، كما يقول أبو مالك؟ يميل الطبري إلى الرأي الثاني؛ إذ يقول: "وهذا الذي ذكرت عن أبي مالك أشبه بتأويل الآية"، ويكاد يكون هذا القول هو المعتمد عند أعلام أهل الخلاف.

وحاصل هذا الرأي أنهم ذهبوا إلى تفسير "النذير" بمعنى الخبر لا المخبر؛ الخبر الذي تضمن الإنذار، أي بالمصدر لا بالصفة.

فإذا قلنا "نذير" كصفة، نكون قد وصفنا شخصًا "منذرًا"، أي أنه يحمل صفة "نذير". أما إذا اعتبرناه مصدرًا، فينصب المعنى إذاً على الخبر؛ على"الإنذار" نفسه وليس على الشخص المنذر.

وهذا ما ذهب إليه الرأي الذي يفسر قوله تعالى: (هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى)..

على أنه "الخبر الذي يحمل الإنذار"، لا "الشخص المنذر".

ولكن هذا التفسير يقتضي العدول عن الحقيقة إلى المجاز، وعن الأخذ بمشهور أهل اللغة إلى الأخذ بأقوال شاذة في اللغة.

وإلى ذلك تنبأ ابن عاشور إلى هذا في تفسيره "التحرير والتنوير". ولكن قبل ذلك، لنوضح الفرق بين الحقيقة والمجاز، نذكر ما يلي: حين نقول "هذا أسد"، فإن قصدنا الحقيقة، يكون المراد هو الحيوان المعروف.

أما إذا قلنا "هذا أسد" ونقصد به إنسانًا يشبه الأسد في الشجاعة والبأس، فإن ذلك يكون مجازًا.

نأتي الآن إلى كلمة "النذير"، فمتى تُطلق على الحقيقة، ومتى تُطلق على المجاز؟

في أصل اللغة، هل تطلق "النذير" على المنذِر (الشخص الذي ينذر) أم على المُنذَر به؟

بمعنى آخر، هل تأخذ "النذير" بمعنى "المنذِر" حقيقةً، أم تأخذ معنى "الإنذار" حقيقةً؟

اتفق أهل اللغة، إلا من شذّ منهم، على أن "النذير" صفة لموصوف على الحقيقة، أي أن "النذير" بمعنى "المنذِر" هو الحقيقة. فإذا أطلقت "النذير" على الإنذار نفسه، كان ذلك مجازًا، وهذا هو مشهور أهل اللغة.

يقول ابن عاشور[1]: "والنذير حقيقته المخبر عن وقوع حدثٍ مضرٍّ بالمخبَر"..

هذه هي حقيقة "النذير" كما تُطلق في اللغة؛ إذ يُستخدم هذا الاسم للإشارة إلى المخُبِر، أي الشخص الذي يخبر عن وقوع حدث مضرٍّ بالمخبَر.

فعندما يأتي شخص إلى آخر ويقول له "أُنذرك بخبر معين"، فإن معنى ذلك أنه يحذّره من خبر قد يضرّه، ويأتيه بخبر يتضمن حدثًا ضارًا. يقول ابن عاشور "هذا هو الأشهر فيه، ولذلك جعله ابن جريج وجمع من المفسرين

[1] في كتاب تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير ج٢٧ ص١٥٧

الإشارة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله". أي أن المراد بقوله تعالى هو شخص الرسول صلى الله عليه وآله.

لكن ابن عاشور لا يأخذ بهذا القول ويقول: "وهو بعيدٌ لا قريبٌ نأخذ به".

رغم كونه الموافق لأصول اللغة، ورغم أنه مروي عن إمام من أئمة أهل البيت الطاهرين عليهم السلام، وهو الإمام الباقر عليه السلام، برواية أهل الخلاف.

والسؤال هنا هو: لماذا لا يُؤخذ بهذا القول؟

السبب يعود إلى أن هؤلاء يميلون إلى التفسير الثاني، وهو أن "النذير" بمعنى الإنذار ذاته أو الخبر، وليس الشخص المنذِر. يضيف ابن عاشور: "يُطلق "النذير" على الإنذار، وهو خبر المخبِر، على طريقة المجاز العقلي".

هذا اعتراف بأن صرف معنى "النذير" ليكون بمعنى "الخبر" أو "الإنذار" نفسه يعدُّ من المجاز العقلي، وليس من الحقيقة، وهذا الاستخدام أيضًا شاذ في اللغة.

فالمشهور بين أهل اللغة أنهم يرون خلاف ذلك، إلا أن هناك من شذ عن هذا الرأي، ومنهم - بحسب نقل ابن عاشور - أبو القاسم الزجاجي.

يقول ابن عاشور[1] : "قال أبو القاسم الزجاجي: "إن النذير" يُطلق على "الإنذار" ويعتبر اسم مصدر، ومنه قوله تعالى: "فستعلمون كيف نذير"، أي إنذاري، وجمعه "نذر" أيضاً".

وكان المقصود من قوله تعالى هو: "ستعلمون كيف يكون إنذاري هذا"..

يقول: "ومنه قوله تعالى: "كذبت ثمود بالنذر"، أي بالمنذرين. وإطلاق "نذير" على ما هو كلام، وهو القرآن أو بعض آياته، مجاز عقلي أو استعارة، على رأي جمهور أهل اللغة".

ويقول جمهور أهل اللغة إنه إذا قيل إن "النذير" بمعنى "الخبر" أو "الإنذار" لا المخُبِر – أي القرآن وليس النبي محمد صلى اللّه عليه وآله – فإن هذا يكون مجازًا عقليًا أو استعارة، وليس حقيقة.

الوحيد الذي قال بالحقيقة هو الزجاجي[2]. ربما جاء رأيه هذا من مخالطته لأهل الشام، إذ كان يدرّس النحو واللغة هناك في جامع بني أمية في الشام. إذ انفرد بقوله إن "النذير" هو اسم مصدر للخبر، للإنذار، وذهب إلى أنه حقيقة

[1] كسابقه، ص١٥٨

[2] أبو القاسم الزجاجي (المتوفى سنة 340 هـ/952 م تقريباً) هو نحوي وعالم لغة بارز من القرن الرابع الهجري، اشتهر بتعمقه في علوم النحو واللغة العربية. اسمه الحقيقي أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، ولقب بـ"الزجاجي" نسبةً إلى أستاذه الزجاج، أحد أعلام النحو في زمانه.. وعرف عنه أنه كان متشيعا..

وليس مجازًا. ردُّنا على ما حكاه ابن عاشور عن الزجاجي هو أن الآية الأولى، أي قوله تعالى: "فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ"..

هذه لا تأبى أن تحمل معنى الوصف أو معنى المنذِر.

بمعنى آخر، يمكن تفسيرها بأن المراد هو المنذِر، خصوصًا إذا لاحظنا سياقها؛ إذ يقول الله تعالى: (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)[١].

فلنتأمل في الآية: هل تأمنون من في السماء أن يرسل عليكم حاصبًا؟ فإن أرسل عليكم هذا العذاب، ستعلمون أيّ نذير هو.

أليس هذا وصفًا لموصوف؟ أليس هذا النذير حقيقةً، وليس مجازًا؟

وهو هنا مخبِر عن أمر مخيف، ينذرهم من وقوع عذاب محتمل. وحيث أن الله عز وجل حين يُنذر فإنما يُنذر عبر أنبيائه، وهذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو النذير المنذِر عن الله جل وعلا.

فيمكننا إذًا القول بأن المراد هو "فستعلمون كيف نذير"، أي فستعلمون كيف كان محمد صلى الله عليه وآله نذيرًا صادقًا، وقد صدق الله تعالى في إنذاره

---

١ المُلك: 17

إليكم. هذا الأمر ذكره القرطبي في تفسيره[1]، إذ قال: "فستعلمون كيف نذير، أي إنذاري".

مشيرًا إلى معنى الخبر لا المخُبِر، وقيل:" "النذير" بمعنى "المنذِر"، أي محمد صلى الله عليه وآله، فستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبه"؛ فقد أورد هذا المعنى الذي نذهب إليه هنا.

وهنا لا يفوتنا أيها الإخوة، أن نشير إلى أن البلية ليست فقط في تفسير مفسريهم، بل كذلك في تفسير بعض مفسرينا، مع الأسف.

فأشهر تفسير معاصر عندنا هو تفسير "الميزان" وهو "الاختلال" لصاحبه الطباطبائي، والذي نسميه "صاحب الاختلال" بدلاً من "صاحب الميزان"..

لأننا نرى أن تفسيره مختل، ولا نطلق هذه الكلمة جزافًا، بل عن برهان. وإليكم أحد هذه البراهين: انظروا ماذا قال في تفسير قوله تعالى "فستعلمون كيف نذير"[2]، حيث يسيء الأدب في قوله، إذ يقول: "النذير" مصدر بمعنى الإنذار، والجملة متفرعة على ما يُفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى وأمنهم من عذابه، والمعنى ظاهر".

[1] تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج١٨ ص٢١٧

[2] تفسير الميزان - الطباطبائي - ج ١٩ - الصفحة ٣٥٨

فإذن ذكر المعنى وثبت هذا المعنى، أن "النذير" بمعنى الإنذار لا بمعنى "النذير" أي "المنذر" وهو نبينا صلى الله عليه وآله.

أشار إلى هذا المعنى الثاني الذي نذهب إليه على نحو قول آخر، فقال: "وقيل 'النذير' صفة بمعنى المنذر، والمراد النبي صلى الله عليه وآله". لكنه أضاف قائلاً، وهو يعترض على هذا الرأي: "وهو سخيف"!

أي يعتبر القول بأن "النذير" هو نبينا صلى الله عليه وآله قولاً سخيفًا، وفي ذلك سوء أدب. وجدير بالذكر أيضًا أنه قد أخطأ في قوله إن "النذير" مصدر. لاحظوا كيف بدأ بقوله إن "النذير" مصدر بمعنى الإنذار، لكن الحقيقة، كما مرَّ بنا، أنه إذا ذهبت إلى أن "النذير" حقيقته في الخبر أو في الإنذار، فيلزمك القول بأن "النذير" هو اسم مصدر لا مصدر.

وذلك لأن الفرق بين المصدر واسم المصدر يكمن في أن المصدر يحتوي على حروف فعله بالأصل، بينما اسم المصدر هو ما نقص عن حروف فعله الأصلية وكان هيئة حاصلة بسبب ذلك الفعل.

لنوضح المسألة أكثر: الفعل الذي اشتُقّت منه هذه الكلمة ما هو؟ "أنذر". نعم، هذا هو الفعل. حسنًا، ما هو المصدر منه؟ المصدر في اللغة هو "إنذار"؛ لأن كلمة "إنذار" مشتملة على كل حروف الفعل "أنذر" وهي الألف والنون والذال والراء. أما "نذير"، فليس مصدرًا، بل هو اسم مصدر، لأنه لا يشتمل على كل

حروف الفعل، حيث ينقصه حرف الألف. لذا، "نذير" هو اسم مصدر للفعل "أنذر"، بينما "إنذار" هو المصدر له.

نأخذ مثالاً آخر لتوضيح المسألة: الفعل "أعطى". مصدره في اللغة "إعطاء" لأنه مشتمل على حروف الفعل كلها.

أما اسم المصدر له فهو "عطاء"، حيث حذفنا الألف فصار اسم مصدر. فصاحب الاختلال أخطأ عندما قال إن "النذير" هو مصدر بمعنى الإنذار ليس، بل "النذير" اسم مصدر بمعنى "الإنذار".

هذا إن صحّ اعتبار "النذير" حقيقة في معنى الإنذار أو الخبر لا المخُبِر أو المنذر. ولكن كيف يمكن تصحيح هذا القول وهو في الأصل غير صحيح؟ إذ إن اعتبار كلمة "النذير" بمعنى "الإنذار" حقيقة يعدّ شاذًّا في اللغة؛ فجمهور أهل اللغة يرون أنه مجاز.

أما على الحقيقة، فالمعنى هو "المنذر"، كقوله تعالى: "هذا نذير من النذر الأولى"، أي أن هذا الذي ينذركم هو نذير، ونبينا صلى الله عليه وآله بشير ونذير، والأنبياء مبشرون ومنذرون.

لكن ماذا عسانا أن نفعل وهذه بلية عظيمة في علم التفسير! يمكنك القول إنها بلية عظيمة جدًّا، لأن في كتب التفسير الكثير من الإسرائيليات والتخبط

والإعراض عن روايات العترة الطاهرة عليهم السلام. وليست هذه المشكلة خاصة بكتبهم فقط. فليس عجبًا أن نجد الطبري مثلاً يورد أقوالاً وينقل عن تفسير الإمام الباقر عليه السلام ثم يُهمِلها ويضعها جانبًا لكونها مخالفة، وليس لأنه شيعيًا.

أما السيد محمد حسين الطباطبائي، وهو من علمائنا ومنتسب إلينا، فيتجاهل روايات أهل البيت وتفسيرهم بل ويسخّفها، فيقول: "**وهو سخيف**". فما الذي يمكن فعله إزاء هذا الأمر؟

هذا من أهل العالم الرابع[1]، بالمناسبة، فهو هذا الطباطبائي صاحب "الاختلال"، ونسميه بهذا الاسم بدلاً من "صاحب الميزان"، لأننا نرى في تفسيره انحرافات.

وإذا أخذنا الآية التالية، فإن بعضهم قد يصرّ على أن معنى قوله تعالى: "فكيف كان نذير" هو الإنذار، مستدلاً بما جاء بعدها: "ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير"، ويقول إن المعنى ظاهر، فـ"نكير" هنا تدل على إنكار

[1] و هم أؤلئك الذين بالفعل يعتقدون بخلاف الحق ويريدون تحريف مسيرة العقيدة والأمة الشيعية، وهم أحط الفئات، فتراهم يخلطون العقيدة الشيعية بأفكار وعقائد وفلسفة مستوردة من الأديان والمذاهب الأخرى ويريدون أن يكوّنوا تشيّعًا جديدًا، مثل الهالك محمد حسين فضل الله، ومثل اللبناني علي الأمين، وهم خارج التشيّع مطلقًا إذ هم بتريون أو ميّالون للفلسفة المحرّمة أو العرفان الباطل.

الله عليهم، وليس النكير هنا هو النبي صلى الله عليه وآله، أو الله تعالى ذاته.

لكننا نقول: أولاً، هذا لا يضرّنا، حتى وإن كانت الآية الثانية كما يقولون؛ إذ يمكن للآية الأولى أن تحمل معنى، والآية الثانية تحمل معنى آخر، ولا عجب ولا بدعة في هذا، إذ يأتي ذلك من بلاغة وفصاحة القرآن ومراعاة خواتيم الآيات.

فليس شرطًا أن يكون معنى "النذير" هو ذاته معنى "النكير"، فيمكن الفصل بينهما دون ضرر. علاوة على ذلك، من الممكن أن يكون المراد بـ"النكير" هو الله تعالى أو نبيه صلى الله عليه وآله، و يكون المعنى: فكيف كان الله من نكير، أو أي نكير كان، حين ينزل بأسه وعذابه وإنكاره على أحد.

أياً يكن، نحن أمام معانٍ سامية تتضاءل أمامها عقولنا وتصوراتنا. فما جاء عن العترة الطاهرة عليهم السلام ينبغي التسليم له، فهم من نزل القرآن في عليهم، وهم أدرى بتفسيره. والإعراض عن تفسير العترة الطاهرة عليهم السلام يعدّ انحرافًا حقيقيًا. وهذا هو الغريب من صاحب "الاختلال"، أنه في موارد عديدة يفسر القرآن بنحوٍ يعرض فيه تمام الإعراض عن الروايات والأحاديث التفسيرية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، بل ويجعل من بعض التفاسير سخرية في بعض الأحيان.

فما ورد في تفسير أهل البيت في قوله تعالى "هذا نذير من النذر الأولى" لم يشر إليه صاحب الاختلال لا من قريب ولا من بعيد، في حين أن تفسير أهل البيت وارد بوضوح؛ إذ روى شيخ الطائفة الطوسي، رحمه الله، في أماليه[1]: عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: "**ما بعث الله نبياً أكرم من محمد صلى الله عليه وآله، ولا خلق الله قبله أحداً، ولا أنذر الله خلقه بأحد من خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله، فذلك قوله تعالى هذا نذير من النذر الأولى**".

فمضمون هذا الحديث هو أن "النذير" في قوله تعالى "هذا نذير من النذر الأولى" هو شخص النبي صلى الله عليه وآله، وهذا موافق للحقيقة في اللغة، والرواية فيه مشهورة عندنا وعند مخالفينا، عن أعلام وأئمة العترة الطاهرة عليهم السلام.

فلماذا لا نأخذ بالمعنى الظاهر؟

لماذا نميل إلى تفسير الآية على المجاز بلا قرينة؟

فالأصل هو الأخذ بالحقيقة ما لم توجد قرينة تصرف عنها. وأين أنت، يا صاحب "الاختلال"، من هذه الأحاديث؟ هو يعلم بها لكنه لا يأخذ بها، وهذا

---

[1] الأمالي - الشيخ الطوسي - الصفحة ٦٦٩

أصل خلافنا معه ومع كل من يسير على منهجه، إذ كيف يجوز لأحدٍ، معاذ اللّه، أن يترك تفاسير آل محمد عليهم السلام أو يسخفها، أو يضعفها أو يهملها جانبًا ويأخذ بتفسيراته العقلية وحدها؟!

هل يتصور أن عقله هو الأقدر على الوصول إلى التفسير الأدق والأصوب؟

هذه جريمة في حق كتاب اللّه عز وجل! من نصّبك حتى تفسر كتاب اللّه وحدك؟

ألم يقل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: "**تركت فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي**"[١]؟

لم يترك لنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم تفسيرًا بغير هذا، فهل نأخذ بتفسير الطبري أو الآلوسي أو ابن كثير أو الطباطبائي ونترك العترة الطاهرة؟

إن تفسير القرآن الكريم وتأويله الحق لا يُؤخذ إلا عن أئمة أهل البيت النبوي، فإذا سكتت العترة عليهم السلام عن تفسير آية ما، فليس لنا أن نؤولها أو نضع لها تفسيرًا من عندنا، بل يجب التوقف عنها وعدم الخوض في تأويلها. إن التفسير الذي يأتينا عن أهل البيت عليهم السلام ولا نأخذ به،

---

١ الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - الصفحة ٢٩٤

ونستبدله بتفسيرٍ آخر أقرب إلى أهل الخلاف، هو انحراف بيّن. وهل نقبل أن نتوافق مع تفسير الطبري أو ابن عاشور على حساب تفسير الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام؟

هذا هو تفسير الإمام الصادق عليه السلام لقوله تعالى: "هذا نذير من النذر الأولى"، حيث قال: "ما بعث اللّه نبيًا أكرم من محمد صلى اللّه عليه وآله، ولا خلق اللّه قبله أحدًا، ولا أنذر اللّه خلقه بأحدٍ من خلقه قبل محمد صلى اللّه عليه وآله، فذلك قوله تعالى: هذا نذير من النذر الأولى".

وقال في تفسير الآية[1]: "إنما أنت منذر ولكل قوم هاد" **فلم يكن قبله مطاع في الخلق.. أي قبل نبينا صلى الله عليه وآله "ولا يكون بعده إلى أن تقوم الساعة، في كل قرن، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها"**.

أيها الإخوة الكرام، إن هذا الخبر العظيم هو مما حير العقول وسيظل يحيرها، وقد اعترف بذلك أحد عظماء العلماء في عصره، العلامة المجلسي رضوان اللّه تعالى عليه، الذي كان خبيرًا في معاني الأحاديث والروايات الشريفة، وعالمًا بارزًا في هذا المجال. فقد قال هذا العالم الجليل: "**لقد طاش عقلي من هذا الخبر**.. إنه خبر محيّر. وقد علّق المجلسي على هذه الرواية في "بحار الأنوار"، حيث طرح احتمالات متعددة لمعانيها وقدم حلولاً لفك ألغازها،

[1] الأمالي للطوسي الجزء١ الصفحة٦٦٩

قبل أن يختم كلامه بقوله[1]: "هذا ما خطر بالبال في حل هذا الخبر الذي حير الأفهام، والله يعلم أسرار أئمة الأنام" صلوات الله عليهم.

لكن لماذا هذا الخبر محير؟ لماذا يُحير العقول الكبيرة؟ لنتأمل عباراته. أولاً، نجد العبارة الأولى واضحة وسهلة الفهم: "ما بعث الله نبيًا أكرم من محمد صلى الله عليه وآله". ثم نأتي إلى العبارة الثانية: "ولا خلق الله قبله أحدًا".

هذه العبارة قد يصعب فهمها عند البعض، لأنها قد تُثير التساؤل: كيف لم يخلق الله أحدًا قبل نبينا صلى الله عليه وآله؟ فالخلق كان موجودًا منذ زمن آدم عليه السلام، أي قبل بعثته في الدنيا.

غير أن المقصود هنا هو الإشارة إلى عوالم سابقة، كعالم الذر وعالم الأنوار. فالاعتقاد بوجود نور نبينا صلى الله عليه وآله كأول مخلوق هو أمر وارد في الروايات، حتى في بعض روايات مخالفي المذهب. وقد جاء في حديث أن جابر بن عبد الله الأنصاري سأل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قائلاً: "**ما أول ما خلق الله؟**" **فأجابه: "نور نبيك يا جابر"**[2]. وعليه، يمكننا فهم العبارة الصادقية: "ولا خلق الله قبله أحدًا" على هذا النحو. أما العبارة الثالثة: "ولا أنذر الله خلقه بأحد من خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله"، فهي تثير

---

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٦ - الصفحة ٣٧٢

[2] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٥ - الصفحة ٢٤

تساؤلات، إذ يُفهم منها أن اللّه لم ينذر الخلق بأحد من خلقه قبل النبي صلى اللّه عليه وآله، مع أن كثيرين ممن سبقوه من الأنبياء والرسل وكذلك الملائكة قد أنذروا الناس وبلّغوا رسالات اللّه.

فكيف، إذن، يُقال إنه لم يُنذِر أحدًا قبل محمد صلى اللّه عليه وآله؟

وهذا هو معنى الآية الكريمة: "هذا نذير من النذر الأولى".

فعندما نزلت هذه الآية، كان نبينا صلى اللّه عليه وآله قد خُتمت به الرسالة، فهو نبي آخر الزمان، ولكن كيف كان من "النذر الأولى"؟

هنا يبرز سؤال آخر: هل كانت نبوته صلى اللّه عليه وآله قبل ميلاده في هذه الدنيا؟ وهل مارس وظيفة الإنذار قبل ظهوره في هذه الحياة الدنيا؟ أم أن للآية معنى آخر، وهو أنه بذاته صلى اللّه عليه وآله كان نذيرًا من "النذر الأولى"!

أي أن الأنبياء السابقين قد أنذروا به وذكروه في رسالاتهم؟

يزيدنا حيرةً قول الإمام عليه السلام في تفسير قوله تعالى: "إنما أنت منذر ولكل قوم هاد". ثم قال: "**فلم يكن قبله مطاع في الخلق**". ولكن كيف يمكننا فهم هذا القول في ظل وجود الأنبياء الذين أرسلهم اللّه عز وجل قبل نبينا صلى اللّه عليه وآله، والذين أُمر الناس بطاعتهم؟ فكل نبي أُمر قومه

بطاعته، فكيف إذًا لم يكن قبل نبينا مطاع في الخلق؟ والأعجب من ذلك قوله عليه السلام: "**ولا يكون بعده مطاع إلى أن تقوم الساعة، في كل قرن**".

إذن، ماذا بشأن الأئمة الذين نصبهم الله عز وجل حججًا علينا، بدءًا من أمير المؤمنين علي عليه السلام وختامًا بالإمام المهدي عليه السلام؟ ألم يأمرنا الله عز وجل بطاعتهم بعد نبينا صلى الله عليه وآله؟

فكيف يُفهم قول الإمام: "**ولا يكون بعده مطاع إلى أن تقوم الساعة في كل قرن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها**"؟

فهذا الحديث، كما قال العلامة المجلسي رحمه الله، يحير الأفهام، ولا نقصد أي أفهام، بل عقول أناس بمستوى العلامة المجلسي رضوان الله عليه.

وقد طرح العلامة المجلسي رحمه الله بعض الحلول لفهم هذا القول، وسنستعرض بعضها بإيجاز لنوضح الأمر: الحل الأول؛

يقول إن المقصود من قوله عليه السلام: "ولا أنذر الله خلقه بأحد من خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله"، هو أن محمدًا صلى الله عليه وآله هو جزء من سلسلة النُذُر السابقة، وإنذاره ليس مقتصرًا على هذا الزمان. أي أن الله تعالى، عندما أنذر بمحمد صلى الله عليه وآله، كان محمد هو أساس هذا الإنذار، وهذا الإنذار ليس محدودًا بزمانه أو بالزمن الذي بُعِث فيه رسول

الله صلى الله عليه وآله، بل سبق هذا الإنذار إلى الأمم السابقة، وذلك على ألسنة الأنبياء السابقين وفي الكتب السماوية السابقة، فهو إذن إنذار قديم. هذا هو الحل الأول.

أما الحل الثاني؛

فيفيد بأن المقصود من العبارة "ولا أنذر الله خلقه بأحد من خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله" هو أن محمداً صلى الله عليه وآله منذر للنذر الأولى في عالم الذر، باعتباره كلمة من تلك النذر الأولى. فهو إذن نذير بمعنى أنه منذر للنذر الأولى في عالم الذر، وكلمة "من" للتعليل، كما في قوله تعالى: "مما خطيئاتهم أغرقوا"، أي لأجل خطاياهم أغرقوا، وأيضًا بمعنى "على" كما في قوله تعالى: "ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا"، حيث تعني "ونصرناه على القوم الذين كذبوا بآياتنا". فإذاً، يمكن القول عندما يقول الله تعالى: "هذا نذير من النذر الأولى"، أن "من" يمكن أن تكون بمعنى التعليل، فنقول: هذا نذير علته أو سببه هو النذر الأولى..

والنذر الأولى كانت في شأن هذا النبي صلى الله عليه وآله، وكان هو من تلك النذر الأولى تعليلاً، فهو إذن منذر قديم في عالم الذر. أو قد تكون "من" بمعنى "على"، أي أنه منذر على النذر الأولى. ولعل مقصود كلام العلامة المجلسي هنا متعلق بخصوص قوله عليه السلام: "ولا أنذر الله خلقه بأحد

من خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله"، حيث أن "من" هنا إما بمعنى "لأجل" تعليلاً، أو بمعنى "على".

دعونا نعيد تركيب العبارة لتكون كالتالي: "ولا أنذر الله خلقه بأحد لأجل خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله"، وفي الوجه الثاني تكون: "ولا أنذر الله خلقه بأحد على خلقه"، أي جعل المُنذِر أو المُنذَر به الخبر على أحد هو على خلق قبل محمد صلى الله عليه وآله. هذا هو الحل الثاني..

وإلى هذين الحلين ذهب العلامة المجلسي، محتملاً في تفسير قوله عليه السلام: **"ولا أنذر الله خلقه بأحد من خلقه قبل محمد صلى الله عليه وآله"**. أما فيما يتعلق بقوله عليه السلام: **"فلم يكن قبله مطاعٌ في الخلق ولا يكون بعده إلى أن تقوم الساعة"**، أيضاً يطرح العلاّمة حلين:

الحل الأول يُعبّر عن معنى عميق يهزّ الوجدان، ويقول إن المقصود هو أن النبي صلى الله عليه وآله كان هاديًا للأنبياء وأممهم جميعًا. فإذا كانت الأنبياء تهدي أممها، فإن من هدى الأنبياء هو نبينا صلى الله عليه وآله.

أما الحل الثاني، فهو أعمق تأثيرًا، وقد يبعث في النفس شعورًا بالقشعريرة من عظمة المعنى المقصود. هذا الحل يقول إن الإنذار محصور في النبي صلى الله عليه وآله، بمعنى أنه لم يكن من أنذر قبله منذرًا على الحقيقة؛ فكل الذين أنذروا قبله لم يكونوا منذرين حقيقة. ويفسّر هذا الحل بأن الإنذار

محصور في النبي صلى الله عليه وآله؛ فلم يكن من أنذر قبله منذرًا حقيقةً، وإنما كان المنذر المطاع على الإطلاق هو النبي صلى الله عليه وآله، كما يدل على ذلك آخر الحديث.

وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله، بما أنه منذر للنذر، فهو المنذر للجميع حقيقةً، وأما الأنبياء قبله، فقد كانوا نوابه في الإنذار.

وكذلك الأوصياء من بعده، فهم أيضًا نوابه، ويعني هذا أنه لا منذر على الحقيقة سوى النبي صلى الله عليه وآله، أما غيره من الأنبياء والأوصياء، فهم هادون من قبله. حصر الإنذار في النبي صلى الله عليه وآله يعني أن كل من أنذر قبله، من الأنبياء العظام مثل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، ليسوا منذرين حقيقةً.

فهؤلاء الأنبياء العظام وكذلك الأوصياء من بعدهم، رغم كونهم مرسلين منذرين، فإنهم في الحقيقة ليسوا منذرين حقيقةً. لماذا؟

لأن النبي صلى الله عليه وآله هو المنذر المطاع على الإطلاق، فهو النذير من النذر الأولى.

حيث يمكن تفسير كلمة "النذر" هنا بأنها جمع "نذير"، بمعنى "المنذرين" أي الأنبياء، وأن النبي صلى الله عليه وآله تقدم عليهم وأنذرهم، فاهتدوا به في

تلك العوالم السابقة، كعالم الأنوار أو عالم الذر. فهو إذن هادي الأنبياء وأممهم، فالإنذار الذي صدر من أولئك الأنبياء، وتعليمهم وهدايتهم لأقوامهم، يرجع في الحقيقة إلى إنذار النبي صلى الله عليه وآله إياهم. وبما أن النبي صلى الله عليه وآله هو منذر للنذر، أي منذر للأنبياء، فهو المنذر للجميع على الحقيقة؛ لأن جميع الأنبياء في طوله وليسوا في عرضه، فهم امتداد له في الحقيقة، وإنما كانوا نوابه في الإنذار.

فآدم نائب لمحمد، وإدريس نائب لمحمد، وهود نائب لمحمد، ونوح نائب لمحمد، وإبراهيم نائب لمحمد، وموسى نائب لمحمد، وعيسى نائب لمحمد، وكل الأنبياء، وعددهم 124 ألف نبي، كلهم نواب عن محمد صلى الله عليه وآله في الإنذار.

كما أن الأوصياء من بعده كذلك نوابه؛ فعليٌّ نائبه، والحسن نائبه، والحسين نائبه، وهكذا إلى الإمام المهديّ عليه السلام، فهو نائبه. أي ليس المنذر إلا النبي صلى الله عليه وآله، وأما غيره فهم هادون من قبله.

بمعنى آخر؛ هناك أنبياء، وهناك نبي الأنبياء؛ الأنبياء من البشر اهتدى بهم الناس، ولكن من اهتدى الأنبياء؟ اهتدوا بأبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله. وكذلك هناك أئمة، ولكن من إمام الأئمة؟ إنه أبو القاسم محمد صلى الله عليه وآله، "هذا نذير من النذر الأولى". والله، ما من أحد من الخلق

تتحير فيه العقول والأفهام كأبي القاسم صلى اللّه عليه وآله. ومع جميع هذه الحلول التي طرحها العلامة المجلسي وغيره، ومع كل الفروض والاحتمالات، ومع إقرارنا بالعجز عن إحصاء ثنائه صلى اللّه عليه وآله، وبلوغ كُنهه ووصف قدره صلى اللّه عليه وآله، فإننا نقول بموالاتنا: "**لا أحصي ثناءكم، ولا أبلغ من المدح كُنهكم، ولا من الوصف قدركم، وأنتم نور الأخيار**"[1].

نقرُّ بهذا العجز، وبأننا مهما فكرنا أو اجتمعت عقولنا أو اجتهدنا وتدبرنا، لن نبلغ ثناء محمد صلى اللّه عليه وآله، ولا كُنهه، ولا حقيقته، فلا يعرفه إلا اللّه وعليٌّ عليه السلام.

ومع هذا الإقرار منا والاعتراف بالقصور والعجز، ومع هذه الاحتمالات والفروض المطروحة، فإننا نؤمن إيمانًا راسخًا بأنه صلى اللّه عليه وآله هو المبعوث لجميع الخلق، بمن فيهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وأنه الهادي الأول والنذير الأول؛ حيث أقام اللّه الخلق جميعًا، بمن فيهم الأنبياء والأوصياء، صفوفًا ماثلين بين يديه.

هذا القَدر نفهمه جيدًا ونؤمن به إيمانًا راسخًا، أما ما عدا ذلك مما هو فوق طور عقولنا فلا ندريه، وأما هذا فنؤمن به. وإليك هذا الحديث الشريف

[1] كما في الزيارة الجامعة المروية عن مولانا أبي محمد الهادي عليه السلام؛ عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ١ - الصفحة ٣٠٨

الذي ينبئك عن هذه الحقيقة، فقد رواه القمي رحمه الله في تفسيره الشريف[1] عن علي بن معمر، عن أبيه، قال: "**سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: "هذا نذير من النذر الأولى"، فقال عليه السلام: "إن الله تعالى لما ذرأ الخلق إلى الذر الأول في عالم الذر، فأقامهم صفوفًا، وبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله فآمن به قوم، وأنكره قوم، فقال الله عز وجل: "هذا نذير من النذر الأولى" يعني به محمداً صلى الله عليه وآله، حيث دعاهم إلى الله عز وجل في الذر الأول**".

هذا هو عنوان كتابنا: **محمد صلى الله عليه وآله، كأن لم تعرفه من قبل.**

هذه الأمة لم تعرف نبيها المبعوث حق المعرفة، فهو الذي بعثه الله في الذر الأول للخلائق أجمعين، بمن فيهم الأنبياء؛ كلهم وقفوا صفوفًا، فتصوّر المنظر: صفوف، الخلائق جميعهم صفوفًا، ويخرج عليهم نور محمد صلى الله عليه وآله مبعوثًا لهم، يدعوهم إلى الإيمان به.

"هذا نذير من النذر الأولى"، كان ينذرهم منذ ذلك الزمان، فهو نذير من النذر الأولى. أين تتصور وجود النبي محمد صلى الله عليه وآله؟ هل كان فقط في عصرنا قبل 1400 سنة، حين بدأت دعوته؟ بل الأمر أعمق من ذلك، فقد أقام الله الخلق صفوفًا بين يديه، وبعثه إليهم في عالم الذر، وكان أول ما

[1] تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ٢ - الصفحة ٣٤٠

خلق الله. فآمن به قوم وأنكره قوم، ومن الذين سبقوا إلى الإيمان به الأنبياء، وبسبب إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وآله قبل غيرهم، جعلهم الله أنبياءه، وجعله سيدًا على أنبيائه، مطاعًا فيهم، هاديًا لهم، نذيرًا لهم ولأقوامهم، فهو المعلم الأكبر للخلق أجمعين.

يقول علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن قول الله تعالى في سورة آل عمران: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)[1].

أن هذا الخطاب موجه من الله لأنبيائه؛ إذ ألزمهم بالإيمان بهذا الرسول المصدق لما معهم، وفرض عليهم كذلك نصرته. وهذا سرّ عظيم؛ إذ كيف يمكن للأنبياء أن ينصروا محمدًا صلى الله عليه وآله رغم عدم إدراكهم له؟

المهم أن هذا أمر الله لهم، إذ قال لهم: أنتم يا أنبيائي، واجب عليكم الإيمان بهذا الرسول، وواجب عليكم نصرته.

ثم قال لهم: "أَأَقْـرَرْتُـمْ وَأَخَـذْتُـمْ عَلَىٰ ذَٰلِـكُمْ إِصْرِي".. أي عهدي وميثاقي، فقالوا: أقررنا. فقال: "فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ"، وشهدت الملائكة على أنبيائه.

---

[1] آل عمران: 81

ويفسر علي بن إبراهيم القمي في تفسيره[1]: "أن الله أخذ ميثاق نبيه صلى الله عليه وآله على الأنبياء بأن يؤمنوا به وينصروه، ويخبروا أممهم بخبره".

وهذه عقيدتنا نفتخر بها ونعتز، وهي عقيدة علماء الأمة القدامى، مثل الشيخ الصدوق رحمه الله، حيث قال في كتابيه "الهداية" و"الاعتقادات[2]" ما نصّه: "ويجب أن يعتقد الفرد المسلم المؤمن أن الله تعالى لم يخلق خلقًا أفضل من محمد صلى الله عليه وآله، وأن بعده الأئمة صلوات الله عليهم، وأنهم أحب الخلق إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه، وأولهم إقرارًا به لما أخذ الله ميثاق النبيين في الذر، وأشهدهم على أنفسهم: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"، وبعدهم الأنبياء عليهم السلام، وأن الله بعث نبيه صلى الله عليه وآله إلى الأنبياء في الذر، وأن الله أعطى ما أعطى كل نبي بقدر معرفته لنبيّنا صلى الله عليه وآله وسبقه إلى الإقرار به".

فلماذا هناك تفاضل بين الأنبياء والمرسلين، ولماذا منازلهم متفاوته؟ الأعلى منهم هو من سبق غيره في الإيمان بنبينا محمد صلى الله عليه وآله. فعندما نسأل نبيًا مثل نوح عليه السلام: "من نبيّك الذي به اهتديت؟" يجيبنا: "محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله." فقد أرسله الله إليه في عالم الذر، وأخذ

[1] تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ١ - الصفحة ١٠٦

[2] الاعتقادات في دين الإمامية - الشيخ الصدوق - الصفحة ٩٣

عليه الميثاق، وأمره بالإيمان به ونصرته. فالأنبياء تتفاوت منازلهم بحسب معرفتهم بنبينا صلى الله عليه وآله. من كان أرسخ معرفة به، فضله الله وجعله من خيرة أنبيائه، ومن أولي العزم من الرسل.

ومن كان أسبق إلى الإيمان بنبينا في عالم الذر، حيث قال "بلى" مسرعًا إلى نور محمد صلى الله عليه وآله، فضله الله على غيره من الأنبياء. هذه عقيدتنا التي حرّرها أمثال الشيخ الصدوق رحمه الله في كتبه، كـ"الاعتقادات" و"الهداية".

وانظر إلى التفاوت الشاسع بيننا في عقيدتنا بنبينا صلى الله عليه وآله وعقيدة أهل الخلاف.

لا مجال للمقارنة!

نحن نحاول هنا فهم بعض الجوانب من هذه العقيدة العميقة، فنحن على الأعتاب فقط، نحاول أن نستقي شيئًا من هذا المعين. "هذا نذير من النذر الأولى"، ردّد هذه الآية دائمًا، واذكر أن نبيك صلى الله عليه وآله قديمٌ، نور قديمٌ، بعثه الله إلى الأنبياء هاديًا لهم، فآمنوا به وسارعوا إليه، فصاروا أنبياء الله. وهو النذير الأوحد، النذير الذي أُنذرت به الأمم من خلال أنبيائها. وهو النذير الأول، الذي به اهتدى الأنبياء وصاروا نوابه. في الحقيقة أنه بعد الله جلّ وعلا، ليس هناك مَن يظهر في الإيمان والطاعة إلا هذا

النبي صلى اللّٰه عليه وآله، أما البقية من أنبياء وأوصياء، فهم نوابه يأتمرون بأمره، وهو المطاع الأوحد. ومن كان بعده من الأوصياء، فطاعتهم تتفرع عن طاعته صلى اللّٰه عليه وآله.

فنحن نطيع الإمام الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام طاعةً لمحمد صلى اللّٰه عليه وآله، فالحجة نائب عنه. أما من سبقه من الأنبياء، فقد سبقوه في دنيانا هذه زماناً، أما هو فسبقهم في الدرجات عند اللّٰه وفي العوالم والأزمان السابقة، وكان أول من بعث اللّٰه، فطاعتهم أيضًا فرع من طاعته..

خاتمة

ختامًا،

بحمد اللّه وفضله، نصل إلى نهاية هذا الجزء الأول من الكتاب، الذي تقرّر بناؤه على محاضرات سماحة الشيخ ياسر الحبيب (حفظه اللّه)، مستلهمين من فكره النيّر ومنهجه العميق في قراءة لسيد الخلق صلى اللّه عليه و آله بمنظور جديد يخلو من التقليد المكرّر، ويهدف إلى تقديم حقائق ناصعة لطالما طُمست عبر التاريخ. إن هذا الكتاب ليس مجرد تجميع لحقائق معروفة أو إعادة تدوير لقصص مكررة، بل هو دعوة للتأمل والتفكر العميق، واستفزاز للذهن نحو مراجعة السائد وتفكيك الروايات المغلوطة التي حجبت جمال الرسالة المحمدية وجوهرها.

في هذا الجزء، عمد الشيخ إلى استعراض قضايا جوهرية تتعلق بالنبي الأعظم صلى اللّه عليه وآله، ليس من خلال سرد سيرته فقط، بل من خلال الغوص في أعماق شخصيته الفريدة، وبيان أبعاد رسالته الإلهية التي لم تكن مجرد مشروع دنيوي، بل مشروعًا كونيًا للهدم والبناء.

إن سيرة النبي صلى اللّه عليه وآله ليست مجرّد صفحات من التاريخ، بل هي خارطة طريق للبشرية، مليئة بالهدي والنور لكل من يريد الخلاص من ظلمات الجهل والتحريف إلى نور اليقين والحق.

لقد كانت محاضرات سماحة الشيخ ياسر الحبيب بمثابة المشعل الذي أضاء لنا طريق هذا الكتاب.

ومن خلال أسلوبه الفريد، تمكّن الشيخ من تقديم رؤية جديدة تُبرز عظمة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله كما لم تُعرف من قبل.

رؤية تضع الحقائق الغائبة بين أيدي القراء، وتكشف الزيف الذي طالما شوه الصورة النبوية العظيمة. فجهد الشيخ في نقل سيرة النبي وهديه لم يكن مجرد تحليل فكري، بل كان رحلة روحية وعقلية تسبر أغوار الرسالة المحمدية بمنهجية علمية وطرح جريء.

ومع ختام هذا الجزء الأول، فإننا نؤكد أن هذه البداية **ليست سوى خطوة أولى على طريق طويل**. فلا تزال هناك قضايا عميقة وأبعاد أخرى من حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله تحتاج إلى البحث والتدقيق، وهي ما سيُتناول بمشيئة الله في الجزء الثاني.

وسيحمل الجزء القادم مزيداً من الحقائق التي تهدف إلى تحرير الصورة النبوية من أي تشويه أو تحريف وتسليط للضوء على معاني الرسالة المحمدية التي لا تزال حيّة وفاعلة في عالمنا اليوم.

ندعو القارئ الكريم أن يتهيأ للجزء الثاني الذي نسأل الله تعالى أن يوفقنا لإتمامه، حيث سنواصل الغوص في بحر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، مستلهمين المزيد من المحاضرات القيمة لسماحة الشيخ ياسر الحبيب. سيكون هذا الجزء القادم محطة جديدة لاستكشاف القضايا التي تلامس حاضرنا، ولإعادة النظر في ما اعتدناه من تصورات قد تكون بعيدة عن الحقيقة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب منارةً لكل باحث عن الحقيقة، ووسيلة لإحياء أمر النبي الأعظم وأهل بيته عليهم السلام. كما نتوجه بالشكر إلى سماحة الشيخ ياسر الحبيب، الذي كان لجهوده العظيمة الدور الأكبر في إثراء هذا العمل، ولمنهجيته المتفردة الفضل في تقديم هذا الطرح العميق الذي نتمنى أن يكون قد أوصل شيئًا من أمانة الرسالة النبوية.

وفي الختام، نسأل الله أن يعيننا على إتمام هذا المشروع الفكري والثقافي، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يوفقنا لإكمال ما بدأناه في خدمة الحق وإعلاء كلمة الإسلام. والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد المصطفى،خير الورى، ومنار الهدى، وسيد الأولين والآخرين، وعلى آله الأطهار، سفن النجاة، ومصابيح الدجى، أئمة الحق وحجج الخلق، السادة الميامين، الذين أذهب الله عنهم الرجس

وطهرهم تطهيرًا، وجعلهم حبل الوصال بين السماء والأرض،وسلّم تسليمًا كثيرًا ما تعاقب الليل والنهار، وما أشرقت شمس بنورها، وما لاح بدر في مداره، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين..

الفهرس

مقدمة النّاشر	١١
نعترف .. منهجنا هدّام!	٢١
الاختراقات المحمدية للطوائف المعادية	٥٥
إيماننا بالمصطفى، إيمان من شاهد لا من سمع!	٩١
ما عارضهُ أحدٌ إلا افتُضِح!	١٢٢
آيةُ التغايرُ والتفاوت	١٥٢
تلميذُ الإلهِ في الأدبِ والفصاحة!	١٨٢

لامية أبي طالب الخالدة	٢١٠
الشهادات الأربع.. رؤيا عبد المطلب	٢٥٢
الرقّة المحمّديّة الإكسيريّة	٢٧١
رقّةُ خديجة ورعونةُ عائشة	٣٠٤
أجوَدُ المُستَمطَرينَ دِيمةً	٣٤٨
النذير الأول.. به اهتدى الأنبياء وصاروا نوابه !	٣٦٩
خاتمة	٤٠٠

الفهرس ٤٠٥

أيها القارئ الكريم ، بين يديك كتابٌ ليس كأي كتاب ، وصفحاتٌ ليست كأي صفحات . إنه سفرٌ عظيم ، يتوج سلسلةً من المحاضرات القيمة التي ألقاها سماحة الشيخ ياسر الحبيب (حفظه الله) ، والتي طالما أثارت العقول وألهبت القلوب ، فكانت شعلة هداية لكثيرٍ من الباحثين عن الحقائق الغائبة . هذا الكتابُ المبارك ، الذي يحمل عنوان :

محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما لم تعرفه من قبل

هو ثمرة جهد فكري عميق ، ومشروع ثقافي هادف ، يقدم صورة جديدة ومبهرة عن نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) كما لم تُقدم من قبل . . فقد استمر العمل على هذا السِّفر ، وهو الجزء الأول شهوراً طِوال . .

لجنة حفظ ونشر آثار
سماحة العلامة
الشيخ ياسر الحبيب أيده الله
لجنة غير رسمية